عند الله تجتمع الخصوم

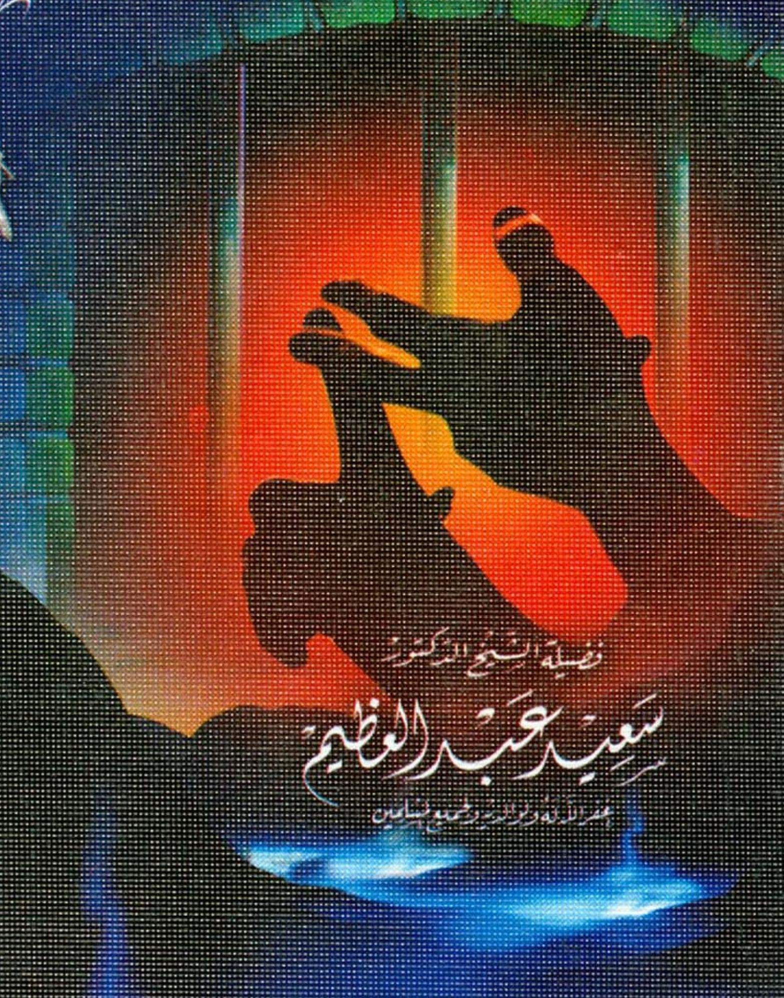

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

وعند الله تجتمع

الخصوم

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ١٤٩٩٣ / ٢٠٠٣

دار طيبة الخضراء
المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة - العزيزية
بجوار جامعة أم القرى - ص.ب ٦٩٥٨ مكة المكرمة
هاتف: ٥٥٨٩٠٢٧ - ٥٥٦٢٩٨٦ - فاكس: ٥٥٨٩٧٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد...

فالناس إن لم يجمعهم الحق شعَّبهم الباطل، وإن لم توحدهم عبادة الله مزقتهم عبادة الشيطان، وإن لم يستهوهم نعيم الآخرة تنازعوا على متاع الدنيا الزائلة، وهم في ذلك منهم محسن وظالم لنفسه مبين، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتم التدافع بين الإيمان والكفر والحق والباطل والسنة والبدعة ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥١)، ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (سورة الحج: ٤٠)، وسنة التدافع ماضية في الخلق قديمًا وحديثًا مما ترتب عليه وقوع الكثير من المظالم، ويكفي في ردع الظالم عن ظلمه، وفي إراحة المظلوم أن نعلمه أن عند الله غدًا تجتمع الخصوم.

بكى علي بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك؟، قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة، وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الآذان، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الآذان، فقال: قال الله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٤٤)، قال: ففيمَ ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك،

فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه، وكان معاوية ﵁ يقول: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله، ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين، وإذا مناد ينادي: حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين، وقيل: من سلب نعمة غيره، سلب نعمته غيره، وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه، فقال له: وكِل الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك.

ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه، وقال علي بن أبي طالب ﵁: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليَّ وصاروا يدًا واحدة، فقال: «يد الله فوق أيديهم»، فقلت له: «إن لهم مكرًا»، فقال: «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: «هم فئة كثيرة»، فقال: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»، وقال أبو ثور بن يزيد: «الحجر في البنيان من غير حلة عربون على خرابه»، وقال البعض: «لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب، وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وكان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول حسبك الله، الله بيني وبينك.

ما بالك بمظلوم شخص ببصره إلى السماء ورفع أكف الضراعة يدعو ربه، فقال الله عزَّ وجلَّ: لبيك عبدي حقًا لأنصرنك ولو بعد حين، وإذا كان من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، ولو كان شيئًا يسيرًا، ولو كان قضيبًا من أراك فما بالك لو كانت المظلمة فيما هو أعظم من ذلك، عرض أو مال أو فتنة في الدين؟!!

قال تعالى: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف:٤٤)، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة إبراهيم:٤٢)، قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (سورة الكهف:٢٩)، وقال عزَّ من قائل: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (سورة الشعراء:٢٢٧).

والظلم ثلاثة: ظلم لا يغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يُغفر فالشرك بالله ـ وهو أعظم الظلم ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (سورة النساء:٤٨)، وأما الظلم الذي لا يُترك، فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم مصدره يفضي إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم؛ فإنها تسري بالليل والناس نيام.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

فالله الله في نفسك لا تدمرها، وإياك والظلم فالعاقبة وخيمة.

وحق الله إن الظلم لؤم ... وإن الظلم مرتعه وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

والله نسأل أن يعيننا وإياكم على تأدية الحقوق لأصحابها، فهو أكرم مأمول وأعظم مسئول، وهو حسبنا وحسبكم ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه/ سعيد عبد العظيم

ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون

أخبر ربنا جلَّ وعلا نبيه ﷺ أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضًا سيموتون ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (سورة الزمر: ٣٠)، أي إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في عِداد الموتى، لأن كل ما هو آت قريب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة الزمر: ٣١). أي تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حق، وحينئذ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق.

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: وهو خطاب للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم، فاحتمل خمسة أوجه:

أحدها ـ أن يكون ذلك تحذيراً من الآخرة.

الثاني ـ أن يذكره حثًا على العمل.

الثالث ـ أن يذكره توطئة للموت.

الرابع ـ لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك.

الخامس ـ ليعلمه أن الله تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره، لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم، قاله ابن عباس وغيره وفي خبر فيه طول: إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى

أن يحاج الروح والجسد، وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه»، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد، وقال ابن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، فقلنا: وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد؟!، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت. وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة؟!. فلما كان يوم صفّين وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. وقال إبراهيم النخعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟! فلما قُتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا بيننا. وقيل تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى، فيستوفى من حسنات الظالم بقدر مظلمته، ويردها في حسنات من وجبت له، وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟»، قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع»، قال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار» (خرجه مسلم)، وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ مه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»، وفي الحديث المسند: «أول ما تقع الخصومات في الدنيا» اهـ.

فأعظم بهذا المشهد وليكن منك على بال فستجد خير ذلك ـ بإذن الله ـ في العاجل والآجل.

الصيحة تأخذهم وهم يخصمون

قال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة يس:٤٩-٥٠)، فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حسابًا، فإذا هم منتهون كلٌّ على حاله التي هو عليها لا يملك أن يوصي بمن بعده، ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة... وأين هم؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون، ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور ويمضون سراعًا، وهم في دهش وذعر يتساءلون ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ (سورة يس:٥٢)، ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً، فيدركون ويعرفون ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (سورة يس:٥٢)، ويكفي في ذلك صيحة واحدة، وهي الصيحة الأخيرة ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (سورة يس:٥٣)، لقد سأل المكذبون ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة يس:٤٨). فيكون الجواب مشهدًا خاطفًا سريعًا، صيحة تصعق كل حي، وتنتهي بها الحياة والأحياء ينتقلون بها من هذا الصخب وهذا الخصام في مثل لمح البصر، فإذا القرار العلوي يعلن على الجميع ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة يس:٥٤)، لقد استبعد المشركون تحقيق هذا الوعيد وقالوا ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ﴾ و كان هذا استهزاء منهم، قال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ وهي نفخة إسرافيل ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم، وهذه نفخة الصعق، وفي ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ خمس قراءات، ومعناها يخصم بعضهم بعضًا وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يختصمون في الحجة أنهم لا يبعثون، قال أبو هريرة: ينفخ في الصور والناس في أسواقهم، فمن حالبٍ لقحة، ومن ذارعٍ ثوبًا، ومن مارٍّ في حاجة، وروى نعيم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة، والرجل يليط

حوضه(يصلحه ويطينه) ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة، والرجل يرفع أكلته إلى فيه (فمه) فما يتبلعها حتى تقوم الساعة» وفي حديث عبد الله بن عمرو: «وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه إبله قال: فيصعق ويصعق الناس» الحديث. ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضًا لما في يده من حق، وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضًا بالتوبة والإقلاع بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم ﴿ وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا ماتوا أو أنهم لا يرجعون إليهم قولاً لأنهم قد أعجلوا عن ذلك وشأن الغافل المكذب بالبعث والذي هو مع خصمه مشغول إذا سمع الصيحة وهي من الشدة والقوة على ما ذكرناه، أن يكون ارتجافه أتم وخوفه أعظم، إن شدة الهول لا تمهلهم إلى أن يوصوا، والتوصية تتم بالقول، والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل، فمع احتياجه للتوصية في هذه اللحظات الحرجة إلا أنه لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة، فكيف يستطيع أداء الواجبات ورد المظالم، ولأن الوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها.

■ قوله تعالى: ﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ... ﴾(سورة ق:٢٨).

لا تعارض بين ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾(سورة الزمر:٣١)، وبين نفي الاختصام المذكور في قوله سبحانه: ﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(سورة ق:٢٨-٢٩)، قال ابن عطية في تفسيره، قوله تعالى: ﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ معناه: قال الله تعالى: لا تختصموا لديَّ بهذا النوع من المقاولة التي لا تفيد شيئًا إذ قد استوجب جميعكم النار، وقد أخبر تعالى بأنه تقع الخصومات لديه في الظُّلامات ونحوها مما فيه اقتصاص واقتضاءٌ، فأيده تعالى بقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾. وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿ لا تَخْتَصِمُوا ﴾. يريد تعالى بذلك مخاطبة جميع القرناء، إذ هو أمر شائع لا يقف على اثنين فقط، وهذا كما يقول

الحاكم لخصمين: لا تغلظوا عليَّ، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما، وتقدمته تعالى إلى الناس بالوعيد هو ما جاءت به الرسل عليهم السلام والكتب من تعذيب الكفرة» ا.هـ. وقال الرازي في تفسيره ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾: «يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي» اهـ.

ونقل القرطبي قول سعيد بن جبير: يقول الكافر رب إنه زاد عليَّ في الكتابة، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة فحينئذ يقول الله تعالى: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين، قال القشيري: وهذا يدل على أن القرين الشيطان ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾. أي أرسلت الرسل وقيل: هذا خطاب لكل من اختصم. وقيل: هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾. قيل هو قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ (سورة الأنعام: ١٦٠)، وقيل هو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة السجدة:١٣)، وقال الفراء: ما يكذب عندي أي ما زاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ما أنا بمعذب من لم يجزم، قاله ابن عباس. اهـ.

إن نصوص الوحي قد خرجت من مشكاة واحدة، فلا يظن بها وجود تعارض، والقرآن لم ينزل يضرب بعضه بعضًا ولكن يصدق بعضه بعضًا، ولما كانت القيامة مواقف كثيرة، ففي بعضها تحدث الخصومات وذلك في الظلامات وفي بعضها الآخر يقال: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. وذلك لمن استوجب النار، فلم تنفعه مقاولته، وبالتالي فلا معارضة بين الآيات.

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

قال تعالى في وصف الإناث: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (سورة الزخرف:١٨)، وقد ورد قبلها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة الزخرف:١٧)، فمن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد وُلدت له أنثى اغتم

واربد وجهه غيظًا وتأسفًا وهو مملوء من الكرب، دليله في سورة النحل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾ (سورة النحل:٥٨)، وقد أعقب سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (سورة الزخرف:١٩)، وطبيعة النساء تميل إلى التحلِّ وإلى التجمل، ومعنى ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي يُربى ويشب في الزينة قال ابن عباس وغيره: هن الجواري زيُّهن غير زي الرجال، وقال مجاهد: رخص للنساء في الذهب والحرير، قال الكيا: فيه دلالة على إباحة الحُلي للنساء والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى، ونقل القرطبي عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته: يا بنية، إياك والتحلي بالذهب فإني أخاف عليك اللهب، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ . أي في المجادلة والإدلاء بالحجة، قال قتادة: ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها، فهل يجوز أن يضاف إلى الله من هذا وصفه؟! وقيل المنشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلوها، قاله ابن زيد والضحاك، ويكون معنى وهو في الخصام غير مبين أي ساكت عن الجواب قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله، وذكر العباد مدح لهم، أي كيف عبدوا من هو في نهاية العبادة، ثم كيف حكموا بأنهم إناث من غير دليل ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا حالة خلقهم حتى حكموا بأنهم إناث، وقيل: إن النبي ﷺ سألهم وقال: «فما يدريكم أنهم إناث؟» ، فقالوا: «سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا في أنهم إناث»، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي يسئلون عنها في الآخرة.

ألد الخصام

لما ذكر سبحانه الذين قصرت همتهم على الدنيا في قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ (سورة البقرة:٢٠٠)، والمؤمنين الذين سألوا خير الدارين، وذكر

المنافقين، لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٤)، قال السدي وغيره من المفسرين: نزلت في الأخنس بن شريق... وكان رجلاً حلو القول والمنظر، فجاء بعد ذلك إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام وقال: الله يعلم أني صادق ثم هرب بعد ذلك، فمر بزرع لقوم من المسلمين، ويُحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر قال المهدوي: وفيه نزلت: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (سورة القلم: ١٠-١١)، و ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (سورة الهمزة: ١)، قال ابن عطية: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم، وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرجيع: عاصم بن ثابت وخبيب وغيرهم، وقالوا: ويح هؤلاء القوم لا هُمْ قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآية في صفات المنافقين، ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٧)، وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء: نزلت في كل مبطن كفرًا أو نفاقًا أو كذبًا أو إضرارًا، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة، وهي تشبه ما ورد في الترمذي: أن في بعض كتب الله تعالى: «إن من عباد الله تعالى قوما ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، يشترون الدنيا بالدين»، ويقول الله تعالى: «أبى يغترون وعليَّ يجترئون فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تدع الحليم منهم حيران». قال القرطبي: قال علماؤنا: وفي هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا واستبراء أحوال الشهود والقضاة، وأن الحاكم لا يعمل على ظاهر أحوال الناس وما يبدو من إيمانهم وصلاحهم حتى يبحث عن باطنهم، لأن الله تعالى بين أحوال الناس وأن منهم من يظهر قولاً جميلاً وهو ينوي قبيحًا، فإن قيل: هذا يعارضه قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» الحديث، وقوله: «فاقضي له على نحو ما أسمع» فالجواب: أن هذا كان في صدر الإسلام، حيث كان إسلامهم سلامتهم، وأما وقد

عم الفساد فلا، قاله ابن العربي، قال القرطبي: قلت: والصحيح أن الظاهر يُعمل عليه حتى يتبين خلافه لقول عمر بن الخطاب ﷺ في صحيح البخاري: «**أيها الناس، إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمَّناه وقرَّبناه، وليس لنا من سريرته، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة**» اهـ.

وألد الخصام هو الشديد الخصومة، أي في أي جانب أخذ من الخصومة غلب، والمعنى: أشد المخاصمين خصومة، أي هو ذو جدال، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة وباطنه باطل وهذا يدل على أن الجدال لا يجوز إلا بما ظاهر، وباطنه سواء، وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»

الخصيم المبين

أخبر تعالى في سورة النحل عن خلقه العالم العلوي وهو السموات والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (سورة النجم: ٣١)، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٥٤-٥٥)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس: ٧٧-٧٩)، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن

ماجة عن بشر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى ابن آدم: أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم (أي الروح) قلت: أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة»، ذكره ابن كثير في تفسيره، وقال القرطبي في معنى ﴿ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾: روى أن المراد به أُبي بن خلف، فقد أتى إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقال أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمَّ. وفي هذا أيضًا نزلت ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾. أي خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب فنقله أطواراً إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم في الأمور فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾. أي مخاصم أي يخاصم الله عزَّ وجلَّ في قدرته.. و﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر الخصومة، وقيل: يبين عن نفسه الخصومة بالباطل، والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه، وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وجهان:

أحدها ـ فإذا هو منطبق مجادل عن نفسه منازع للخصومة بعد أن كان نطفة قذرة، وجماداً لا حس له ولا حركة والمقصود منه: أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم.

والثاني ـ فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (سورة يس:٧٨)، والغرض منه وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتمادي في كفران النعمة.

والوجه الأول أوفق، لأن هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر والكفران أهـ.

ولعل الوجه الثاني الذي ذكره الرازي هو الأوفق لكونه يتناسب مع من نزلت فيه الآيات ويتوافق مع ما ذكره القرطبي والإمام ابن كثير ـ رحمهما الله ـ.

الناس يختصمون والملائكة كذلك

كما يختصم الناس في الآخرة ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٣١)، كذلك فهم يختصمون في الدنيا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (سورة النمل: ٤٥).

قال مجاهد: أي مؤمن وكافر قال: والخصومة ما قصه الله تعالى في قوله: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾. إلى قوله: ﴿ كَافِرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٧٥-٧٦)، وقيل: تخاصمهم أن كل فرقة قالت: نحن على الحق دونكم، وقص علينا سبحانه قصة نبيه داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (سورة ص: ٢١-٢٢)، أي علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب قاله سفيان الثوري وغيره، وكانوا قد مُنعوا من الدخول غليه من الباب لشغله بالعبادة، والآيات تحكي خصومة بين فريقين اختصما في نعاج من الغنم وأن أحدهما بغى على صاحبه كما هو ظاهر النص، وقص ربنا جلَّ وعلا على نبيه ﷺ ما كان منهم عندما اختصموا بشأن مريم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٤٤)، أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم في الأجر، واختصام أهل النار، هو من جملة عذابهم قال تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٩٤-٩٨)، يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ، فهم في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذ اتخذوا مع الله آلهة فعبدوها كما يُعبد، وهذه الآلهة الباطلة لا

تستطيع نصرهم ولا نصر أنفسها، وقد ذكر سبحانه اختصام الملائكة فقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة ص:٦٧-٦٩)، والملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدي اختصموا في أمر آدم حين خُلق فـ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (سورة البقرة:٣٠)، وقال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ (سورة الأعراف:١٢)، وفي هذا بيان أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي، فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة ص:٦٧-٦٨)، وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟، قلت: في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟، قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبرات (شدة البرد)، والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة، قال: وما الدرجات؟، قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام» (خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس وقال فيه حديث غريب وعن معاذ بن جبل وقال حديث حسن صحيح).

وقيل: الملأ الأعلى الملائكة ويختصمون لفرقتين يعني قول من قال منهم الملائكة بنات الله، ومن قال آلهة تعبد، وقيل: الملأ الأعلى ههنا قريش، يعني اختصامهم فيما بينهم سراً فأطلع الله نبيه على ذلك.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

خاصم المشركون رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾. أي آلهتنا خير أم عيسى، قاله السدى: وقال: خاصموه وقالوا إن كل من عُبد من دون الله في النار،

فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠١)، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل لأنهم علموا أن المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من الموات ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي مجادلون بالباطل.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾

قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا:

قال الضحاك: لما سرق ابن أبيرق الدرع اتخذ حفرة في بيته وجعل الدرع تحت التراب. وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات أن نفرًا من الأنصار ـ قتادة بن النعمان وعمه رفاعة ـ غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فَسُرِقَتْ درعٌ لأحدهم (رفاعة) فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طَعمة بن أبيرق سرق درعي (وفي رواية: إنه بشير بن أبيرق وفي هذه الرواية: أن بشيرًا هذا كان منافقًا يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب!) فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع، وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علمًا، فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، ولما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت يهودي قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس، وكان أهله قد قالوا للنبي ﷺ ـ قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي ـ أن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت!! قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال: «عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت

ولا بينة؟» قال: فرجعت، ولوددت أن خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟، فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: «الله المستعان فلم نلبث أن نزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء:١٠٥)، أي بني أبيرق ـ وخصيمًا: أي محاميًا ومدافعًا ومجادلاً عنهم ـ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ (سورة النساء:١٠٦)، أي مما قلت لقتادة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء:١٠٦)، ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (سورة النساء:١٠٧)، إلى قوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء:١١٠)، أي لو استغفروا الله لغفر الله لهم: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (سورة النساء:١١١)، إلى قوله: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء:١١٢)، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ (سورة النساء:١١٣)، إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء:١١٤)، فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة.

تفسير القرطبي للآيات:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة النساء:١٠٨)، أي يستترون كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ (سورة الرعد:١٠)، أي مستتر، وقيل يستحيون من الناس وهذا لأن الاستحياء سبب الاستتار ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (سورة النساء:١٠٨)، أي لا يخفى مكان الدرع على الله ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي رقيب حفيظ عليهم، قال القرطبي: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾. أي بالعلم والرؤية والسمع وهذا قول أهل السنة، وقال سيد قطب في تفسيرها:

«وهي صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية زرية بما فيها من ضعف والتواء، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة، ويستخفون بها عن الناس، والناس لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا بينما الذي يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون، مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون، وهم يزورون من القول ما لا

يرضاه فأي موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف؟» ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (سورة النساء:١٠٨)، إجمالاً وإطلاقًا. . . فأين يذهبون بما يبيتون والله معهم إذ يبيتون، والله بكل بشيء محيط وهم تحت عينه وفي قبضته» أهـ.[1]

قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا:

هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا ولا تعرف لها البشرية شبيهًا وتشهد ـ وحدها ـ بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله، لأن البشر ـ مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوحي من الله هذا المستوى الذي يرسم خطًا على الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظلال هذا المنهج ـ ولا تملك الصعود إليه أبدًا إلا في ظل هذا المنهج كذلك. إن هذه الآيات نزلت تبرئة ليهودي من يهود التي لا تدع سهمًا مسمومًا تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، يهود التي يذوق منها المسلمون الأمرين في هذه الحقبة (ويشاء الله أن يكون ذلك في كل حقبة!) يهود التي لا تعرف حقًا ولا عدلاً ولا نصفة، ولا تقيم اعتبارًا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق.

دروس مستفادة من القصة:

هل أخذنا درسًا من هذه الآيات البينات، وهل نحن على استعداد أن نبرىء ساحة المسلمين بعد اتهامهم بالتطرف والإرهاب ونسبتهم لارتكاب حوادث القتل والتخريب ظلمًا وزورًا بعد أن اتضح أن اليهود على الأقل قد ارتكبوا بعضها لتعكير الأمن وتخريب الاقتصاد ولتعجيل الإجهاز على الصحوة الإسلامية؟ وهل انتهينا عن

(١) راجع: «في ظلال القرآن» (جـ٢ ص:٧٥٢).

الزنا والسرقة وسائر المعاصي والذنوب التي نتكتمها عن الناس ونبديها لرب الناس؟ كان الإمام أحمد يقول:

إذا خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
لا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

دناءة ونذالة:

إنها لدناءة ونذالة أن نعصي الله ونحن في قبضته، ونجترأ على انتهاك حدوده وهو يرانا ويسبغ علينا نعمه، أين الحياء والخجل من الله وقد بارزنا الله بالحرب ليس في السر فقط، بل وفي العلن كذلك، بل أصبح البعض يتباهى بالزنا وشرب الخمر ومصاحبة النساء. . . وفي الحديث: «ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا». إن هذا الحال الذي نعيشه ـ والذي لا يخفى عليكم ـ إنما يدل على عدم الخوف من الله كما يدل على عدم الحياء منه سبحانه، والحياء والإيمان قُرنا جميعًا فإذا رُفع أحدهم رُفع الآخر، إن الناس لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وإنما الذي يملك ذلك هو ربنا جلَّ وعلا وبيده الجنة والنار، له الحكم كله وله الملك كله وإليه يُرجع الأمر كله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة هود: ١٢٣).

خوف الصحابة حتى من الخواطر:

لما علم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك تخوفوا على أنفسهم حتى من خواطرهم ومشاعرهم، فإن البعض يقول لرسول الله ﷺ: «إنا لنجد في أنفسنا ما لو خررنا من السماء إلى الأرض لكان أهون علينا من أن نتحدث به فيقول النبي ﷺ: «ذلك صريح الإيمان، وقال: الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة (أي الشيطان)، وقال: أَوَقَدْ وجدتموه»، وقال أيضًا لمن سأله: «قل: آمنت بالله»، ونحن وصفنا هذه الوساوس الشيطانية بوصف المشاعر الصادقة والوجدانات والأحاسيس الفياضة والعواطف الدافقة!!!.

حالنا اليوم:

تكلمنا وعملنا بهذه الوساوس دون خوف من الله أو حياء من الناس لأنهم على شاكلتنا في الكثير من الأحيان، بل حالة بعض من ينتسب للعلم والصلاح الآن لا تبعد عن هذه الآية الكريمة ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (سورة النساء:١٠٨)، فهذا الذي يبتسم ابتسامة عريضة مع إخوانه وأصدقائه وهو دائم الشتم والضرب لزوجه، وهذا الذي يلين جانبه للناس ثم هو هو الفظ الغليظ مع والديه، وهذا الذي يعيش بوجهين وبمفهومين وبولاءين، وجه له في المسجد فيه أمارات التقى وعلامات الصلاح والثاني مع الراقصة والمغنية أو فيه أمارات الربا والغش والرشوة. . . كلها صور لا تتباعد عن هذه الآية وزيادتها واستشراؤها يدل على صورة من صور الطغيان المادي المعاصر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (سورة الحج:١٩-٢١).

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ خرج مسلم عن قيس بن عُباد قال: سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قسمًا إن ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إنها نزلت في الذي برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ﷺ وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة. وبهذا الحديث ختم مسلم ـ رحمه الله ـ كتابه، وقال ابن عباس: نزلت هذه الآيات الثلاث على النبي ﷺ بالمدينة في ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين؛ وسمَّاهم، كما ذكر أبو ذر، وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إني لأول من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛

ذكره البخاري، وإلى هذا القول ذهب هلال بن يساف وعطاء بن يسار وغيرهما، وقال عكرمة: المراد بالخصمين الجنة والنار؛ اختصمتا فقالت النار: خلقني لعقوبته، وقالت الجنة: خلقني لرحمته.

قال القرطبي: وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله تعالى لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها» (خرجه البخاري ومسلم والترمذي وقال: حديث حسن صحيح)، وقال ابن عباس أيضًا: هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم، وأقدم منكم كتابًا، ونبيُّنا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله منكم، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليه من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه وكفرتم به حسدًا، فكانت هذه خصومتهم، وأنزلت فيهم هذه الآية، وهذا قول قتادة، والقول الأول أصح رواه البخاري.

عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر «هذان خصمان اختصموا في ربهم - إلى قوله - عذاب الحريق» وقرأ ابن كثير «هذانِّ خصمان» بتشديد النون من «هذان»، وتأول الفرَّاء الخصمين على أنهما فريقان أهل دينين، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى، اختصموا في دين ربهم، قال: فقال: «اختصموا» لأنهم جمع، قال: ولو قال «اختصما» لجاز. قال النحاس: وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور، عن قيس بن عُباد قال: سمعت أبا ذر يقسم قسمًا إن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس. وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أي ملة كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي، وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم، وقيل: نزلت في الخصومة في البعث والجزاء؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم.

تخاصم أهل النـار[1]

عندما يعـاين الكفرة أعداء الله ما أعـد لهم من العذاب، وما هم فـيه من أهوال يمقتون أنفسهم كما يمقتون أحبـابهم وخلانهم في الحياة الدنيا، بل تنقلب كل محبة لم تقم على أساس من الإيمان إلى عداء، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف:٦٧)، وعند ذلك يخـاصم أهل النار بعضـهم بعضًـا، ويحاج بعضهم بعضًا، العـابدون المعبودين، والأتباع السادة المتبوعين، والضـعفاء المتكبرين، والإنسان قرينه، بل يخاصم الكافر أعضاءه.

١ - أما مخاصمة العابدين المعبودين:

ففي قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة الشعراء:٩١-٩٩)، إنهم يخـاطبون آلهـتهم التي كـانوا يعبدون، معترفين بضلالهم إذ كانوا يعـبدونها، ويسوون بينها وبين الخالق، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق، وكل من عبد من دون الله آلهة، فقد سوى بين الخالق والمخلوق، وهذا هو الظلم العظيم، كمـا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان:١٣).

أما الصـالحون الأخيـار الذين عُبـدوا وهم لا يعلمون، أو عبـدوا بغيـر رضاهم كـالملائكة وصـالحي البـشر، فـإنهم يتـبرؤون من عـابديهم، ويكذبون زعم العـابدين وافتراءهم، فـإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة، ولا رضيت بـها، والذين طلبوها هم

---

(١) «اليوم الآخر» للدكتور/ عمر سليمان الأشقر.

الجن، كي يضلوا البشر ويوبقوهم، فهؤلاء الضالون عابدون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سورة سبأ: ٤٠-٤١).

وعيسى بن مريم يتبرأ في يوم الدين من الذين اتخذوه إلهًا وعبدوه من دون الله ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ... ﴾ (سورة المائدة: ١١٦-١١٧).

هذا موقف جميع المعبودات التي لم ترض باتخاذها آلهة، تتبرأ من عابديها، وتكذبهم في دعواهم، وتقر بعبوديتها لله ربها، ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨٦-٨٧).

وقال في موضع آخر: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (سورة يونس: ٢٨-٣٠).

٢ - وأما تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب الفكر، والنظريات الضالة، والمبادىء المناقضة للإسلام:

فقد ذكرها الله في موضع آخر فقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

يَتَساءلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٩-٣٥).

وهذا المذكور في هذه الآيات هو تلاوم أهل النار في عـرصات القيامـة، فالأتباع يقولون لقادة الضلال أنتم الذين كنتم تزينون لنا الباطـل، وتغروننا بمخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٧)، ولكن القادة ورجـال الفكر والزعماء يرفضـون هذا، ويقولون لهم: أنتم تتحملون نتيـجة أعمالكم، فقد اخـترتم الكفر، ولم يكن لنا من سلطان عليكم، إن طغيانكم واستكباركم هو الذي أوصلكم إلى هذه النهاية.

٣ ـ أما مخاصمة الضعفاء للسادة من الملوك والأمراء وشيوخ العشائر الذين كانوا يتسلطون على العباد، ويشدُّ الضعفاء أزرهم، ويعينونهم على باطلهم بالنفس والمال:

فقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (سورة إبراهيم: ٢١)، ولندع الداعية المفسـر الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وأجزل له المثوبة يفسر لنا هذه الآيات، ولنعش معه في الظلال:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَـمِـيـعًـا...﴾ الطغـاة المكذبـون، وأتبـاعـهم من الضـعـفـاء المستذلين... ومعهم الشيطان... ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات... برزوا «جميعًا» مكشـوفين. وهم مكشوفون لله دائمًـا، ولكنهم الساعـة يعلمون ويحسـون أنهم مكشوفون لا يحجـبهم حجـاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقـيهم واق... برزوا وامتلأت الساحـة ورفع الستار، وبدأ الحوار: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ... والضعفاء هم

الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه؛ وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله، والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحرية ـ التي هي ميزته ومناط تكريمه ـ أو أن ينزل كارهًا. والقوة المادية ـ كائنة ما كانت ـ لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!.

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة، فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالاً أو منصبًا أو مقامًا. . . كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء، إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وما الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!.

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير. فهي دائمًا قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!.

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء.. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾. وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة بتعريضهم إياهم للعذاب؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!.

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ وهو رد يبدو فيه البرم والضيق: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضلكم. ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله. فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار، وإنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله... والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (سورة الأعراف:٢٨)، ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلنوا لهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر. فقد حق العذاب، ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله. لقد انتهى كل شيء، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار... وهنا نرى على المسرح عجبًا. ونرى الشيطان... هاتف الغواية، وحادي الغواة... نراه الساعة يلبس

مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢).

الله! الله! أما إن الشيطان حقًا لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار...

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة... هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضي الأمر ـ هو الذي يقول الآن، وبعد فوات الأوان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾، ثم يخزهم وخزة أخرى بتعبيرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾. ثم يؤنبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم، يؤنبهم على أن أطاعوه!: ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾، ثم يخلي بهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم، ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ: ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾، وما بيننا من صلة ولا ولاء!.

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الاشراك: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾. ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فيا للشيطان، ويالهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوهم.

وفي موضع آخر يذكر الله تخاصم الضعفاء والسادة المستكبرين فيقول: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٤٧-٤٨).

وهذه الآيات الكريمة تأتي بعد الإخبار بما كان من استعلاء فرعون من تذبيحه الأطفال، ومحاولته قتل موسى، ومحاورته ذلك المؤمن الذي واجه فرعون ودحض حجته وباطله، وكيف وقف الشعب موقف التابع الذي ينفذ رغبات الطاغية، فيقوم أفراده بالتذبيح والإيذاء والمطاردة، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا أعوانًا للظلمة المجرمين يعلمون في يوم القيامة فداحة الجريمة التي وقعوا فيها، ويقولون للسادة أمثال فرعون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾، ولكن السادة لا يملكون لأنفسهم شيئًا، ولا يستطيعون نصر أنفسهم، فيقولون: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وهذا الموقف يدلنا على الجواب الذي يمكننا أن نواجه به المقولة الباطلة الي يرددها بعض الظلمة حيث يقولون لأتباعهم: اتبعوني، وأنا أتحمل وزركم إن كان عليكم وزر، فإن تحملهم مثل أوزار الذين يضلونهم، لا يمنع العذاب عن الذين اتبعوهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ١٢-١٣)، وقال في موضع آخر محدثًا عن مخاصمة الضعفاء للمستكبرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا

النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة سبأ: ٣١-٣٣).

فالأتباع والضعفاء يتهمون سادتهم وزعمائهم قائلين لهم: أنتم الذين حلتم بيننا وبين الإيمان، فلولاكم لكنا من الذين اتبعوا ما أنزل إلينا من ربنا ولكن المستكبرين يرفضون هذه التهمة، ويقولون لهم: أنتم المجرمون، كل ما في الأمر أننا دعوناكم فاستجبتم لنا، ولم يكن لنا عليكم من سلطان، فتقول الشعوب المستضعفة الضالة: بل مكركم بنا في الليل والنهار أضلنا وحرفنا عن جادة الصواب، فالمؤامرات والمؤتمرات، ووسائل الإعلان في مختلف العصور التي تصور الحق باطلاً، والباطل حقًا، وما كان يلقيه الزعماء من شبهات ومزاعم باطلة، كل ذلك أضلنا وجعلنا نكفر بالله، ونشرك به، والحق أن الجميع خاطئون، وهم غير معذورين في ضلالهم وكفرهم.

ويصف الحق هذا التخاصم بين أهل النار عند دخولهم النار فيقول: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (سورة ص: ٥٥-٦٤).

فهؤلاء الذين كان بعضهم يرحب ببعض في الحياة الدنيا، ويوقر بعضهم بعضا، يتحول حالهم في ذلك اليوم فيقول بعضهم لبعض: ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، ويتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام، إن هذا التخاصم بين أهل النار حق كائن لاشك في ذلك، كذلك يقول ربنا تبارك وتعالى.

٤ ـ ويقع الخصام في ذلك اليوم بين الكافر وقرينه الشيطان:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (سورة ق:٢٣-٢٩).

٥ ـ ويبلغ الأمر أشده والمخاصمة ذروتها عندما يخاصم المرء أعضاءه:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة فصلت:١٩-٢١)، وهذا يكون من الكفار عندما يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم، فيلجأون إلى التكذيب والإنكار، ويزعمون أنهم كانوا صالحين، ويكذبون بشهادة الملائكة والمرسلين والصالحين الذين يشهدون عليهم، فعند ذلك يختم الله على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك يقولون لأعضائهم: «بعدا لكنَّ وسحقا، عنكن كنت أجادل».

أخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يلقى العبد ربه، فيقول الله: ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقال: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني، فيقول له مثل ذلك، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك، فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط عليه»[(١)].

---

(١) رواه مسلم.

وإن هذا الحوار الذي يجري بين العبد وجوارحه موضع عجب واستغراب، وقد أضحك هذا الموقف الرسول ﷺ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك.

فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «من مخاطبة العبد ربَّه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟

قال: يقول: بلى.

قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني.

قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهود، ثم يختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله.

قال: ثمَّ يخلي بينه وبين الكلام.

قال: فيقول: بعدا لكنَّ وسحقا. فعنكنَّ كنت أناضل»[(١)].

٦ - *ويخاصم البدن في يوم القيامة الروح:*

قال ابن كثير: «وقد روى ابن منده في كتاب (الروح) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت.

فيبعث الله ملكًا يفصل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير، والآخر ضرير دخلا بستانًا، فقال المقعد للضرير: إني أرى هاهنا ثمارًا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟.

فيقولان: كلاهما، فيقول لهما الملك، فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه».

---

(١) رواه مسلم.

٧ ـ وفي ذلك الموقف يمقتون أنفسهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (سورة غافر: ١٠)، كما يمقتون كل الذين كانوا لهم أنصاراً وخلاناً في الدنيا، ويدعون عليهم، ويطلبون لهم المزيد من العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٦-٦٨)، ولشدة حنقهم على من أضلهم يسألون الله أن يريهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ (سورة فصلت: ٢٩)، وعندما يدخلون النار ترتفع أصواتهم بلعن بعضهم بعضا، ثم يتمنى بعضهم لبعض مزيداً من العذاب ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨).

إذا اختصمتم فتذكروا

أولاً - الإيمان بالأسماء والصفات

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٠)، وقال: ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (سورة طه: ٨).

اعلم - رحمك الله - أن الإيمان بالأسماء والصفات من شأنه أن يجعلك تنصف من نفسك، وترد الحقوق لأصحابها، وبه تتم تقواك لله جلَّ وعلا، قال الشيخ حافظ حكمي في (معارج القبول): «الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وما كان معه من إله، الذي لا إله إلا الله هو ولا خالق غيره ولا رب سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى أن لا تعبدوا إلا إياه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (سورة الحج: ٦٢).

عالم الغيب والشهادة: الذي استوى في علمه ما أسرَّ العبدُ وما أظهر، الذي علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (سورة سبأ: ٢)، كيف لا وهو الذي خلق وقدَّر ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك: ١٤).

رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما: الذي كتب على نفسه الرحمة وهو أرحم الراحمين، الذي غلبت رحمته غضبه كما كتب ذلك عنده على عرشه في الكتاب المبين، الذي وسعت رحمته كل شيء وبها يتراحم الخلائق بينهم، كما ثبت ذلك عن سيد المرسلين ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة الروم: ٥٠).

الملك الحق: الذي بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له في ملكه ولا معين، المتصرف في خلقه بما يشاء من الأمر والنهي والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والهداية والإضلال ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٤)، لا راد لقضائه ولا مضاد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٦٢)، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير.

القدوس السلام الذي اتصف بصفات الكمال، وتقدس عن كل نقص ومحال، وتعالى عن الأشباه والأمثال، حرام على العقول أن تصفه وعلى الأوهام أن تكيفه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة الشورى: ١١).

المؤمن: الذي آمن أولياءه من خزي الدنيا ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية، وآتاهم في هذه الدنيا حسنة، وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية، المهيمن الذي شهد على الخلق بأعمالهم وهو القائم على كل نفس بما كسبت لا تخفى عليه منهم خافية، إنه بعباده لخبير بصير.

العزيز: الذي لا مغالب له ولا مرام لجنابه، الجبار الذي له مطلق الجبروت والعظمة وهو الذي يجبر كل كسير مما به، المتكبر الذي لا ينبغي الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه، فمن نازعه صفة منها أحل به الغضب والمقت والتدمير، الخالق البارىء المصور لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة التغابن: ٢-٣)، ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (سورة لقمان: ٢٨).

الغفار: الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرة، القهار الذي قصم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره.

الوهاب: الذي كل موهوب وصل إلى خلقه فمن فيض بحار جوده وفضله ونعمائه الزاخرة، والرزاق الذي لا تنفد خزائنه ولم يغض ما في يمينه، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير، يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تدبيرًا متقنًا محكمًا، يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالاً وأولادًا وأهلاً وخدمًا، ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته، قضى ذلك قضاء حتمًا مبرمًا، وأشرف الأرزاق في هذه الدار ما رزقه عبده على أيدي رسله من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير.

الفتاح: الذي يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم، يفتح على هذا مالاً وعلى هذا ملكًا وعلى هذا علمًا وحكمة ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة الجمعة: ٤)، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة فاطر: ٢).

العليم الذي أحاط علمه بجميع المعلومات من ماض وآت وظاهر وكامن ومتحرك وساكن وجليل وحقير، علم بسابق علمه عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين، ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام: ٥٩)، ما من جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا ويدري ما في قعره ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (سورة فاطر: ١١).

القابض الباسط: فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه، ويبسطه على من يشاء فيوسع عليه، وكذا له القبض والبسط في أعمال عباده وقلوبهم، كل ذلك إليه، إذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير.

الخافض الرافع، الضار النافع، المعطي المانع: فلا رافع لمن خفض ولا خافض لمن رفعه، ولا نافع لمن ضر ولا ضار لمن نفعه، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لمن هو له مانع، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء من هو مانعه لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأنعام:١٧).

المعز المذل: الذي أعز أولياءه المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القوية المتظاهرة، وأذل أعداءه في الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل، وما لمن عاداه وأذله من ولي ولا نصير.

السميع البصير: لا كسمع ولا بصر أحد من الورى، القائل لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (سورة طه:٤٦)، فمن نفى عن الله ما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذبًا وقد خاب من افترى، ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام:١٠٣).

الحكم العدل: في قضائه وقدره وشرعه وأحكامه قولاً وفعلاً ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود:٥٦). فلا يحيف في حكمه ولا يجور ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت:٤٦)، الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرمًا ووعد الظالمين الوعيد الأكيد، وفي الحديث: «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[(١)]. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (سورة هود:١٠٢)، وهو الذي يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا بل يحصي عليهم الخردلة والذرة والفتيل والقطمير.

---

(١) متفق عليه.

اللطيف: بعباده معافاة وإعانة وعفوًا ورحمة وفضلاً وإحسانًا، ومن معاني لطفه إدراك أسرار الأمور حيث أحاط بها خبرة تفصيلاً وإجمالاً وسرًا وإعلانًا، الخبير بأحوال مخلوقاته وأقوالهم وأفعالهم ماذا عملوا وكيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا حقيقة وكيفية ومكانًا وزمانًا ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة لقمان: ١٦).

الحليم: فلا يعاجل أهل معصيته بالعقاب، بل يعافيهم ويمهلهم ليتوبوا فيتوب عليهم إنه هو التواب العظيم، الذي اتصف بكل معنى يوجب التعظيم، وهل تنبغي العظمة إلا لرب الأرباب، خضعت لعظمته وجبروته جميع العظماء، وذل لعزته وكبريائه كل كبير.

الغفور الشكور: الذي يغفر الكثير الزلل، ويقبل اليسير من صالح الأعمال، فيضاعفه أضعافًا كثيرة ويثيب عليه الثواب الجلل، وكل هذا لأهل التوحيد، أما الشرك فلا يغفره ولا يقبل معه من العمل من قليل ولا كثير.

العليُّ: الذي ثبت له كل معاني العلو، علو الشأن وعلو القهر وعلو الذات، الذي استوى على عرشه وعلا على خلقه بائنًا من جميع المخلوقات، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه وأخبر عنه رسوله ﷺ في أصح الروايات، وأجمع على ذلك أهل الحل والعقد بلا نزاع بينهم ولا تكبر.

الكبير: الذي كل شيء دونه والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه[1] كما أخبر بذلك عن نفسه نصًا بينًا محكمًا، الحفيظ على كل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، الذي وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما، حفظ أولياءه في الدنيا والآخرة ونجاهم من كل أمر خطير.

---

(١) إشارة إلى الآية رقم (٦٧) في سورة الزمر قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

المغيث: لجميع مخلوقاته فما استغاثه ملهوف إلا نجاه، الحسيب الوكيل الذي ما التجأ إليه مخلص إلا كفاه، ولا اعتصم به مؤمن إلا حفظه ووقاه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه فنعم المولى ونعم النصير، الجليل الذي جلَّ عن كل نقص واتصف بكل كمال وجلال، الجميل الذي له مطلق الجمال في الذات والصفات والأسماء والأفعال.

الكريم: الذي لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، كما روى عنه نبيه المصطفى المفضال[1]، ومن كرمه أن يقابل الإساءة بالإحسان والذنب وبالغفران ويقبل التوبة ويعفو عن التقصير.

الرقيب: على عباده بأعمالهم، العليم بأقوالهم، الكفيل بأرزاقهم وآجالهم وإنشائهم ومآلهم، المجيب لدعائهم وسؤالهم وإليه المصير.

الواسع: الذي وسع كل شيء علمًا، ووسع خلقه برزقه ونعمته وعفوه ورحمته كرمًا وحلمًا، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام:١٠٣).

الحكيم: في خلقه وتدبيره إحكامًا واتقانًا، والحكيم في شرعه وقدره عدلاً وإحسانًا، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ومن أكبر من الله شهادة وأوضح دليلاً وأقوم برهانًا، فهو العدل وحكمه عدل وشرعه عدل وقضاؤه عدل، فله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

الودود: الذي يحب أولياءه ويحبونه كما أخبر عن نفسه في محكم الآيات، المجيب لدعوة الداعي إذا دعاه في أي مكان وفي أي وقت من الأوقات، فلا يشغله سمع عن سمع ولا تختلف عليه المطالب ولا تشتبه عليه الأصوات، فيكشف الغم ويذهب الهم ويفرج الكرب ويستر العيب وهو الستير.

---

(١) أخرجه مسلم.

المجيد: الذي هو أهل الثناء كما مجد نفسه وهو المُمَجَّدُ على اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد، الباعث الذي بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه إنه هو الفعال لما يريد، الشهيد الذي هو أكبر كل شيء شهادة وكفى بالله شهيدًا ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة فصلت:٥٣)، هو الحق وقوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير.

القوي المتين: الذي لم يقم لقوته شيء وهو الشديد المحال، الولي للمؤمنين فلا غالب لمن تولاه وإذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال، الحميد الذي ثبت له جميع أنواع المحامد، وهل يثبت الحمد إلا لذي العزة والجلال، فله الحمد كما يقول وخيرًا مما نقول لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه وكيف يحصى العبد الضعيف ثناء على العلي الكبير.

المحصي: الذي أحصى كل شيء عددًا وهو القائل ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يس:١٢)، المبدئ المعيد الذي قال وهو أصدق القائلين: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء:١٠٤)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (سورة الروم:٢٧)، وأني يعجزه إعادته وقد خلقه من قبل ولم يك شيئًا، كلٌّ يعلم ذلك ويقر به بلا نكير.

المحيي المميت: الذي انفرد بالإحياء والإماتة فلو اجتمع الخلق على إماتة نفس هو محييها أو إحياء نفس هو مميتها لم يكن ذلك ممكنًا، وهل يقدر المخلوق الضعيف على دفع إرادة الخالق العلام، الحي الدائم الباقي الذي لا يموت وكل ما سواه زائل كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن:٢٦-٢٧).

القيوم: الذي قام بنفسه ولا قوام لخلقه إلا به ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (سورة الروم:٢٥)، فلا يحتاج إلى شيء، وكل شيء إليه فقير.

الواحد الأحد: الذي لا شريك له في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله، لا ضد له ولا شبيه ولا كفؤ ولا عديل.

الصَّمد: الذي يصمد إليه جميع الخلائق في حوائجهم ومسائلهم فهو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب، فإليه منتهى الطلبات، ومنه يسأل قضاء الحاجات، وهو الذي لا تعتريه الآفات، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، العظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في صفات الكمال، ولا تنبغي هذه الصفات لغير الملك الجليل.

القادر المقتدر: الذي إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه على كل شيء قدير، المقدم المؤخر بقدرته الشاملة ومشيئته النافذة على وفق ما قدره وسبق به علمه وتمت به كلمته بلا تبديل ولا تغيير، الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، هكذا فسره البشير النذير.

الوالي: فلا منازع له ولا مضاد، المتعالي عن الشركاء والوزراء والنظراء والأنداد البَرُّ وصفًا وفعلاً، ومن برده المن على أوليائه بإنجائهم من عذابه كما وعدهم على ألسنة رسله، إنه لا يخلف الميعاد، التواب الذي يرزق من يشاء التوبة فيتوب عليه وينجيه من عذاب السعير.

المنتقم: الذي لم يقم لغضبه شيء وهو شديد العقاب والبطش والانتقام، العفوُّ بمنه وكرمه عن الذنوب والآثام، الرءوف بالمؤمنين ومن رأفته بهم أن نزَّل على عبده آيات مبينات ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن رأفته بهم أن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة مع كون الجميع ملكه ولم ينزع عنهم التوبة قبل الحمام، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة التحريم: ٨).

مالك الملك: يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ذي الجلال والإكرام والعزة والبقاء، والملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء، المقسط الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وما للظالمين من نصير.

الجامع لشتات الأمور: وهو ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (سورة آل عمران: ٩)، الغني المغني فلا يحتاج إلى شيء، ولا تزيد في ملكه طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين من العباد، وكل خلقه مفتقرون إليه، لا غنى بهم عن بابه طرفة عين، وهو الكفيل بهم رعاية وكفاية وهو الكريم الجواد، وبجوده عم جميع الأنام من طائع وعاص وقوي وضعيف وشكور وكفور ومأمور وأمير.

نور السموات والأرض ومن فيهن: كما وصف نفسه بذلك في كتابه ووصفه به محمد عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه وقال ﷺ مستعيذًا به: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[(١)].

فبصفات ربنا تعالى نؤمن ولكتابه وسنة رسوله نحكم وبحكمهما نرضى ونسلم، وإن أبى الملحد إلا جحود ذلك وتأويله على ما يوافق هواه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة فصلت: ٤٠).

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ص٣٥) من رواية عبد الله بن جعفر. لو أردت المزيد راجع الأصل ص١١.

الهادي الـذي بيده الهداية والإضـلال فلا هادي لمن أضل ولا مـضل لمن هدى ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (سورة الكهف:١٧)، ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأنعام:٣٩)، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ (سورة البـقرة: ١٢٠)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (سورة الحج:٨).

البديع الذي أبدع السموات والأرض وما بينهـما بلطيف صنعه وبديع حكمته بلا معين ولا مثال، الباقي الذي كل شيء هالك إلا وجهـه فلا ابتداء لأوليته ولا لآخريته زوال، الوارث الذي يرث الأرض ومن عليـها وهو خير الـوارثين، وإليه المرجع والمآل فبإيجاده كل موجود وجد وإليه كل الأمور تصير.

الرشيد في كل أقواله وأفعاله فبالرشاد يأمر عباده وإليه يهديهم، الصبور الذي لا أحد أصبـر منه على أذى سمعه، ينسبـون له الولد ويجحدون أن يعيدهم ويحـييهم، وكل ذلك بسمعه وبصره وعلمه لا يخـفى عليه منهم شيء ثم هو يرزقهم ويعافيهم، ذلك بأنهم لم يبلغوا نفعه فينفعوه ولا ضـره فيضروه، وإنما يعود نفع طاعتهم إليهم، ووبال عصيانهم عليهم ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة التغابن:٦-٧).

أحمده تعالى على جزيل إنعامه وإفضاله، وأشكره على جليل إحسانه ونواله وله الحمد على أسمائه الحسنى وصفات كـماله ونعوت جلاله، وله الحمد على عدله قدرًا وشرعًا، وله الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق العلي الكبير، تعالى في إلهيـته وربوبيتـه عن الشريك والوزير، وتقدس في أحـديته وصمـديته عن الصاحـبة والولد والوالد والولي والنصـير، وتنزه في صـفات كمـاله ونعوت جلالـه عن الكفؤ والنظير، عزَّ في سلطان قهره وكمال قدرته عن المنازع والمغالب والمعين والمشير، وجل في بقائه وديموميته وغناه وقيوميته عن المطعم والمجير.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله البشير النذير، المرسل إلى الناس كافة بالملة الحنيفية والهدى المنير، بعثه الله عزَّ وجلَّ رحمة للعالمين، وأنزل عليه كتابه المهيمن والنور المبين والهدى المستبين، والمنهج المستنير، والشرك مضطرمة ناره، طائر شراره، مرتفع غباره، لا مغير له ولا نكير، فقام بتبليغ الرسالة حق القيام، وجاهد في الله حق جهاده إعلاءً لكلمة الله الملك العلام، حتى جاء الحق وزهق الباطل وأدبر ليل الكفر والضلالة وانفجر فجر الإيمان والإسلام، ونشرت أعلام التوحيد وعلا بنيانه وأشرقت أنواره، ونكست راية الشرك وانكسرت شوكته وخمدت ناره ورمى بناؤه بالدمدمة والتكسير والتدمير، ﷺ وعلى آله وصحبه شموس الهداية وأوعية العلم وأنصار الدين القويم، وتابعيهم ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الحشر: ١٠)، وعلى من اقتفى أثرهم واتبع سيرهم وسلك صراطهم المستقيم، وجعلنا من المقتدين بهم المهتدين بهديهم المتمسكين بالكتاب والسنة نقف معهما وبسيرهما نسير.

ثانيًا - الإيمان باليوم الآخر[١]

أشهر أسماء ذلك اليوم:

المرجع والمآب إلى الله والكل سيقف بين يديه سبحانه، في يوم لا مرد له من الله، ولا تخفى عليه خافية، أحصاه الله ونسوه، فالله على كل شيء شهيداً، وكأني بالدنيا قد ارتحلت مدبرة والآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، وكأن قد، فكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، فأطيلوا الفكر والتأمل في هذا اليوم العظيم.

(١) «اليوم الآخر» للدكتور/ عمر سليمان الأشقر.

١ - يوم القيامة: ورد هذا الاسم في سبعين آية من آيات الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (سورة النساء: ٨٧)، وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (سورة الإسراء: ٩٧)، وقوله: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (سورة الشورى: ٤٥).

والقيامة في اللغة مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين.

٢ - اليوم الآخر: كقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)، وقال: ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٢)، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (سورة التوبة: ١٨).

وأحيانًا يسميه بالآخرة أو الدار الآخرة، كقوله: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٣٠)، وقوله: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ (سورة النساء: ٧٤)، وقوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ (سورة القصص: ٨٣)، وقوله: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٤).

وسُمي ذلك اليوم باليوم الآخر، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

٣ - الساعة: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (سورة الحجر: ٨٥)، وقال: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ (سورة طه: ١٥)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة الحج: ١).

قال القرطبي: «والساعة كلمة يعبر عنها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود، وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءًا من يوم وليلة، اللذين هما

أصل الأزمنة. . . وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة عن الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب، وإما أن تكون سميت بها تنبيهًا على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة. . .»[(١)].

٤ - يوم البعث: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ... ﴾ (سورة الحج: ٥)، وقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ (سورة الروم: ٥٦).

قال ابن منظور: «البعث: الإحياء من الله تعالى للموتى. وبعث الموتى نشرهم ليوم البعث»[(٢)].

٥ - يوم الخروج: قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ (سورة ق: ٤٢)، وقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (سورة المعارج: ٤٣)، وقال: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (سورة الروم: ٢٥).

سمي بذلك لأن العباد يخرجون فيه من قبورهم عندما ينفخ في الصور.

٦ - القارعة: قال تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (سورة القارعة: ١-٣)، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ (سورة الحاقة: ٤).

قال القرطبي: «سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها، يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر، أي أهواله وشدائده، قالت الخنساء:

تعرفني الدهر نهشا وحزا ... وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها»[(٣)].

---

(١) التذكرة للقرطبي (٢١٦).
(٢) لسان العرب: مادة (ب ع ث) (١/ ٢٣٠).
(٣) التذكرة للقرطبي (٢٠٩).

٧ـ يوم الفصل: قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة الصافات:٢١)، وقال: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ (سورة المرسلات:٣٨)، وقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (سورة النبأ:١٧).

سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة السجدة:٢٥).

٨ـ يوم الدين: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (سورة الإنفطار:١٤-١٩)، وقال: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (سورة الصافات: ٢٠).

والدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، قال الشاعر:

حصادك يومًا ما زرعت وإنما ... يدان الفتى يومًا كما هو دائن

سمي بذلك لأن الله يجزي العباد ويحاسبهم في ذلك اليوم.

٩ـ الصاخة: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (سورة عبس:٣٣).

قال القرطبي: «قال عكرمة: الصاخَّة النفخة الأولى» والطامَّة النفخة الثانية. قال الطبري: أحسبه من صخَّ فلان فلانًا إذا أصمَّه، قال ابن العربي: الصاخَّة التي تورث الصمم، وإنها المسمعة، وهذا من بديع الفصاحة حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان:

أصمَّ بك الناعي وإن كنت أسمعا

وقال آخر:

أصمَّني سيرهم أيام فرقتهم ... فهل سمعتم بسير يورث الصمما

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة، تصم عن الدنيا، وتسمع أمور الآخرة»[١].

وقال ابن كثير: «قال البغوي: الصاخَّة يعني صيحة يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها»[٢].

١٠ . الطامة الكبرى: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴾ (سورة النازعات: ٣٤).

سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (سورة القمر: ٤٦).

قال القرطبي: «الطامَّة الغالبة. من قولك طمَّ الشيء إذا علا وغلب، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء. قال الحسن: الطامَّة: النفخة الثانية، وقيل: حين يسار أهل النار إلى النار»[٣].

١١ . يوم الحسرة: قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة مريم: ٣٩).

سمي بذلك لشدة تحسر العباد في ذلك اليوم وتندمهم. أما الكفار فلعدم إيمانهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ (سورة الأنعام: ٣١)، واستمع إلى تحسر الكفار عندما يحل بهم العذاب: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة الزمر: ٥٦-٥٨).

وتبلغ الحسرة ذروتها بأهل الكفر عندما يتبرأ السادة والأتباع من متبوعيهم؛ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة البقرة: ١٦٨).

ويتحسر المؤمنين في ذلك اليوم بسبب عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

---

(١) تذكرة القرطبي (٢٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٧).

(٣) تذكرة القرطبي (٢٢٧).

١٢ ـ الغاشية: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (سورة الغاشية: ١)، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمُّهم. ومن معانيها أن الكفار تغشاهم النار وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ٥٥)، وقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ (سورة الأعراف: ٤١).

١٣ ـ يوم الخلود: قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (سورة ق: ٣٤).

سمي ذلك اليوم بيوم الخلود لأن الناس يصيرون إلى دار الخلود، فالكفار مخلدون في النار، والمؤمنون مخلدون في الجنان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٩)، وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٧).

١٤ ـ يوم الحساب: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (سورة ص: ٢٦)، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (سورة غافر: ٢٧).

سمي ذلك اليوم بيوم الحساب، لأن الله يحاسب فيه عباده. قال القرطبي: «معنى الحساب أن الله يعدِّد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدِّد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض، فما يشفُّ منها على الآخر حكم للمشفوف بحكمه الذي عينه للخير بالخير، وللشرِّ بالشرِّ»، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان**».

١٥ ـ الواقعة: قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (سورة الواقعة: ١)، قال ابن كثير: «سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها»[١]، وأصل وقع في لغة العرب كان ووجد.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٧).

١٦ ـ يوم الوعيد: قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ (سورة ق: ٢٠)، لأنه اليوم الذي أوعد به عباده، وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة.

١٧ ـ يوم الآزفة: قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ (سورة غافر:١٨)، وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (سورة النجم:٥٧-٥٨)، والساعة قريبة جدًا، وكل آت فهو قريب وإن بعد مداه، والساعة بعد ظهور علاماتها أكثر قربًا.

١٨ ـ يوم الجمع: قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (سورة الشورى:٧)، سميت بذلك؛ لأن الله يجمع فيه الناس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ (سورة هود:١٠٣).

١٩ ـ الحاقة: قال تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (سورة الحاقة:١-٢)، سميت بذلك ـ كما يقول ابن كثير ـ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد[١].

قال البخاري في صحيحه: «هي الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور. الحقة والحاقة واحد». وقال ابن حجر في شرحه لكلام البخاري: «هذا أخذه من كلام الفراء، قال في معاني القرآن: الحاقة: القيامة. سميت بذلك لأن فيها الثواب وحواق الأمور، ثم قال: الحقة والحاقة كلاهما بمعنى واحد. قال الطبري: سميت الحاقة لأن تحق فيها. وهي كقولهم: ليلُ قائم، وقال غيره: سميت الحاقة لأنها أحقت لقوم الجنة ولقوم النار. وقيل لأنها تحاقق الكفار الذين خالفوا الأنبياء، يقال: حاققته فحققته: أي خاصمته فخصمته، وقيل: لأنها حق لاشك فيه»[٢].

٢٠ ـ يوم التَّلاق: قال تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ (سورة غافر:١٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٩٩).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٩٥).

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد، وقال قتادة والسدى وبلال بن سعد وسفيان بن عيينه: يلتقي فيه أهل الأرض والسماء، والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي فيه الظالم والمظلوم، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون»[١].

٢١ ـ يوم التَّناد: قال تعالى حاكيًا نصيحة مؤمن آل فرعون قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (سورة غافر: ٣٢)، سمي بذلك لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فكل إنسان يدعى باسمه للحساب والجزاء، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وأصحاب النار ينادون أصحاب الجنة، وأهل الأعراف ينادون هؤلاء وهؤلاء.

٢٢ ـ يوم التغابن: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (سورة التغابن: ٩).

سمي بذلك لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار، إذ يدخل هؤلاء الجنة، فيأخذون ما أعد الله لهم، ويرثون نصيب الكفار من الجنة.

هذه هي أشهر أسماء يوم القيامة، وقد أورد بعض العلماء أسماءً أخرى غير ما ذكرناه، وهذه الأسماء أخذوها بطريق الاشتقاق بما ورد منصوصًا، فقد سموه بيوم الصدر أخذًا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ (سورة الزلزلة: ٦)، ويوم الجدال أخذًا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (سورة النحل: ١١١).

وسموه بأسماء الأوصاف التي وصف الله بها ذلك اليوم، فقالوا من أسمائه: يوم عسير، ويوم عظيم، ويوم مشهود، ويوم عبوس قمطرير، ويوم عقيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٣٠).

ومن الأسماء التي ذكروها غير ما تقدم: يوم المآب، يوم العرض، يوم الخافضة الرافعة، يوم القصاص، يوم الجزاء، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الراجفة، يوم الناقور، يوم التفرق، يوم الصدع، يوم البعثرة، يوم الندامة، يوم الفرار.

ومنها أيضًا: يوم تبلى السرائر، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، يوم لا ينطقون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا يكتمون الله حديثًا، يوم لا مردَّ له من الله، يوم لا بيع فيه ولا خلال، يوم لا ريب فيه.

وقد يضيف إليها بعض أهل العلم أسماء أخرى، وقد يسمى الاسم بما يقاربه ويماثله، قال القرطبي: «ولا يمتنع أن تسمى بأسماء غير ما ذكر بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام، والخزي، والهوان، والذل، والافتقار، والصغار، والانكسار، ويوم الميقات، والمرصاد، إلى غير ذلك من الأسماء»[(١)].

السرُّ في كثرة أسمائه

يقول القرطبي: وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائه اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة[(٢)].

(١) التذكرة (٢٣٣).
(٢) التذكرة (٢١٤).

المحاسبي يصور أهوال يوم القيامة

يقول الحارث المحاسبي ـ رحمه الله ـ واصفًا ما يقع في ذلك اليوم من أهوال: «حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حسٌّ يسمع، ولا شخص يُرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزليًا واحدًا مفردًا بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عزَّ وجلَّ بالذل والصغار منك ومنهم. فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنه صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك، فوثبت مغبرًا من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك، شاخص ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبَّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتي إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نزع المُلْك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدرًا بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عزَّ وجلَّ في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلٍّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور.

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه، فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامِّها، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها. فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هَوْلَ صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٣٧)، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⁽٨⁾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (سورة المعارج: ٨-٩).

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عزَّ وجلَّ. فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم، فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا.

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظلَّ عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضًا وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عزَّ وجلَّ بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل **(وقال مرة: إن الكافر)** ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام».

وعن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ: «إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم»، (وقال علي: من طول القيام. قالا جميعًا) حتى يقول: رب أرحني ولو

إلى النار، وأنت لا محـالة أحدهم، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد عـلاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضـاقت نفـسك في صـدرك من شدة العـرق والفـزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السـعادة أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم.

عن قتادة أو كـعب، قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال: «يقومـون مقدار ثلاثمائة عـام، قال سـمعت الحسن يقـول: ما ظنك بأقـوام قامـوا لله عزَّ وجلَّ على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيـها أكلة ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحـترقت أجوافهم من الجـوع انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قـد آن حرها، واشتد نفحها، فلما بلغ المجـهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضًا في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم ومـوقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفـهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، ومـوسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقـول لهم: إن ربي قد غضب اليـوم غضبًا لم يغـضب قبله مثله ولا يغـضب بعده مثله، فكلهم يذكـر شدة غضب ربه عزَّ وجلَّ وينادي بالشغل بنفـسه فيقول: نفسي نفسي، فيـشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها، وكذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (سورة النحل: ١١١).

فتوهـم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمـعهم، منفرد كل واحد منهم بنـفسه، ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي، فيا هول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ وعظم قـدر منازلهـم عند الله عـزَّ وجلَّ، كل ينادي: نفـسي نفـسي، شفـقًا من شـدة غضب ربه، فـأين أنت منهم في إشـفاقك في ذلك اليـوم واشتغالك بذلك اليوم، وبحزنك وبخوفـك؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا

النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عزَّ وجلَّ واستأذن عليه فأذن له ثم خرَّ لربه ساجداً، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عزَّ وجلَّ إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1].

مثل لنفسك أيها المغرور ❊ يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت ❊ حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ❊ وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ❊ ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ❊ فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت ❊ خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة احشرت ❊ وتقول للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت ❊ من حور عين زانهن شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها ❊ وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه ❊ طي السجلِّ كتابه المنشور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت ❊ وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها ❊ ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ❊ فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت ❊ لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق ❊ يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جنينه ❊ كيف المصر على الذنوب دهور[2]

(١) كتاب «التوهم والأهوال» (ص: ٥).
(٢) التذكرة للقرطبي.

كلمة جامعة في القضاء

الغرض من القضاء هو إقامة الحق والعدل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (سورة الحديد: ٢٥).

والقضاء يكون في جميع الحقوق سواء أكانت حقوقًا لله أم حقوقًا للآدميين، وهو فرض على الكفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم، ولا يمكن أن يتحقق القسط وتحفظ الحقوق وتصان الدماء والأعراض والأموال إلا بإقامة النظام القضائي الإسلامي. وقد أمر النبي ﷺ أن يحكم بين الناس بما أنزل الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٠٥-١٠٦)، والتخوف من العجز عن القيام بالقضاء على الوجه الأكمل هو السبب في امتناع بعض الأئمة عن الدخول في القضاء، فلا يقضي بين الناس إلا من كان عالمًا بالكتاب والسنة فقيهًا في دين الله قادرًا على التفرقة بين الصواب والخطأ بريئًا من الجور بعيدًا عن الهوى، وقد اشترط بعض العلماء في القاضي أن يبلغ درجة الاجتهاد، وأن يكون عالمًا باللغة والقياس، وما أجمع عليه العلماء وما اختلفوا فيه، قال في الفتح: وقد اتفقوا على اشتراط الذكورة في القاضي إلا عند الحنفية، واستثنوا الحدود، وأطلق ابن جرير، ويؤيد ما قاله الجمهور أن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي، ورأي المرأة ناقص ولاسيما في محافل الرجال.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأهم» (رواه البخاري وأحمد).

فإذا ارتضى المتداعيان حكمًا يقضي بينهما، من ليس له ولاية القضاء، جاز ذلك على قول مالك وأحمد ولا يجوز للحاكم نقضه، وعن أبي بريدة عن أبيه عن النبي

ﷺ قال: «القضاء ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار. فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار» (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه). ولا بأس أن يكون القاضي متمذهبًا، ولكن متى عرف الحق بخلاف المذهب، قضى به. أما من ليس بأهل للقضاء والحكم فلا يحل له الحكم، فإن حكم فهو آثم، حتى وإن وافق الحق لجرأته، أما من حصَّل أدوات النظر وأخطأ في حكمه فهو مأجور على اجتهاده، فعن عمرو بن العاص أن الرسول ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» (رواه البخاري ومسلم).

والواجب على القاضي أن يسوي بين الخصمين في الدخول عليه والجلوس بين يديه والإقبال عليهما والاستماع لهما والحكم عليهما، وليس للقاضي أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر، ولا يجيب هو إلى ضيافة أحدهما ولا إلى ضيافتهما مادامًا متخاصمين، ولا يقبل الهدية من أحد إلا إذا كانت ممن جرت عادته بأن يهديه قبل تولي منصب القضاء، فإن الهدية إلى القاضي ممن لم تجر عادته بإهدائه تعتبر من الرشوة، وفي الحديث: «لعنة الله على الراشي والمرتشي في الحكم» (رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وصححه). فأما إذا أعطى ليتوصل به إلى الحق أو يدفع عن نفسه ظلمًا ولا يتوصل لذلك إلا بالدفع جاز، وهو غير داخل في هذا الوعيد، والآخذ إنما يأكل سحتًا، ومعنى الرشوة لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بينكم بالباطل، وللقاضي أن يشفع الشفاعة الحسنة فيطلب من الخصوم أن يصطلحوا أو يتنازل أحدهم عن بعض حقه، ولا يشترط وجود المُدعى عليه، ويجوز للحاكم أن يحكم عليه متى ثبتت الدعوى لحديث هند بنت عتبة لما اشتكت شح أبي سفيان.

فإذا تحاكم الذميون إلى قضاة المسلمين جاز ذلك ويُقضى بينهم بما أنزل الله، وحكم المجتهد لا ينقض حكم مجتهد آخر.

رسالة عمر بن الخطاب ﷺ في القضاء:

هذه رسالة أرسلها عمر إلى قاضيه أبي موسى الأشعري ﷺ وقد تضمنت أمورًا هامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس.

سلام عليك. أما بعد. . .

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس (أي سوِّ بينهم) في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك (أي ميلك معه) ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا، أو حرم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج (تردد) في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشياء والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى قربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة الزور أو ظنينًا (متهمًا) في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ (دفع) بالبينات والأيمان، وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعظِمُ الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلَّق للناس (أظهر لهم في خلقه خلاف نيته) بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله عزَّ وجلَّ في عاجل رزقه، وخزائن رحمته. والسلام.

روايات ومسائل فقهية تتعلق بالخصومات

١ - باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشترى رجل من رجل عقاراً له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب، فقال الذي شرى الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها. قال فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟. فقال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسكما منه وتصدقا» (رواه مسلم).

فالصلح هنا فيه سعة للجميع ولا مخالفة فيه لشرع الله، بل هو مستحب، وشرع من قبلنا شرع لنا، طالما لم يصطدم بكتاب ولا بسنة.

قال أبو وائل لما قدم سهل بن حنيف من صفين[1] أتيناه نستخبره فقال: اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت والله ورسوله أعلم وما وضعنا أسيافنا على عواتقنا لأمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه قبل هذا الأمر ما نسد منها خصمًا (أي جانبًا وناحية) إلا انفجر علينا خصم ما ندري كيف نأتي له (رواه البخاري).

٢ - باب موعظة الإمام للخصوم:

(قضاء القاضي وفتوى المفتي وحكم الحاكم لا تجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حرامًا).

فعن أم سلمة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» (رواه البخاري).

---

(١) صفين: الواقعة التي دارت بين علي ومعاوية ﷺ.

٣ ـ باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم:

قال شريح القاضي وسأله إنسان الشهادة فقال: أنت الأمير حتى أشهد لك، وقال عكرمة قال عمر لعبد الرحمن بن عوف لو رأيت رجلاً على حد زنا أو سرقة وأنت أمير، فقال: شهادتك شهادة رجل من المسلمين، قال: صدقت، قال عمر: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي. وأقر ماعز عند النبي ﷺ بالزنا أربعًا فأمر برجمه ولم يذكر أن النبي ﷺ أشهد من حضره. وقال: حماد إذا أقر مرة عند الحاكم رجم وقال الحكم أربعًا.

وعن أبي محمد مولى أبي قتادة أن أبا قتادة قال: قال رسول الله ﷺ يوم حنين: «من له بيِّنة على قتيل قتله فله سلبه»، فقمت لألتمس بيِّنة على قتيل فلم أر أحدًا يشهد لي فجلست ثم بدا لي فذكرت أمره إلى رسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، قال: «فأرضه منه»، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه أصيبغ من قريش ويدع أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله. قال: فأمر رسول الله فأداه إلـي فاشتريت منه خرافًا فكان أول مال تأثلته قال لي عبد الله عن الليث: فقام النبي ﷺ فأداه إليَّ. وقال أهل الحجاز: الحاكم لا يقضي بعلمه شهد بذلك في ولايته أو قبلها ولو أقر خصم عنده لآخر بحق في مجلس القضاء فإنه لا يقضي عليه في قول بعضهم حتى يدعو بشاهدين فيحضرهما إقراره وقال بعض أهل العراق: ما سمع أو رآه في مجلس القضاء قضى به وما كان في غيره لم يقض إلا بشاهدين، وقال آخرون منهم: بل يقضي به لأنه مؤتمن وإنما يراد من الشهادة معرفة الحق فعلمه أكثر من الشهادة، وقال بعضهم: يقضي بعلمه في الأموال ولا يقضي في غيرها، وقال القاسم: لا ينبغي للحاكم أن يقضي قضاء بعلمه دون علم غيره مع أن علمه أكثر من شهادة غيره ولكن فيه تعرضًا لتهمة نفسه عند المسلمين وإيقاعًا لهم في الظنون وقد كره النبي ﷺ الظن فقال: «إنما هذه صفية».

٤ ـ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني ﷺ قالا: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه فقال: صدق اقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم، ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم فقالوا: إنما على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فقال النبي ﷺ: «لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس ـ لرجل ـ فاغد على امرأة هذا فارجمها» فغدا عليها أنيس فرجمها (رواه البخاري).

- فالفتوى والصلح كان مناقضًا ومخالفًا لشرع الله ولذلك أبطله رسول الله ﷺ وكذلك لا يجوز أن يصبح العوض المادي بديلاً عن الحد الشرعي.

٥ ـ باب الاعتراف بالزنا:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد قالا: كنا عند النبي ﷺ فقام رجل فقال: أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله، فقام خصمه، وكان أفقه منه، فقال: اقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، قال: «قل»، قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم، ثم سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وعلى امرأته الرجم، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جلَّ ذكره المائة شاة والخادم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها. (رواه البخاري).

- والشاهد من الحديث هو اعتراف المرأة بالزنى.

٦ ـ باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد غائبًا عنه:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس فقال: يا رسول الله اقض بكتاب الله فقام خصمه فقال: صدق اقض له يا رسول الله بكتاب الله، إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم فافتديت بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم فزعموا أن ما على ابني جلد مائة وتغريب عام، فقال: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس فاغد على امرأة هذا فارجمها» فغدا أنيس فرجمها (رواه البخاري).

■ والشاهد من الحديث هو أمر النبي ﷺ لأنيس برجم المرأة إن هي اعترفت فلا يشترط في ذلك حضور إمام المسلمين ويصح للرجل أن يضرب الحد بأمر الحاكم أو من ينوب عنه، وقد فعله عمر رضي الله عنه.

٧ ـ باب كلام الخصوم بعضهم في بعض:

عن شقيق عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»، قال: فقال الأشعث: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة»، قلت: لا، قال، فقال لليهودي: «احلف»، قال، قلت: يا رسول الله إذاً يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (سورة آل عمران: ٧٧). (رواه البخاري).

■ فالبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. ولما تخوف الأشعث من ضياع حقه لجرأة اليهودي على اليمين الفاجرة، نزلت الآية تذكر بخطورة ذلك، كما حذر النبي ﷺ من اقتطاع الحقوق بالأيمان الكاذبة، وقد بوب البخاري ـ رحمه الله ـ بهذا التبويب لقول الأشعث: «إذًا يحلف ويذهب بمالي».

والنصوص يصدق بعضها بعضًا وفي بعضها (كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر) وفي بعضها (شاهداك أو يمينه).

٨ ـ باب إخراج الخصوم:

وأهل الريب من البيوت بعد المعرفة وقد أخرج عمر أخت أبي بكر حين ناحت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب يحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء» (رواه البخاري).

كانت بين أبي سلمة وبين أناس خصومة فذكر لعائشة رضي الله عنها فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن النبي ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» (رواه البخاري).

٩ ـ باب هل يجوز للحاكم أن يبعث رجلاً وحده للنظر في الأمور:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني قالا: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله فقام خصمه فقال: صدق فاقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم فقالوا: إنما على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فقال النبي ﷺ: «لأقضين بينكما بكتاب الله أما الوليدة والغنم فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس - **لرجل** - فاغد على امرأة هذا فارجمها» فغدا عليها أنيس فرجمها (رواه البخاري).

أقر العسيف على نفسه بالزنى، وعلى الرغم من ذلك كان لابد من إقرار واعتراف المرأة التي ادعى عليها، وإلا لم يجز إقامة الحد عليها، وأنيس رضي الله عنه كان

بمثابة النائب عن الحاكم وفي هذا دليل على جواز بعث الرجل وحده للنظر في مثل هذه الأمور.

١٠ ـ باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾:

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

١١ ـ باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه:

عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أمها أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها» (رواه البخاري).

مثل هذا المبطل في خصومته عليه أن يعلم أنه باقتطاعه لحقوق الآخرين يُعرض نفسه لسخط الله ويقتطع لنفسه من النار حتى وإن قضى له القاضي فالجزاء من جنس العمل، والقاضي بشر يحكم على نحو ما يسمع وقد يخطىء في حكمه فعلى المبطل أن يعلم أنه سيقف بين يدي من لا تخفى عليه خافية.

١٢ ـ باب الشروط التي لا تحل في الحدود:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله فقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل»، قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنى بامرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني: أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها»، قال: فغدا فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت. (رواه البخاري).

طلب المتخاصمان الحكم بكتاب الله ومن المعلوم أن كل شرط ليس في كتاب الله فليس بشرط ولو كان بمائة شرط، ولذلك رد النبي ﷺ الوليدة والغنم وأمر بجلد ابنه مائة وتغريبه عامًا وقال: «واغد يا أنيس...» الحديث.

١٣ ـ *باب القضاء في كثير المال وقليله، وقال ابن عيينة عن ابن شبرمة: القضاء في قليل المال وكثيره سواء:*

عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته عن أمها أم سلمة قال: سمع النبي ﷺ جلبة خصام عند بابه فخرج عليهم فقال: «إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضاً أن يكون أبلغ من بعض أقضي له بذلك وأحسب أنه صادق، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها» (رواه البخاري).

الحقوق تشمل القليل والكثير، وليس لأحد أن يقتطع شيئًا بالباطل ولو كان عودًا من أراك أو شبرًا من الأرض وإلا تعرض لهذا الوعيد الشديد.

١٤ ـ *باب إثم من باع حرًا:*

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره» (رواه البخاري).

فالرقيق هو الذي يُباع ويُشترى وفي الحديث أيضًا: «ثم من منع أجر الأجير، وإثم الغادر». (رواه البخاري).

١٥ ـ باب ما جاء في الرجم على الثيب:

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سمعه من أبي هريرة وزيد بن خالد وشبل أنهم كانوا عند النبي ﷺ فأتاه رجلان يختصمان فقام إليه أحدهما، وقال: أنشدك الله يا رسول الله لما قضيت بيننا بكتاب الله، فقال: خصمه وكان أفقه منه: أجل يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي فأتكلم إن ابني كان عسيفًا على هذا فزنا بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم ففديت منه بمائة شاة وخادم، ثم لقيت ناسًا من أهل العلم فزعموا أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وإنما الرجم على امرأة هذا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، المائة شاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها. (رواه البخاري).

حكم البكر يفترق عن حكم الثيب (وهو الذي سبق له الزواج أو كان متزوجًا) في إقامة حد الزنى، وهذا الحديث نص في ذلك، فالمرأة كانت زوجة لصاحب الأرض، والعسيف كان أجيرًا عند زوجها ولذلك رجمت بينما جُلد هو لكونه كان بكرًا (لم يسبق له الزواج).

١٦ ـ باب ما جاء في القاضي لا يقضي بين الخصمين حتى يسمع كلاهما:

عن علي قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا تقاضى إليك رجلان فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر؛ فسوف تدري كيف تقضي»، قال علي: فمازلت قاضيًا بعد. (قال أبو عيسى الترمذي هذا حديث حسن).

فإذا كان الأول قد فقئت عينه، فلعل الثاني فقئت عيناه، ثم العدل أساس المُلك وبه قامت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة المائدة:٨). وفي سنن أبي داود: قال علي رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم

لي بالقضاء، فقال: «إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء»، قال: فمازلت قاضيًا أو ما شككت في قضاء بعد (رواه أبو داود). فالخصمان يجلسان بين يدي القاضي.

١٨ - باب إشارة الحاكم على الخصم بالصلح:

عن كعب بن مالك أنه كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي - يعني دينًا - فلقيه فلزمه فتكلما حتى ارتفعت الأصوات، فمر بهما رسول الله ﷺ فقال: «يا كعب»، فأشار بيده كأنه يقول النصف فأخذ نصفًا مما عليه وترك نصفًا.

١٩ - باب إشارة الحاكم على الخصم بالعفو:

يستحب للقاضي أن يصلح بين المتخاصمين، ويرغبهم في العفو والتسامح ما لم يتضح الحكم الشرعي فيحكم به.

عن وائل قال: شهدت رسول الله ﷺ حين جاء بالقاتل يقوده ولي المقتول في نسعة، فقال رسول الله ﷺ لولي المقتول: «أتعفو؟»، قال: لا، قال: «فتأخذ الدية؟»، قال: لا، قال: «فتقتله؟»، قال: نعم، قال: «اذهب به»، فلما ذهب فولى من عنده دعاه، فقال: «أتعفو؟»، قال: لا، قال: «فتأخذ الدية؟»، قال: لا، قال: «فتقتله؟»، قال: نعم، قال: «اذهب به»، فلما ذهب فولى من عنده دعاه فقال: «أتعفو؟»، قال: لا، قال: «فتأخذ الدية؟»، قال: لا، قال: «فتقتله؟»، قال: نعم، قال: «اذهب به»، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «أما إنك إن عفوت عنه يبوء بإثمه وإثم صاحبك»، فعفا عنه وتركه فأنا رأيته يجر نسعته.

٢٠ - باب إشارة الحاكم بالرفق:

عن عبد الله بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير إلى رسول الله ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه

فاختصموا عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري فقال: يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «يا زبير اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر»، فقال الزبير: إني أحسب أن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ...﴾ (سورة النساء: ٦٥).

٢١ - باب شفاعة الحاكم للخصوم قبل فصل الحكم:

عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبداً يقال له: مغيث كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ للعباس: «يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ون بغض بريرة مغيثاً»، فقال لها النبي ﷺ: «لو راجعتيه فإنه أبو ولدك»، قالت: يا رسول الله أتأمرني؟، قال: «إنما أنا شفيع»، قالت: فلا حاجة لي فيه.

٢٢ - باب النهي عن أن يقضي في قضاء بقضاءين:

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة وكان عاملاً على سجستان قال: كتب إليَّ أبو بكرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقضين أحد في قضاء بقضاءين ولا يقضي أحد بين خصمين وهو غضبان» (رواه النسائي).

ينبغي أن يكون القاضي حليمًا ذا أناة عفيفًا نزيهًا آمنًا مخلصًا بصيراً بأحكام القضاة ولا يقضي وهو غضبان أو حاقن أو في شدة جوع أو عطش أو نعاس.

وروى مالك في (الموطأ) عن عمر رضي الله عنه قال: لا تجوز شهادة خصم ولا ظنين (أي متهم).

٢٣ - التذكير في الخصومة:

عن وائل بن حجر قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأتاه رجلان يختصمان في أرض فقال أحدهما: إن هذا انتزى عليَّ أرضي يا رسول الله في الجاهلية وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي وخصمه ربيعة بن عبدان قال: بينتك، قال: ليس لي بينة،

قال: «يمينه»، قال: إذن يذهب بها، قال: ليس لك إلا ذاك، قال: فلما قام ليحلف قال رسول الله ﷺ: «من اقتطع أرضاً ظالماً لقي الله وهو عليه غضبان».

خصم النبي ﷺ اليهودي:

عن زيد بن أرقم قال: أتى النبي ﷺ رجل من اليهود، فقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقر لي بهذه خصمته، قال: فقال رسول الله ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع»، قال: فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة قال: فقال رسول الله ﷺ: «حاجة أحدهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك فإذا البطن قد ضمر».

٢٤ ـ *التألي على الله في الخصومة:*

عن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن أن أمه عمرة بنت عبد الرحمن قالت: سمعت عائشة تقول: سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب عالية أصواتهما وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول: والله لا أفعل فخرج رسول الله ﷺ عليهما فقال: «أين المتألي على الله لا يفعل المعروف»، قال: أنا يا رسول الله فله أي ذلك أحب (رواه البخاري ومسلم).

٢٥ ـ *باب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها:*

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كان الناس في عهد رسول الله ﷺ يتبايعون الثمار فإذا جد الناس وحضر تقاضيهم قال المبتاع: إنه أصاب الثمر الدمان أصابه مراض أصابه قشام عاهات يحتجون بها فقال رسول الله ﷺ لما كثرت عنده الخصومة في ذلك: «فإما لا فلا تتبايعوا حتى يبدو صلاح الثمر»، كالمشورة يشير بها لكثرة خصومتهم. وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثريا فيتبين الأصفر من الأحمر. (رواه البخاري).

٢٦ - باب الخصومة في البئر والقضاء فيها:

عن شقيق عن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء هو عليها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (سورة آل عمران:٧٧). الآية. فجاء الأشعث فقال ما حدثكم أبو عبد الرحمن في أنزلت هذه الآية كانت لي بئر في أرض ابن عم لي فقال لي: شهودك، قلت: ما لي شهود، قال: فيمينه، قلت: يا رسول الله إذاً يحلف فذكر النبي ﷺ هذا الحديث فأنزل الله ذلك تصديقًا له. (رواه البخاري).

خصم آدم وموسى:

عن أبي هريرة قال: «**اختصم آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم فخصم آدم موسى، فقال موسى: أنت آدم الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة أليس تجد فيها أن قد قدره الله علي قبل أن يخلقني؟ قال: بلى**». قال عمرو بن سعيد وابن عبد الرحمن الحميري: فحج آدم وموسى. قال محمد: يكفيني أول الحديث: «فخصم آدم موسى عليهما السلام». (رواه أحمد).

٢٧ - باب ما يذكر في الإشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي:

قال عبد الله: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من النبي ﷺ خلافها فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ﷺ فقال: «كلاكما محسن»، قال شعبة: أظنه قال: «لا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» (رواه البخاري).

كان كلاهما قد سمع القراءة من رسول الله ﷺ وقد تقرأ الآية بأكثر من قراءة فطالما صحت وثبتت عن رسول الله ﷺ فلا إنكار وهذا من جملة التوسعة على الأمة، وهو من جملة خلاف التنوع لا التضاد.

تكرر علينا الخصومة:

عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾، قال الزبير: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا قال: «نعم»، فقال: إن الأمر إذًا لشديد. (قال أبو عيسى الترمذي هذا حديث حسن صحيح).

تذكر ذلك فإنه رادع لك عن الظلم ومُعين لك على رد الحقوق لأصحابها واعلم أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو الفقه الأكبر.

٢٨ - باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها:

عن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»، عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ بمعناه قال: «ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله عزَّ وجلَّ» (رواه أبو داود).

٢٩ - الخصومة في شركة المفاوضة:

باب شركة مفاوضة بين أربعة على مذهب من يجيزها قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ هذا ما اشترك عليه فلان وفلان وفلان وفلان بينهم شركة مفاوضة في رأس المال جمعوه بينهم من صنف واحد ونقد واحد وصار في أيديهم ممتزجًا لا يعرف بعضه من بعض ومال كل واحد منهم في ذلك وحقه سواء على أن يعملوا في ذلك كله وفي كل قليل وكثير سواء من المبايعات والمتاجرات نقدًا ونسيئة بيعًا وشراء في جميع المعاملات وفي كل ما يتعاطاه الناس بينهم مجتمعين بما

رأوا ويعمل كل واحد منهم على انفراده بكل ما رأى وكل ما بدا له جائز أمره في ذلك على كل واحد من أصحابه وعلى أنه كل ما لزم كل واحد منهم على هذه الشركة الموصوفة في هذا الكتاب من حق ومن دين فهو لازم لكل واحد منهم من أصحابه المسمين معه في هذا الكتاب، وعلى أن جميع ما رزقهم الله في هذه الشركة المسماة فيه وما رزق الله كل واحد منهم فيها على حدته من فضل وربح فهو بينهم جميعًا بالسوية وما كان فيها من نقيصة فهو عليهم جميعًا بالسوية بينهم وقد جعل كل واحد من فلان وفلان وفلان كل واحد من أصحابه المسمين في هذا الكتاب معه وكيله في المطالبة بكل حق هو له والمخاصمة فيه وقبضه وفي خصومة كل من اعترضه بخصومة وكل ما يطالبه بحق وجعله وصيه في شركته من بعد وفاته وفي قضاء ديونه وإنقاذ وصاياه وقبل كل واحد منهم من كل واحد من أصحابه ما جعل إليه من ذلك كله أقر فلان وفلان وفلان وفلان. (سنن النسائي).

٣٠ـ الخصومات في المسجد:

عن أبي سعيد عن مكحول عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراركم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع». (رواه ابن ماجه وفيه ضعف)، فقد كانوا يذهبون بصبيانهم إلى المساجد كما في حديث الربيع بنت معوذ وكان النبي ﷺ يخفف من صلاته إذا سمع بكاء صبي، وكان فصل القضاء يتم في المسجد وبعث السرايا وكانت الحبشة تلعب بالحراب في المسجد وقد اتفق العلماء على حرمة التشويش على المصلي ولو بتلاوة القرآن واستثنى العلماء دروس العلم.

٣١ـ الخصومة في ميراث النبي ﷺ:

عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: أرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبينا أنا كذلك إذ جاءه مولاه يرفأ فقال: هذا عثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام،

قال: ولا أدري أذكر طلحة أم لا يستأذنون عليك، قال: ائذن لهم ثم مكث ساعة ثم جاء فقال: هذا العباس وعلي رضي الله عنهما يستأذنان عليك، قال: ائذن لهما فلما دخل العباس قال: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا ـ وهما حينئذ يختصمان فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير ـ، فقال القوم: اقض بينهما يا أمير المؤمنين وأرح كل واحد من صاحبه فقد طالت خصومتهما، فقال عمر رضي الله عنه: أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السموات والأرض أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، قالوا: قد قال ذلك، وقال لهما مثل ذلك، فقالا: نعم قال: فإني سأخبركم عن هذا الفيء أن الله عزَّ وجلَّ خص نبيه صلى الله عليه وسلم منه بشيء لم يعطه غيره فقال: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم لقد قسمها بينكم وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال فكان ينفق على أهله منه سنة ثم يجعل ما بقي منه مجعل مال الله، فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا ولِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده أعمل فيها بما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها. (رواه أحمد).

٣٢ ـ النبي صلى الله عليه وسلم يصلح خصومة بني عمرو بن عوف:

عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عمرو بن عوف في لحاء أي خصام كان بينهم ليصلح بينهم فحانت الصلاة فقال بلال لأبي بكر: أقيم وتصلي بالناس، فقال أبو بكر: نعم فأقام بلال، وتقدم أبو بكر ليصلي بالناس، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق الصفوف، فصفح القوم وكان أبو بكر لا يكاد يلتفت في الصلاة، فلما أكثروا التفت أبو بكر فإذا هو برسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق الصفوف، فتأخر أبو بكر وأومأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مكانك، فتأخر أبو بكر وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم، فلما قضى صلاته قال: «يا أبا بكر ما بالك إذا أومأت إليك لم تقم؟!»، قال: ما كان لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لكم إذا نابكم أمر صفحتم سبِّحوا فإن التصفيح للنساء» (رواه أحمد).

إذا وقعت الخصومة(١)

فتذكر: أن التخلية قبل التحلية

التخلي عن الرذائل أهم وآكد من التحلي بالفضائل، وهذه وتلك مطلوبة، إذا وقعت الخصومة، وأنا أذكر لك ـ بعون الله وتوفيقه ـ بعض الرذائل، التي لا تنفك عنها الخصومات، حتى تكون منها على حذر.

١ ـ الظلم عاقبته وخيمة

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو أيضًا عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل وفيه نوع من الجور، إذ هو انحراف عن العدل، ويطلق على الشرك قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة لقمان:١٣)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (سورة الأنعام:٨٢)، أي بشرك، قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول ـ ظلم بين الناس وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ولذلك قال: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة لقمان:١٣)، وإياه قصد بقوله: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود:١٨).

والثاني ـ ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ ﴾ (سورة الشورى:٤٠)، إلى قوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الشورى:٤٠)، وبقوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ (سورة الشورى:٤٢).

والثالث ـ ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ (سورة فاطر:٣٢)، وقوله: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ (سورة القصص:١٦).

---

(١) باختصار وتبسيط وتصرف من كتاب «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ».

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهمُّ بالظلم فقد ظلم نفسه.

قال الذهبي: الظلم يكون بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء، وقد عده الكبيرة السادسة والعشرين، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث التي تتوعد الظالمين، نقل عن بعض السلف قوله: لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء، ثم عدد صورًا من الظلم منها:

- أخذ مال اليتيم.
- المماطلة بحق على الإنسان مع القدرة على الوفاء.
- ظلم المرأة حقها من صداق ونفقة وكسوة.
- ظلم الأجير بعدم إعطاء الأجرة.

ومن الظلم البيِّن الجور في القسمة أو تقويم الأشياء وقد عدها ابن حجر ضمن الكبائر.

وقد وردت نصوص الكتاب والسنة بذم الظلم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (سورة الكهف: ٥٩)، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٧٦)، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٥٧)، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف: ٤٩)، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (سورة فصلت: ٤٦)، وقال: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (سورة الشورى: ٤٥).

وفي الحديث: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»، (الحديث رواه مسلم وخرج البخاري أوله)، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، «ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (سورة هود: ١٠٢)»، وعن عائشة رضي الله عنها قالت لأبي سلمة بن عبد

الرحمن وكان بينه وبين الناس خصومة: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن النبي ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوقه من سبع أراضين» (رواه البخاري ومسلم)، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا» (رواه الترمذي، وقال: حسن غريب)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لأنه كان أول من سن القتل» (رواه البخاري ومسلم)، وقد كثرت الآثار عن العلماء في ذم الظلم، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لمولاه هنيًا: **«واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة»**، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الحق حتى اشترى وبسطوا الجور حتى افتدى»**، وقال عمر بن عبد العزيز: «إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فاذكر قدرة الله تعالى عليك، ونفاد ما تأتي إليهم وبقاء ما يأتون إليك»، وقال محارب بن دثار: «أظلم الناس من ظلم لغيره» (أي إعانة لغيره ولمصلحته).

قال أبو العتاهية:

أمـا والله إن الظلم لؤم ... ومـازال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غـداً عند الإله من الملوم

قال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ولو استنار بنور الهدى لاعتبر. فإذا سعى المتقوي بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئًا» وقال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ويروى: «الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».

٢ ـ طول الأمل

وهو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ (سورة الحجر:٣). قال القرطبي: «أي يشغلهم عن الطاعة، قال ابن حجر: وفي الأمل سرٌّ لطيف لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته». وسبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا، وقد ورد ذم طول الأمل في كتاب الله، قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر:٢-٣)، وقال سبحانه عن اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة:٩٦)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل» (رواه البخاري)، **وخط النبي ﷺ خطوطاً، فقال**: «هذا الأمل وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب» (رواه البخاري)، وعن عبد الله بن مسعود قال: **خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال**: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به، أوقد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» (روا البخاري). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: «إذ أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» (رواه البخاري).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» (رواه الحاكم وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي).

ولما سُئل رسول الله ﷺ عن صحف موسى عليه السلام قال: «كانت عبراً كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم أطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل» (رواه البيهقي والبزار).

وقال علي رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيا ارتحلت مدبرة»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل، فإن كل ما هو آت قريب، ألا وإن البعيد ما ليس آتيًا»، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس يُغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض؟»

ودخل رجل على أبي ذر الغفاري رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، أين متاعكم؟ فقال: إن لنا بيتًا نتوجه إليه، فقال: «إنه لابد لك من متاع مادمت ها هنا»، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا». ورُوي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا». وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: «لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أملاً من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا». قال أبو محمد بن علي الزاهد: «خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي: فانتبذ وقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريبًا منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور، أهل الدنيا عليه يقتتلون، وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون». وقال الغزالي: لقد قصم الموت رقاب الجبابرة، وكسر ظهر الأكاسرة وقصر آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة - فانظر هل وجدوا

من الموت حصنًا وعزًا». وقال الحسن: «إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك»، وقيل: «لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره». وقالوا: «كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وعمره يقوده إلى أجله، وحياته تقوده إلى موته».

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: «قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل». كتب رجل إلى أخ له: «إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاد في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام»

إن طول الأمل يدفع إلى المعاصي، ويُبعد عن الطاعات، وهو من أسباب انتهاك الحرمات والتعدي على الآخرين وسلب حقوقهم، فأثبت أجلك بين عينيك واستحي من الله حق الحياء.

٣ ـ سوء الظن

سوء الظن بالمسلم من الكبائر الباطنة، ومما يُذم به العبد أعظم مما يُذم على الزنا والسرقة وشرب الخمر، فقد يدفع إلى احتقار المسلم وعدم القيام بحقوقه، والتواني في إكرامه وإطالة اللسان في عرضه، وكل هذه مهلكات، وشأن المؤمن أن للناس المعاذير وذلك لسلامة باطنه، أما المنافق فهو الذي يطلب العيوب والزلات لخبث باطنه، وقد يسيء العبد الظن بربه، وهذه أيضًا كبيرة، بل هي أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده.

قال ابن القيم: أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم فقلَّ من يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وهو موجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله تعالى ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر، وملامة

له، يقول: إنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ▫▪▫ وإلا فإني لا إخالك ناجيًا

قال سفيان الثوري: الظن ظنان: ظن إثم، وظن ليس بإثم. فأما الذي هو إثم: فالذي يظن ظنًا ويتكلم به، والذي ليس بإثم: فالذي يظن، ولا يتكلم به، والظن في كثير من الأمور مذموم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (سورة يونس:٣٦)، وقال: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (سورة الحجرات:١٢).

قال ابن قدامة: «فليس لك أن تظن بالمسلم شرًا، إلا إذا انكشف أمرٌ لا يحتمل التأويل». وبالتالي فالظن المحرم هو سوء الظن بالله تعالى، وسوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، أما الظن المباح، فهو الذي يعرض في قلب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الريبة. وهذا الظن لا يحقق بمعنى لا يُحكم به، ولا تجعله حقيقة، وقد ذكر القرآن سوء الظن في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (سورة البقرة:٧٨)، وقال سبحانه عن صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (سورة الكهف:٣٥)، وقالت عاد لنبيهم هود: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة الأعراف:٦٦)، وقال سبحانه عن أهل الجاهلية: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (سورة آل عمران:١٥٤)، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (سورة ص:٢٧)، وقال: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة فصلت:٢٣).

وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» (رواه البخاري ومسلم)، وعن كعب بن مالك ﷺ قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة

غزاها قط، إلا في غـزوة تبوك . . . الحديث وفيه: «ولم يـذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكًـا فقال وهو جالس في القـوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟»، قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُراده والـنظر في عطفيه (أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه) فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار» (رواه البخـاري ومسلم)، وعن ابن مسعـود رضي الله عنه قال: لما أمرنا بالصدقـة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجـاء إنسان بأكثر منه، فـقال المنافـقون: إن الله لغني عن صـدقة هذا، ومـا فعل هذا الآخـر إلا رئاءً فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ (سورة التوبة: ٧٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ (سورة الحج: ١١)، قال: كان الرجل يقـدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونتـجت خيله قال: «هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خـيله قال: هذا دين سوء»، (رواه البخاري)، وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد فـقال: أي بُني إني سـمـعت رسول الله ﷺ يقـول: «إن شر الرعاء الحطمة (أي العنيف ضربه مثلاً لوالى السوء) فإياك أن تكون منهم»، فقال له: اجلس، فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فـقال: «وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غـيرهم» (رواه مسلم). وعن سعـيد بن المسـيب قال: «كـتب إليَّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمـه خرجت من امـرىء مسلم شرًا، وأنت تجـد لها في الخـير محملاً، ومن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه».

وعن عبد الله بن المبارك قال: جئت إلى سفيان عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فبكيت، فالتفت إليّ فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله عزّ وجلّ لا يغفر لهم». قال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (سورة الفتح:٦): فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسول الله، وأن أمره سيضمحل وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يُتم أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون، إنما كان هذا ظن السوء، لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، وأنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (سورة ص:٢٧).

فلا تظنن بربك ظن سوء	وإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً	فكيف بظالم جانٍ خجول
وظن بنفسك السوءى تجدها	كذلك خيرُها كالمستحيل

٤ ـ سوء الخلق

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب. فالجهل: يُريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصًا، والنقص كمالاً، والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام ويُقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع

التواضع، والشهوة: تحمله على الحرص، والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها، والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه، ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة.

ومِلاكُ هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحِدَّة والفحش والطيش، ويتولد من تزوج أحد الخُلقين بالآخر أولاد غية (جمع غاوى وهو الضال) كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفًا فتكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهِرَ، ظالمٌ عنوفٌ جبار، فإذا قهر صار أذل من امرأة جبان عن القوة جريء على الضعيف، فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضًا. اهـ.

لقد وردت النصوص تذم سوء الخلق، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» (متفق عليه)، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة الجوَّاظ (الجموع المنوع المختال في مشيته) ولا الجعظري (الفظ الغليظ المتيبر الذي يتمدح بما ليس فيه)» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقني سيء الأعمال وسيء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت» (رواه النسائي والدارقطني بإسناد صحيح)، وفي الحديث: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء» (رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح).

فالعبد يبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة، وإن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم، وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رجل: يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار»، قال: يا رسول الله فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار (قطع الأقط) من الأقط (شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي) ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة» (رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح).

وقد وردت الآثار تذم سوء الخلق، فمن ذلك ما رواه مالك عن يحيى بن سعيد أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ لقى خنزيرًا بالطريق فقال له: انفذ بسلام، فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال عيسى بن مريم: «إني أخاف أن أعوِّد لساني المنطق بالسوء». وعن أبي حازم قال: السيء الخلق أشقى الناس به نفسه، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور فيسمعون صوته، فينفرون عنه فرقًا منه، وحتى إن دابته لتحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، وإن قطه ليفر منه. قال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه، وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠)، قال: «كان في خُلقها سوء، وكان في لسانها طول، وهؤلاء بذاءٌ، فأصلح الله ذلك منها»، وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر فكان يتحمل منه، ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: «بكيته رحمة له، فارقته وخُلقه معه لم يفارقه»، وقال الفضيل بن عياض: «لا تخالط سيء الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر»، وقال أيضًا: «لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق»، وقال يحيى بن معاذ: «سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات».

وجمع بعضهم علامات سوء الخلق فقال: «أن يكون قليل الحياء كثير الأذى، قليل الصلاح، كذوب اللسان، كثير الكلام، قليل العمل، كثير الزلل، كثير الفضول، لا برًا ولا وصولاً، ولا وقورًا، ولا صبورًا ولا شكورًا، غير راضٍ، ولا حليمًا، ولا رفيقًا، ولا عفيفًا، ولا شفيقًا، لعانًا، سبابًا، نمامًا، مغتابًا، عجولاً،

حقودًا بخيلاً، حسودًا، غضوبًا، نكدا، يحب في شهواته ويبغض فيها، فهذا هو سوء الخلق. قال الغزالي: «الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة»، وقال أيضًا: «الأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إنها أمراض تفوت على صاحبها حياة الأبد».

فتخلى - رحمك الله - عن سوء الخلق، وعليك بطاعة الله في العسر واليسر والمنشط والمكره، واعلم أن جماع حسن الخلق في تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك، وأن البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين، ولأن تصاحب وتقتني حية أهوى من أن تعيش بخلق سيء، وأن حسن الخلق أعظم من الجواهر التي تحرص على اقتنائها، ولا تتعلل بالنشئة والبيئة وتبرر بذلك سوء الخلق، فإن الطباع والأخلاق تقبل التغيير والتهذيب ولذلك قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس:٩-١٠)، فاستعن بالله، وتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت:٦٩)، صاحب الصالحين من عباد الله وإذا حدثت الخصومة فإياك وسوء الخلق، واعلم أنك لا تفعل أفضل من أن تطيع الله فيمن عصى الله فيك، وأن تتقي الله فيمن لا يتقي الله فيك، وأن تعدل فيمن جار عليك، وأن تكون عونًا للعباد على طاعة ربهم لا عونًا للشياطين على نفوسهم.

وردت الأحاديث والآثار تذم العنف، وتحث في المقابل على الرفق، ويتأكد ذلك في الخصومات فالتجاري مع نزعات العنف قد تجر إلى أوخم العواقب:

- عن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق

وإيَّاك والعنف والفحش»، قالت: أولم تسمع ما قالوا؟!، قال: «أولم تسمعي ما قُلت؟، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ»(١).

■ عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أُحدث به أحدًا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا(٢). أو حائش(٣) نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا جملٌ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه(٤)، فقال: «من رب(٥) هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل»، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إيَّاها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعه وتدئبه(٦)»(٧).

■ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساءٌ من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنَّكَ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب»، قال عمر: فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن. ثم قال عمر: أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ. قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»(٨).

---

(١) رواه البخاري.
(٢) هدفًا: الهدف ما ارتفع من بناء ونحوه.
(٣) حائش: حائط وهو السور الذي يحيط بالحديقة.
(٤) ذفراه: ذفري البعير الموضع الذي يعرق من قفاه.
(٥) من ربه: من صاحبه.
(٦) تدئبه: تتعبه وتشقيه.
(٧) رواه أبو داود.
(٨) رواه البخاري.

■ عن أبي مسعود ﷺ قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمين، فقال: «ألا إن الإيمان هاهنا، وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدَّادين[(١)] عن أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر»[(٢)].

■ عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني[(٣)] لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني[(٤)] ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية[(٥)] وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم»، قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم[(٦)]، فلا يصدنهم (قال ابن الصباح: فلا يصدنكم)» قال: قلت: ومنا رجالٌ يخطون، قال: «كان نبيٌ من الأنبياء يخطُ[(٧)]، فمن وافق خطه فذاك»، قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية[(٨)]، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا

---

(١) الفدادين: المراد به البقر التي يحرث عليها، وقيل الفدان: آلة الحرث والسكة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) يصمتونني: أي يسكتونني، غضب وتغيرت.

(٤) كهرني: قالوا: القهر والكهر والنهر، متقاربة. أي ما قهرني ولا نهرني.

(٥) بجاهلية: قال العلماء: الجاهلية ما قبل ورود الشرع، سموا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم.

(٦) ذاك شيء يجدونه في صدورهم: قال العلماء: معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة، ولا عتب عليكم في ذلك. لكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم.

(٧) يخط: إشارة إلى علم الرمل.

(٨) قبل أحد والجوانية: الجوانية بقرب أحد، موضع في شمال المدينة.

رجلٌ من بني آدم، آسف كما يأسفون[١] لكني صككتها صكة[٢] فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟، قال: «ائتني بها»، فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟»، قالت: في السماء. قال: «من أنا؟»، قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»[٣].

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء أو سجلاً[٤] من ماءٍ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[٥].

■ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمَّ به أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «أعطوه سنًا مثل سنه»، قالوا: يا رسول الله إلا أمثل من سنه، فقال: «أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءً»[٦].

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ خصوم بالباب عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع[٧] الآخر ويسترفقه[٨] في شيء وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسول الله ﷺ عليهما، فقال: «أين المتألي[٩] على الله لا يفعل المعروف» قال: أنا يا رسول الله، فله أي ذلك أحب.[١٠].

---

(١) آسف كما يأسفون: أغضب كما يغضبون، والأسف الحزن والغضب.

(٢) صككتها صكة: أي ضربتها بيدي مبسوطة.

(٣) رواه مسلم.

(٤) السجل: الدلو المملوءة الكبيرة.

(٥)، (٦) رواهما البخاري.

(٧) يستوضع: أي يطلب منه أن يضع ويسقط من دينه شيئًا.

(٨) يسترفقه: أي يطلب منه أن يرفق به في التقاضي.

(٩) المتألي: أي الحالف المبالغ في اليمين.

(١٠) رواه البخاري.

■ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»[١].

■ عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة[٢]، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[٣].

■ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴾ الآية، قال: إي والله طهرة من الفظاظة والغلظة، وجعله قريبًا رحيمًا رؤوفًا بالمؤمنين.

٦- الضعف

الضعف هو وهن القوة أو هو خلاف القوة ويكون في النفس وفي البدن وفي الحال، وفي إسلام أبي ذر: «فتضعفت رجلا» أي استضعفته، وفي الحديث: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»، واستضعفته بمعنى الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال. وقد ورد الضعف في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة ففي سياق حماية حق الضعيف يقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ (سورة النساء:٩)، وفي سياق التلاوم والعتاب، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا...﴾ (سورة سبأ:٣٣)، وفي سياق الرحمة والترقيق قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) المعجمة: التي لا تنطق.
(٣) رواه أبو داود، وإسناده حسن.

حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ (سورة التوبة: ٩١)، وفي سياق الاحتقار: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾ (سورة هود: ٩١)، والضعف سمة المخلوقين، قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ (سورة النساء: ٢٨)، كما أن الضعف سمة الكيد الشيطاني: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (سورة النساء: ٧٦)، واستضعاف الخلق من سمات الكفار والجبابرة ومن ذلك ما حكاه سبحانه عن فرعون ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ (سورة القصص: ٤)، وشأن المؤمن ألا يضعف تجاه المصائب التي تتنزل به قال تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ (سورة آل عمران: ١٤٦).

ومن الأحاديث الواردة في ذم الضعف ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[(١)]، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[(٢)]، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها»[(٣)]، وقال صلى الله عليه وسلم: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[(٤)]، وقال أيضًا: «الكيس

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) رواها مسلم.

من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[(١)] ، والضعف وإن كان مؤلمًا للنفس وقد يورث الذل والهوان وقد يؤدي إلى تفكك المجتمعات وتفريق الجماعات وقد يكون دليلاً على ضعف الإيمان وقلة اليقين ومظهرًا من مظاهر سوء الخلق، إلا أن استشعاره بين يدي الله مطلوب وهو نوع من القوة، فلابد أن تنكسر النفوس بين يدي القوي المتين سبحانه، ومع وجود القوة المادية في مواجهة الأعداء والخصوم لا يليق بالمسلم أن يطغى أو يتجبر أو يتعدى، ولا أن يعول على قوته، بل يستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا تغيير من حال إلى حال إلا بالله، وقد حكى لنا سبحانه ما كان من المسلمين يوم حنين فقال: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (سورة التوبة: ٢٥)، وعلى العكس والنقيض، فإن حالة الاستضعاف يوم بدر وقعت من الله بمكان، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ٢٦)، وقال أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٣)، وبين سبحانه عاقبة المستضعفين وعظيم تداركه لهم ونعمته عليهم فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (سورة القصص: ٥-٦)، وقال: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية (سورة الأعراف: ١٣٧).

وكأن العبد إذا وصل إلى مرحلة الاستضعاف يتعلق بقلبه بربه ويكون توكله على الله في تمامه وكماله، فيجبر كسره ويرحم ضعفه، ويكون دعاؤه دعاء مضطر ولذلك يجيبه سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ (سورة النمل: ٦٢).

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

وحسبنا أن نعمل بطاعة الله وضعفنا وقوتنا وعسرنا ويسرنا، وأن تتعلق القلوب بربها فبذلك تنتقل من ضعف إلى قوة ومن قوة إلى قوة.

٧ـ الطيش

الطيش مثل السفه، وهو سرعة الغضب من يسير الأمور، وإظهار الجزع من أدنى ضرر والسب الفاحش أو السرف في العقوبة، وقال الليث: الطيش: خفة العقل، وفي حديث الحساب: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» أي خفت، وفي حديث عمر ابن أبي سلمة: «وكانت يدي تطيش في الصحفة» أي تخف وتتناول الطعام من كل جانب، وفي حديث ابن شبرمة، وسُئل عن السُّكر فقال: «إذا طاشت رجلاه واختلط كلامه» قال الجاحظ: وهذا الخلق مستقبح من كل أحد إلا أنه من الملوك والرؤساء أقبح، وعلى هذا فإذا ترتب على الطيش محرم كان محرمًا، وإذا ترتب عليه مكروه كان مكروهًا وهو على كل حال مستقبح، وفي كل وقت مسترذل، فكم من طائش قول أو فعل أهلك صاحبه وحرمه النجاة وألقى به في عداد الظلمة الفسقة. اهـ.

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد»[١]، وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخَرَق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا»[٢]، وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان ـ أي صغارها ـ سفهاء الأحلام ـ ضعفاء العقول ـ يقولون من قول خير البرية ـ أي من القرآن ـ يمرقون من الإسلام كما يمرق

---

(١) رواه أبو يعلى والبيهقي والمنذري وحسنه الألباني.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي الصحيح منه «من يحرم الرفق يحرم الخير».

السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة»[(١)].

بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أيها الناس أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقًا، النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيها الرعاة إن للرعية عليكم حقًا، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه، وليس جهلٌ أبغض إلى الله ولا أغمَّ من جهل إمام وخرقه»**، والطيش قبيح من الشباب والصغار وهو أشد قبحًا من الشيوخ والكبار، ولذلك قال أبو منصور: الشباب مظنة الجهل ومطية الذنوب. والروية والتأني، وإن تراءى للبعض أنها تفوت المصالح إلا أنها أحمد من التهور والطيش، ولذلك قال أبو منصور: «التأني مع الخيبة خير من التهور مع النجاح»، وقال أيضًا: «الأناة حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة»، وصدق فكم من إنسان أُتهم دون وجه حق، وكم من طلاق وقع وبيت تخرب، وزوجة ضاعت، وأولاد تشردوا بسبب الطيش والتهور، وكم من جريمة أُرتكبت، ونفس أُزهقت، وتخوين حدث بسبب عدم الروية والتثبت؛ ولذلك قال البعض: لأن أخطىء في العفو خير من أن أخطىء في القصاص. إن الطيش يتسبب في ضياع الثواب، وذهاب الحقوق، وعدم احترام الناس للطائش، وفيه طاعة للشيطان وهو من علامات الساعة وأماراتها.

٨- الطمع

الطمع قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، والمحمود منه ما كان بمعنى الرجاء في رحمة الله وتوقع الخير، وهذا ما فعله نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (سورة الشعراء:٨٢)، وامتدح سبحانه ـ من يدعونه

---

(١) رواه البخاري.

خوفًا وطمعًا ـ ووعـدهم بما تقر به أعينهم فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السجدة:١٦-١٧) ـ إما إذا كان الطمع في حطام الدنيا من مال عارض أو منصب زائل أو جاه حائل فإن ذلك كله مذموم، وهذا دأب المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (سورة التوبة:٥٨). قال ابن تيمية: «وهكذا كان حال من كان متعلقًا برئاسة أو ثروة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل سخط فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له إذا لم يحصل والعبودية في الحقيقة هي رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبد، لهذا يقال:

العبد حرٌ ما قنع ... والحُرُّ عبدٌ ما طمع

وقال قائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لكنت حراً

ويقال: الطمع فقر واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه. اهـ.

وقد قيل في معنى الطمع: نزوح النفس إلى الشيء شهوة له، وقد يُستعمل بمعنى الأمل، وقال البعض: الطمع ذل ينشأ من الحرص والبطالة والجهل بحكمة الباري، وفي الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع في غير مطمع»، وقد ورد الطمع فى الآيات البينات في مواضع، منها ما هو بمعنى الطمع في المغفرة والجنة مثل: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (سورة المائدة:٨٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (سورة الأعراف:٤٦). أي يتيقنون ما أعد الله لهم من الزلفى، ومنها: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ (سورة المعارج:٣٨)، وقد ورد في معرض الذم إذا كان تصرفًا من شأنه

أن يثير طمع الغير، قال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٢)، وقد وردت الأحاديث في ذم الطمع، ومنها حديث: «وأهل النار خمسة...»، وذكر فيهم ﷺ: «الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق الإخانة... الحديث»[(١)]، وكان ﷺ «يتعوذ بالله من نفس لا تشبع»[(٢)]، وقال: «لايزال قلب الكبير شاباً في اثنتين في حب الدنيا وطول الأمل»[(٣)]، وقال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[(٤)]، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع»[(٥)]، وفي الحديث: «يهرم ابن آدم وتشب اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر»[(٦)]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«تَعَلَّمُنَّ أن الطمع فقر وأن اليأس غنى»**، وقال علي رضي الله عنه: **«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»**، وقال أيضًا: **«ما الخمر صرفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع»**، وسأل كعب عبد الله بن سلام: من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس؛ فإياك والطمع فإنه دليل قلة الإيمان وعلامة سوء الظن بالله الواسع العطاء، يُشعر صاحبه الفقر ويُذله لكل من يطمع فيما عنده، وهو في تعب دائم، ويورث احتقار وازدراء الآخرين.

---

(١)،(٢) رواهما مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٥) رواه الحاكم وصححه الألباني.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

٩ـ السخرية

نهى المولى عزَّ وجلَّ عن السخرية بأنواعها المختلفة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ (سورة الحجرات:١١)، قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة ـ وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلمًا، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت. وقيل: نزلت في ثابت لما عيَّر رجلاً بأم له في الجاهلية فاستحيا الرجل فنزلت، قال الطبري في تفسيرها: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين عسى أن يكونوا خيراً منهم ـ أي المهزوء منهم خير من الهازئين ـ ولا نساء من نساء أي: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات عسى المهزوء منهن أن يكن خيرًا من الهازئات، وقال: إن الله عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره ولا لذنب ركبه ولا لغير ذلك، وقال القرطبي: «وبالجملة فينبغي ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا، وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه لخشيت أن أصبح مثل الذي صنع، وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوَّل كلبًا. اهـ.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ (سورة المؤمنون:١١٠)، قال القرطبي: «يستفاد من هذا التحذير من السخرية والاستهزاء

بالضعفاء والمساكين والاحتقار لهم والازدراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يعني وأن ذلك مُبعد من الله عزَّ وجلَّ، وعن عائشة ﵂ قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، (تعني قصيرة)، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»، قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا»[(١)]. ولما سب أبو ذر ﵁ رجلاً، فعيره بأمه، قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[(٢)]. وعن أم هانيء، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (سورة العنكبوت:٢٩). قال: «كانوا يخذفون - يحقرونهم وينبذونهم - أهل الأرض ويسخرون منهم»[(٣)]، وكان مشركوا مكة أبو جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما، يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين فنزلت الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (سورة المطففين:٢٩)، وقيل: جاء علي بن أبي طالب ﵁ في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه فنزلت هذه الآية قبل أن يصل عليٌّ ﵁ إلى النبي ﷺ. والتهكم من السخرية، وكذلك التعيير بالفقر أو الذنب أو العلة أو ما شابه ذلك. ويدخل في السخرية أيضًا التنابز بالألقاب؛ قال الطبري - رحمه الله -: التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعم الله بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، وغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها، ولما كانت آية السخرية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة الحجرات:١١).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد والترمذي.

فيـما يقوله أنس وابن زيد في نسـاء النبي ﷺ عيرن صـفية بالقصـر، وقيل: نزلت في عائشة ؓ أشارت بيدها إلى صفيـة (قائلة) يا نبي الله إنها لقصيرة، وقال عكرمة وابن عباس أن صفية بنت حُيي قالت: يا رسول الله: إن النساء يعيرنني ويقلن لي يا يهـودية ـ الحـديث، كل ذلك يدل على أن التـنابز بالألقـاب إنما هو داخل في مفهـوم السخرية، ومن ثم يكون ذكر اللمز والـتنابز بعد ذكر السخرية من قـبيل ذكر الخاص بعد العام اهتمامًا به. اهـ.

والهُمزة الذي يهـمز بلسانه واللُمزة الذي يلمز بعـينيه وقال ابن كيسـان: الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عـينه على جليسه ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه، وبين السخرية والهزء فرقًا من جهتين:

الأولى ـ السخرية تكون بالفعل وبالقول والهزء لا يكون إلا بالقول.

الثانية ـ أن السخرية يسبقـها عمل من أجله يُسخر بصاحبه، أمـا الاستهزاء فلا يسبـقه ذلك. فالهزء يكون بالقـول المصحوب بسـوء النية، وهو إظهار الجد وإخـفاء الهزل فيـه، والسخرية والهزء من الحرمـات، قال السفاريني: وتحرم السـخرية والهزء لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾ الآية، ولنهيه ﷺ عن ذلك في مواضع عديدة. اهـ.

إن السخرية داء من أدواء الجاهلية يجب تجنبه والبعد عنه وخصوصًا عن المشاحنة والخصومة، وهي من سمات الكفار والمنافـقين، ومن شأنها أن تفكك عُرى المجتمع، ويكفي أنها مخالفـة صريحة لأمر الله عزَّ وجلَّ، ومبعدة من رضـوانه سبحانه، تُنسى الإنسان ذكر ربه، ونذير شؤم لصاحبها، ومن أسباب حلول العذاب بالساخرين.

١٠ ـ العدوان

العدوان هو الظلم الذي يُتجاوز فيه الحد، والعدو ضد الولي والصديق، والعدوان نوعان:

الأول ـ محظور ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة: ٢).

الثاني ـ غير محظور وهو الذي يكون على سبيل المجازاة ويصح أن يُتعاطى مع من ابتدأ به ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٩٣)، والعدو أيضًا على ضربين:

أحدهما ـ ما يكون العداوة من مقصوده كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ (سورة النساء: ٩٢).

والآخر ـ ما لم يقصد إلى ذلك كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (سورة التغابن: ١٤). والعداوة أيضًا قد تكون باطنة وقد تكون ظاهرة فالباطنة: عداوة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (سورة فاطر: ٦)، وقال: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٨)، ومن العداوة الباطنة: الهوى المعبر عنه بالنفس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (سورة يوسف: ٥٣)، وقول النبي ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» وكذلك الغضب الجامح، فالهوى شيطان والغضب شيطان كما ورد في الخبر، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة القصص: ١٥)، وإنما الظاهر من الأعداء فالإنسان وبعض البشر له طبع السباع، وقد تحدث العداوة بسبب المال أو الرئاسة، قال رجل لآخر: إني أحبك فقال: قد علمت ذلك، قال: ومن أين علمت؟ قال: لأنك لست لي بشريك ولا نسيب ولا جار ولا قريب. والعداوة المنسوبة

للأولاد والأزواج، لما كانوا سببًا لإهلاك العبد لكثرة ما يرتكبه من المعاصي من أجلهم، والبعض قد يشارك الشيطان في المعاداة، فسمى الله تعالى الأعداء شياطين في قوله: ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (سورة الأنعام: ١١٢).

وقد سمى كل ما يُتأذى به شيطانًا، وقد وردت الآية توضح أن العدوان سبب العقاب العاجل في الدنيا، ومن ذلك ما ورد بشأن بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٦١)، والعدوان تجاوز للمشروع في حق النفس أو في حق الغير قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٠)، وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٣)، وقال: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٥)، والعدوان قرين التكذيب بالرسل، قال تعالى في وصف قوم لوط: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٦)، وقال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ (سورة ق: ٢٤-٢٥)، وهو سبب النفي عن ساحة القرب والمحبة، قال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٥).

ولذا ينبغي على العبد أن يترفع عنه وعن أسبابه؛ ولذلك قال سبحانه محذرًا خلقه وعباده: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٩١)، وقال: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تقربوها، وترك أشياء عن غير نسيان فلا

تبحثوا عنها»[١]، وكان النبي ﷺ يتعوذ ويقول: «أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يُعتدى عليَّ أو أكتسب خطيئة محيطة أو ذنبًا لا يغفر»[٢]، وقال: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء»[٣]، وقال ﷺ: «المتعدي في الصدقة كمانعها»[٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا، فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم»[٥]، وقال ﷺ: «من بنى بنيانًا من غير ظلم ولا اعتداء أو غرس غرسًا من غير ظلم ولا اعتداء كان له أجر ما انتفع به من خلق الله تعالى»[٦]، وفي وصية صفي بن رباح التميمي لبنيه: يا بني اعلموا أن أسرع الجرم عقوبة البغي، وشر النصرة التعدي، وألأم الأخلاق الضيق، وأسوأ الأدب كثرة العتاب. لقد تركنا الشريعة وراءنا ظهريًا، وصار التعدي في الخصومات سمة من سمات حياتنا، وأصبحت الأعراف والعادات والأمثال هي التي تقودنا، افتسمع من يقول: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب، وما أقرب المثال من صور العصبية الجاهلية، وما أبعده عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة: ٢).

١١ - السحر

أصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، والعرب إنما سمت السحر سحرًا لأنه يُزيل الصحة إلى المرض، والسحر البيان في فطنة وقد جاء في الحديث: «إن من البيان لسحرًا»، فمنه ما يصرف قلوب السامعين وإن كان غير حق، ومن البيان ما يُكسب من الإثم، والسحر هو الخديعة، وهو إخراج الباطل في صورة الحق،

---

(١) رواه البزار والحاكم
(٢) رواه أحمد والطبراني.
(٣) رواه أبو داود والطبراني وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٥٣)، المُسحَّر: الذي خلق ذا سحر، قال ابن قدامة عن السحر: هو عقدٌ ورقىً يتكلم به أو يكتبه الساحر أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له. اهـ.

والسحر لا يقتصر على التخييل فقط قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة. اهـ.

والسحر يفترق عن المعجزة والكرامة، فقد نقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق. والسحر يكون بمعاناة، أما الكرامة فلا تحتاج إلى ذلك، وتمتاز عليها المعجزة بالتحدي، والكرامة ضابطها الاستقامة وبهذا تفترق عن الخارقة الشيطانية، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣).

ولا يجوز تعلم السحر ولا تعليمه، قال الذهبي: الساحر لابد وأن يكفر، إذ ليس للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك بالله، وترى خلقًا كثيرًا من الضلال يدخلون في السحر ويظنونه حرامًا فقط وما يشعرون أنه الكفر، وحد الساحر: القتل، لأنه كفر بالله أو مضارع له، وهو من السبع الموبقات، وقد جُعل من الشرك لاعتقاد الجهال أن ذلك يؤثر بخلاف ما قدر الله تعالى، وقد عده الإمام ابن حجر ضمن الكبائر، وحَدُّه عنده: كل كلام يغير الإنسان أو شيئًا من أعضائه، وهو من كبائر اللسان، وقد ورد السحر ومشتقاته في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (سورة طه:٦٩)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (سورة يونس:٧٦-٧٧)، وقوله تعالى:

﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ (سورة الإسراء:٤٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأعراف:١٣٢)، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (سورة المدثر:٢٣-٢٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **«من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»**[(٢)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[(٣)]، والنشرة من عمل الشيطان، وهي حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر فلا يجوز حل السحر بالسحر، وإنما يتم ذلك بالرقى الشرعية، وقد نزلت المعوذتان بشأن ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ (سورة الفلق:٤)، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن أعظم الطرق الشرعية في الوقاية من السحر والسحرة الاستعاذة بالله، وتقوى الله تعالى وحفظ أوامره، والتوكل عليه سبحانه، والتوبة من جميع الذنوب والمعاصي، والصدقة والإحسان والإكثار من تلاوة القرآن والمحافظة على الأدعية المأثورة، واستخراج السحر وإبطاله، واستعمال الأدوية المباحة شرعًا، ولنعلم أن الأمور ترى بقدر ﴿ وَمَا هُم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه المنذري والطبراني ورواته ثقات.
(٣) رواه أبو داود وصححه الألباني.

بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة:١٠٢)، وما ورد عن عمر وغيره ﷺ من قتل الساحر يحتاج إلى تثبت وحيطة ونظر في عواقب الأمور، ويقوم به الحاكم أو من ينوب عنه، بحيث تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة، ففي الكتاب الذي كتبه عمر قبل موته بسنة: «اقتلوا كل ساحر، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة»، فقتلنا في يوم ثلاث سواحر، وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله[1]. قال ابن تيمية: أرباب السحر والنيربخيات وعمل الكيمياء وأمثالهم ممن يدخل في الباطل الخفي الدقيق يحتاج إلى أعمال عظيمة وأفكار عميقة وأنواع من العبادات والزهادات والرياضات ومفارقة الشهوات والعادات ثم آخر أمرهم الشك بالرحمن وعبادة الطاغوت والشيطان وعمل الذهب المغشوش والفساد في الأرض، والقليل منهم ينال بعض غرضه الذي لا يزيده من الله إلا بعدًا، وغالبهم محروم مأثوم يتمنى الكفر والفسوق والعصيان وهو لا يحصل إلا على نقل الأكاذيب وتمني الطغيان، سماعون للكذب، أكالون للسحت عليهم ذلة المفترين». اهـ.

فإياك والسحر واستلحاق الأذى والمضرة بالآخرين، وإن دعتك نفسك للانتقام فتذكر أن السحر شرك بالله وكفر به، وهو عمل بغيض وخلق ذميم، يورث خسران الدنيا والآخرة، ويغضب الرب، وهو بمثابة معول هدم في المجتمع، وفيه هلاك الساحر ومذلته في الدنيا قبل الآخرة.

١٢ـ شهادة الزور

الزور هو الميل عن الحق، وقيل للكذب زور لكونه مائلاً عن جهته، قال تعالى: ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (سورة الفرقان:٤)، والزور أيضًا كل شيء يتخذ ربًا، ويُعبد من دون الله. وزور الشهادة أبطلها، والزور مجالس اللهو، وشهادة الباطل وقول الكذب، وقد

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني.

يطلق بمعنى التزويق والتحسين، وشهادة الزور من الكبائر، وقد عدلت شهادة الزور الشرك بالله لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (سورة الفرقان: ٦٨)، ثم قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ (سورة الفرقان: ٧٢)، وقد ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ هذه الآية تحت باب: ما قيل في شهادة الزور، قال القرطبي: شهادة الزور هي الشهادة بالكذب ليتوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس أو أخذ مال أو تحليل الحرام أو تحريم حلال. اهـ.

وشهادة الزور تحمل في طياتها جريمتين:

الأولى ـ عدم تأديتها وظيفتها الصحيحة.

الثانية ـ هضم الحقوق وظلم البراء، والاستعانة بها على الإثم والبغي والعدوان.

وقال الذهبي بعد أن عدها من الكبائر: إن شاهد الزور قد ارتكب عظائم أحدها: الكذب والافتراء، ثانيها: أنه ظلم الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه (أحيانًا)، ثالثها: أنه ظلم الذي شهد له بأن ساق إليه المال الحرام فأخذه بشهادته فوجبت له النار مصداقًا لقوله ﷺ: «من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»، رابعها: أنه أباح ما حرم الله تعالى وعصمه من المال والدم والعرض. اهـ.

وحكى بعضهم الإجماع على أن شهادة الزور كبيرة ولا فرق بين أن يكون المشهود به قليلاً أو كثيرًا. وقد ورد في ذم الزور قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (سورة الحج: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٢)، وسمى سبحانه الظهار زورًا، وهو قول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (سورة المجادلة: ٢).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» . **ثلاثًا . قالوا: بلى يا رسول الله. قال:** «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» ، **وجلس وكان متكئًا فقال:** «ألا وقول الزور» ، **قال: «فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»** [(١)] .

قال ابن حجر في قوله: «**وجلس وكان متكئًا**» يشعر بأنه اهتم بذلك حتى جلس بعد أن كان متكئًا، ويفيد ذلك تأكيد تحريم الزور وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعًا على الناس والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرها فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذُكر معها من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد، بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالبًا. اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يُعطني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» [(٢)] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» [(٣)] ، وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: قدم رجل من العراق على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: جئتك لأمر ماله رأس ولا ذنب، فقال عمر: وما ذاك؟ قال: شهادة الزور ظهرت بأرضنا، قال: وقد كان ذلك؟ قال: نعم، فقال عمر بن الخطاب: «والله لا يؤسر (لا يحبس) رجل في الإسلام بغير العدول» [(٤)] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (سورة الحج: ٣٠) يعني: الافتراء على الله والتكذيب، وقال ابن كثير: «من ها هنا لبيان الجنس

---

(١)، (٢) رواهما البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ.

أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣)، ومنه شهادة الزور. اهـ.

إن شهادة الزور تطمس معالم العدل وفيها ضياع الحقوق وهي سبب لسخط الجبار ودخول النار، وهي تعصف بالمجتمع وتدمره وتقوض أركان الأمن وتزعزع الاستقرار وفيها إعانة للظالم على ظلمه، بالإضافة لزرع الأحقاد والضغائن في القلوب.

١٣ـ الشماتة

الشماتة: خلق ذميم وهي عبارة عن الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك، وقال القرطبي: الشماتة السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٠)، أي لا تسرهم، وهي محرمة منهي عنها، وهي في قراءة مجاهد: **«لا تَشْمت بي الأعداء»** أي لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء، أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي، وقيل المعنى على قراءة الجماعة: لا تسرهم بما تفعل بي فأكون ملومًا منهم ومنك قال الشاعر: والموت دون شماتة الأعداء، وقُرئ: **«فلا تشمَّت بي الأعداء»**، وتشميت العاطس دعاء له أن لا يكون في حال يشمَّت به فيها ـ وقيل: معناه أبعدك الله عن الشماتة وجنبك ما يُشمت به عليك. وقد ذكر سبحانه شماتة المنافقين والكافرين في أكثر من موضع فقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا...﴾ الآية (سورة آل عمران: ١٢٠)، وقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥٠)، فلا يجوز للمسلم أن يتشبه بهؤلاء بحيث يفرح بمصيبة أخيه أو يُسر بمكروهه، وفي الحديث: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك» (رواه الترمذي وحسنه)، وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من شماتة الأعداء كما ورد

في حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء[١]، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أين فلان؟» فغمزه رجل منهم فقال: إنه وإنه، فقال النبي ﷺ: «أليس قد شهد بدرًا؟» قالوا: بلى، قال: «فلعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٢]، وعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه حُلةٌ وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك؟ قال: فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه، قال: فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له؛ فقال النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية...» الحديث[٣].

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[٤]، قال أحمد: من ذنب قد تاب منه، وعن البراء ﷺ قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار قد دخل من قبل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (سورة البقرة:١٨٩)، الحديث[٥]، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: جاء أبو موسى إلى الحسن بن علي يعوده، فقال له عليٌّ: أعائدًا جئت أم شامتًا؟ قال: لا بل عائدًا، قال: فقال له عليٌّ: إن كنت جئت عائدًا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خِرافة - أي في اجتناء ثمر الجنة - الجنة حتى يجلس، فإن جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»[٦].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه وأقره الذهبي.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه الترمذي وحسنه.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه أحمد وصحح أحمد شاكر إسناده.

ولما ماتت أباعر الأعرابي قال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إضن
ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

وقال الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

فالشماتة تورث العداوة والبغضاء وتنبىء عن سوء خلق الشامت، وهي دليل على انتزاع الرحمة من القلوب، وسبيل إلى تمزيق المجتمع، كما تسخط الله عزَّ وجلَّ، وتجعل الشامت مبغوضًا من الله ومن الناس.

١٤ ـ السفاهة

السفه والسفاهة عبارة عن خفة وطيش تعرض للإنسان من الفرح والغضب فيحمله ذلك على العمل بخلاف العقل وموجب الشرع، وهذا نقيض الحلم، إذ ينبغي على المسلم أن يواجه الأحداث بمتانة في الرأي وقوة في السلوك، لا أن يظهر الجزع من أدنى ضرر ويسرف في العقوبة ويبادر بالبطش، والسفه يدل على نقصان العقل ويكون في الأمور الدنيوية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ (سورة النساء:٥)، إذ يخشى من السفيه إضاعة المال في أوجه التبذير وعدم القدرة على العمل فيه بالتدبير، وقد يكون السفه في الأمور الأخروية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ (سورة الجن:٤)، وقوله تعالى: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ (سورة البقرة:١٣)، فالسفيه كما قال الكفوي: ظاهر الجهل، عديم العقل، خفيف اللب، ضعيف الرأي، رديء الفهم، مستخف القدر، سريع الذنب، حقير النفس، مخدوع الشيطان، أسير الطغيان، دائم العصيان، ملازم الكفران، لا يبالي بما كان ولا بما هو كائن أو سوف يكون. اهـ.

والسفه أقبح من العبث؛ إذ أنه يستلزم المضرة وقد لا يكون فيه غرض أصلاً، والسفه قد يأتي بمعنى الكفر أو النفاق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣)، وقد تأتي بمعنى الجهل أو سوء التدبير كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٠)، وحكى سبحانه وتعالى ما كان من عاد مع نبيهم هود عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٦٦-٦٧).

وقد وردت الأحاديث تذم السفاهة، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ستأتي على الناس سنون خداعة يُصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»، **قيل، وما الرويبضة؟، قال:** «السفيه يتكلم في أمر العامة»[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «بادروا بالموت ستًا، وذكر منها إمرة السفهاء» الحديث[٢]، وقال لكعب بن عجرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء»، **قال: وما إمارة السفهاء؟، قال:** «أمراء يكونون بعدي لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون على حوضي...» الحديث[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: حدثني حبي أبو القاسم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فقال: «إن هلاك أمتي على يدي غلمة سفهاء من قريش»[٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء، ولاتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[٥]

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) رواه أحمد وصححه الألباني.
(٣) رواه أحمد وابن ماجه والنسائي والترمذي وقال حسن غريب.
(٤) رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي
(٥) رواه ابن ماجه وابن حبان وصححه الألباني.

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج في آخر الزمان أقوام حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية ـ القرآن ـ لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»(١)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام:** ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، **إلى قوله تعالى:** ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٠)»(٢)، وقال عمير بن خبيب يوصي بنيه: بنيَّ إياكم ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داء، من يحلم عن السفيه يُسرَّ، ومن يجبه يندم، ومن لا يرضى بالقليل مما يأتي به السفيه يرضى بالكثير»(٣)، قال السدي في تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (سورة البقرة:١٤٢)، المراد بالسفهاء: الكفار وأهل النفاق واليهود أما الكفار فقالوا لما حولت القبلة: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، فإنه علم أنا على الحق، وأما أهل النفاق فقالوا: إن كان أولاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل، وكذلك العكس، وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء ولو كان نبيًا لما خالف، فلما كثرت أقاويل هؤلاء السفهاء أنزلت هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ (سورة البقرة:١٠٦-١٥٠).

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

يخاطبني السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبًا
يزيد سفاهة فأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبًا

فإياك وهذا الصنف من الناس، واحذر أن تكون واحدًا منهم، فالسفه دليل سوء الخلق ومظنة سوء الخاتمة، وهو يخرب الديار العامرة ويستجلب غضب الجبار وعظيم النيران، وصاحبه يؤول إلى الإفلاس، وهجران الناس له لشره المتعد وخلقه المشين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) رواه البخاري. (٣) رواه الطبراني في الأوسط.

١٥ ـ الخيانة

الخيانة: ضد الأمانة، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ (سورة الأنفال:٢٧). فخيانتهم لله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم للرسول ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر وهو يستسر الكفر والغش لهم في الباطن ويدلون المشركين على عوراتهم ويخبرونهم بما خفى عنهم من خبرهم، قيل: نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سر المسلمين، وقوله: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله وقيل: هي الدين، والاختيان. تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة، قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة:١٨٧)، وخائنة الأعين، ما يسارق من النظر إلى ما لا يحل، أو أن ينظر نظر ريبة، ومنه الحديث: «وما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين» أي يضمر في نفسه غير ما يظهره فإذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان، وقد عدها الإمام الذهبي من الكبائر بدليل قول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان»[(١)]، وقال: «الخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم».

والخيانة خصلة من خصال النفاق، وهي مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ويخشى على الإنسان إن استحكمت خيانته أن تؤول به للنفاق الأكبر، النفاق الاعتقادي، كنفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فيكون في الدرك الأسفل من النار، وقد وردت كلمة الخيانة في القرآن الكريم على معانٍ منها المعصية قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة:١٨٧)، أي تخونونها بالمعصية، ومنها نقض

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

العهد، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ (سورة الأنفال:٥٨)، ومنها ترك الأمانة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (سورة النساء:١٠٥)، نزلت في طعمة بن أبيرق المنافق كان عنده درع فخانها، ومنها المخالفة في الدين، قال تعالى: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (سورة التحريم: ١٠)، وقد ترد الخيانة بمعنى الزنا كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (سورة يوسف:٥٢)، ويكفي في ذم الخيانة أن الله تعالى لا يحب أهلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (سورة الحج:٣٨)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (سورة النساء:١٠٧)، ولا يجوز خيانة النفس أو الغير، كما لا يجوز الإعانة عليها، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (سورة يوسف:٥٢)، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (سورة النساء:١٠٥).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[(١)]، وقال ﷺ: «وأهل النار خمسة» الحديث. وذكر منهم: «الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق الإخانة»[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة»[(٣)]، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة، قال النبي ﷺ: «إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَنُ»[(٤)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سيأتي على الناس سنون

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أبو داود وحسنه الألباني.
(٤) رواه البخاري ومسلم

يُصدَّق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، وينطق فيها الرُّويبضة» قال قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟، قال: «السفيه يتكلم في أمر العامة»(١)، وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»(٢)، وفي الحديث: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة...» الحديث(٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم - ينتن - ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»(٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تقول عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن أفتى بفتيا بغير علم كان إثم ذلك على من أفتاه، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه»(٥)، وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما يقول: «أقام رجل سلعته فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعطها فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (سورة آل عمران: ٧٧)، قال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن»(٦)، وفي حديث حذيفة عن رفع الأمانة وقبضها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً...» الحديث(٧)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»(٨)، وعن عدي بن حاتم قال: أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسميهم، فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى، أسلمت إذا كفر، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي: فلا أبالي إذاً(٩).

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني.
(٣) رواه أحمد وصحح أحمد شاكر إسناده.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه أحمد وأبو داود وحسنه الألباني.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه البخاري ومسلم.
(٨)، (٩) رواهما البخاري.

الخيانة بئست البضاعة، ولا يجوز العمل بها على مستوى الفرد والدولة والجماعة، وهي أسوأ ما يبطن الإنسان، ولا يصح أن تكون على جهة المقابلة أو أن تكون في مواجهة الخيانة، فهي تسخط الله عزَّ وجلَّ، وهي من علامات النفاق، ومن أمارات الساعة، وطريق موصل إلى العار في الدنيا والنار في الآخرة، والغلول والرشوة والمطل والغش من صورها، وخيانة المجاهد في أهله أعظم جرمًا من خيانة غير المجاهد فمن التغرير بالنفس أن نعتبرها من علامات الذكاء والفطنة، أو أن نستخدمها بدافع الانتقام والشهوة.

١٦ - الحمق

الحمق: ضد العقل، وهو وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه، قال النووي - رحمه الله -: «حقيقة الأحمق من يعمل ما يضره مع علمه بقبحه» اهـ.

والحمق يدل على فساد العقل وكساده، وفي الحديث: «ينطلق أحدكم فيركب الحموقة» أي خصلة ذات حمق، وبمعناها: الأُحموقة، وقد فرق ابن الجوزي بين الحمق والجنون، فقال - رحمه الله - الحُمق: هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود بخلاف الجنون، فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعًا، فمن ذلك: أن طائرًا طار من أمير فأمر أن تغلق أبواب المدينة، فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر ولكنه أخطأ في الوسيلة، وقد وردت الآيات تذم الحمق وأهله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الأعراف:١٧٩)، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (سورة الفرقان:٤٣-٤٤)، وقد وصفت الآيات المنافقين بصفات كثيرة كلها تدل على

حمقـهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٩)، وقوله تعالى فيهم: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٢)، ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٣)، ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٥)، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٦)، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٨).

ووردت الأحاديث الشريفة في ذم الحمق ومنها ما رواه جابر ﷺ قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى ابنه إبراهيم، فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى فقال له عبد الرحمن: أتبكي؟ أولم تكن نهيت عن البكاء؟، قال: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة، خمش وجوه، وشق جيوب، ورنة شيطان»[1]، وعن الأسود بن سريع ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في فترة فيقول: ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم بردًا وسلامًا»[2]، وفي حديث أم زرع الذي روته أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت السابعة: «زوجي غياياء أو عياياء - لا يهتدي إلى مسلك، وهو الغبي الأحمق - طباقاء كل داء له دواء شجك - جرحك - أو فلك أو جمع كلاً لك. . .» الحديث[3]، وعن أبي ذر

(١) رواه الترمذي وحسنه.
(٢) رواه أحمد والطبراني والبيهقي وابن حبان والبزار.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: «أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أعلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين ضائعًا، أو تضع لأخرق (أحمق)»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك»[1].

وعلل جابر رضي الله عنهما زواجه من الثيب ـ وهي التي سبق لها الزواج ـ بقول: يا رسول الله ابن أبي قتل يوم أحد وترك تسع بنات كن لي تسع أخوات، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء ـ حمقاء ـ مثلهن، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن، قال: «أصبت»[2]، تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (سورة الانفطار:٦). قال: الحمق يا رب، وقال عليٌ رضي الله عنه: «**ليس من أحد إلا وفيه حمقة فبها يعيش**»، وقال عمر بن عبد العزيز: «ما عدمت من الأحمق فلن تعدم خلتين: سرعة الجواب، وكثرة الالتفات»، وقال ابن أبي زياد: قال لي أبي: يا بني الزم أهل العقل، وجالسهم، واجتنب الحمقى، فإني ما جالست أحمق فقمت إلا وجدت النقص في عقلي، وقال الخليل بن أحمد: الناس أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فارفضوه» وعن أبي إسحاق قال: «إذا بلغك أن غنيًا افتقر فصدق، وإذا بلغك أن فقيرًا استغنى فصدق وإذا بلغك أن حيًا مات فصدق، وإذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تصدق»، وقيل لإبراهيم النظام: ما حد الحمق؟، فقال: سألتني عما ليس له حد. وعن الأوزاعي أنه قال: «بلغني أنه قيل لعيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال: «نعم بإذن الله»، قيل: وتبريء الأكمه؟ قال: «نعم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.

بإذن الله»، قيل: فما دواء الحمق؟ قال: «هذا الذي أعياني». ونظر بعض الحكماء إلى أحمق جالس على حجر فقال: حجر على حجر، وقال بعضهم: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق، وقال بعض الحكماء: من أخلاق الأحمق: إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن قال فحش، وإن سُئل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك نهق، وإن بكى خار. وقال آخر: مؤنة العاقل في نفسه، ومؤنة الأحمق على الناس، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة.

فالحمق شر كله يجب اجتنابه، والتباعد عن أوصافه، والحذر منه وخصوصًا وقت الخصومة، فإن انفلات المعايير مجلبة للسخط والعذر.

١٧ - التجسس

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٢).

قال الطبري: لا تجسسوا؛ أي لا يتتبع بعضكم عورة أخيه ولا يبحث عن سرائره يبتغي بذلك الظهور على عيوبه. اهـ.

فالتجسس هو التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر، وهو السؤال عن عورات الإخوان وتتبعها بحيث يطلع على سرهم، وفي قراءة لأبي رجاء والحسن «ولا تحسسوا» بالحاء قال القرطبي: واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما عن الأخرى لأن التحسس البحث عما يكتم عنك، والتجسس: طلب الأخبار والبحث عنها، ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن غيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله. اهـ.

وأكثر العلماء على التفريق بين التجسس والتحسس، فالتجسس أن يطلب الخبر لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه، قال ابن كثير - رحمه الله -: التجسس غالبًا يطلق في الشر ومنه الجاسوس وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير، كما قال عزَّ وجلَّ إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ (سورة يوسف:٨٧)، وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا» . اهـ.

والحديث الذي ذكره ابن كثير - رحمه الله - رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[(١)]، وقد ورد في الحديث: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[(٢)]، وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»[(٣)]، وفي الحديث: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[(٤)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به**»[(٥)]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (سورة الحجرات:١٢)، قال: «**نهى الله المؤمن أن يتبع عورات أخيه المؤمن**»، وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه حرس مع عمر بن الخطاب ليلة المدينة، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه - يقصدونه - فلما دنوا منه إذا باب مجافٌ - مغلق - على قوم لهم فيه

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه أبو داود، وقال الألباني حسن صحيح
(٥) رواه أبو داود.

أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف: «أتدري بيت من هذا؟»، قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب ـ سكارى ـ فما ترى؟ قال: أرى أن قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا، فانصرف عنهم وتركهم، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة:٤٧)، وفيكم مخبرون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم وهم الجواسيس.

إن من ثمرات سوء الظن التجسس وهو كثير من الخصومات، فيندفع العبد إلى البحث عن الشيء، وقد يستمع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم، ومع التطور المادي صار التنصت على البيوت والمكالمات التليفونية، واستخدام التسجلات من أيسر الأشياء، وقد مر بك حرمة التجسس والنهي عنه، حتى لو كانت الغاية حسنة كأمر بمعروف ونهي عن منكر، فلا يجوز أن تكشف الغطاء لتعرف ما في الإناء، ولا أن ترفع الثوب لتعلم ما تحته، ولا أن تتسور الجدر لتعلم ما في البيوت وقد أباح الإمام أحمد التجسس في حالتين: وهي أن يعلم الإنسان أن فلانًا يهم بالزنى بفلانة، أو أن شخصًا يريد قتل آخر، فإذا لم يتم إنكار المنكر، ومنع وقوع الزنى والقتل إلا بالتجسس جاز حينئذ، ولا ينبغي التوسع في التجسس عن الحالتين المذكورتين حتى لا تقع في المحظور، والحذر من كثرة التبريرات والتأويلات فقديمًا قالوا: ما عُصي الله إلا بالتأويل، والتجسس يوغر الصدور ويورث الفجور، ويؤدي إلى فساد الحياة وكشف العورات، وهو دليل دناءة النفس وضعف الإيمان وفساد الأخلاق، يورد صاحبه موارد الهلاك ويوجب له غضب الله ورسوله والمؤمنين: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزمر:١٣).

١٨ ـ البـذاءة

البذاءة: هي التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، أو هي كما عرَّفها البعض عبارة عن الفحش والقبح في المنطق وإن كان الكلام صدقًا، قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: إن السب والفحش وبذاءة اللسان مذمومة ومنهيٌّ عنها ومصدرها الخبث واللؤم، والباعث عليها إما قصد الايذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم لأن من عادتهم السب، ومواضع ذلك متعددة ويمكن حصرها في كل حال تخفى ويستحيا منها، فإن التصريح في مثل هذه الحال فحش وينبغي الكناية عنها، وأكثر ما يكون في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها، وأما أهل الصلاح فإنهم يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، ألم تر أن الله عزَّ وجلَّ كنى باللمس عن الجماع، ولذلك فإنه تستعمل ألفاظ مثل المس واللمس والدخول والصحبة، كما يكون الفحش والبذاء أيضًا في حال قضاء الحاجة، فإن استعمال البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء، ويدخل الفحش أيضًا والبذاء في ذكر النساء والكلام عنهن، فلا يقال: قالت زوجتك كذا، بل يقال: قيل في الحجرة أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش وكذلك يدخل أيضًا في ذكر العيوب التي يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح اللفظ، فلا يقال فلان الأبرص والأقرع، بل يقال مثلاً فلان الذي به العارض الذي يشكوه، وهذا كله يختلف بإختلاف البلاد، وأوائل هذه الأشياء مكروه وآخرها محظور وبينهما درجات يتردد فيها. اهـ.

وقد وردت الآيات تذم البذاءة وتعيبها ومنها قوله تعالى: ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (سورة النساء:١٤٨)، وقال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (سورة

المتحنة:٢)، وقال سبحانه بشأن الإفك الذي جاء به ابن سلول المنافق: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور:١٥-١٦)، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (سورة الأحزاب:١٩)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»[(١)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار»[(٣)]، وورد: «حسب الرجل أن يكون فاحشًا بذيًا بخيلاً جبانًا»[(٤)]، وفي الحديث: «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا ألا إن البذاء لؤم»[(٥)]، وفي الحديث: «أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس - أو ودعه الناس - اتقاء فحشه»[(٦)]، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أتى النبي ﷺ أناسٌ من اليهود فقالوا: السَّام عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم»، قالت عائشة: قلت: بل عليكم السام - الموت - والذَّام (الذم)، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لا تكوني فاحشة»، فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال: «أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم»[(٧)]، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

---

(١) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني وقال حسن غريب.
(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه الحاكم وابن حبان والترمذي وقال: حسن صحيح.
(٤) رواه أحمد والطبراني.
(٥) أخرجه النسائي بإسناد صحيح.
(٦)،(٧) رواهما البخاري ومسلم.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[١]، وقد ورد النهي عن سب الريح والحمى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٢]، وفي الحديث: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»[٣]، وفي الحديث: «الصيام جنّة ـ وقاية ـ فلا يرفث ـ الكلام الفاحش ـ ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم مرتين»[٤]، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه»[٥]، وفي الحديث: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن خير الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا»[٦]، ولما عيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه، قال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية»[٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٨]، وفي الحديث: «لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة»[٩].

وأيضًا ورد: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا»[١٠]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: **«إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان»**، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: **«ألأم شيء في المؤمن الفحش»**، وقال الأحنف بن قيس: **«ألا أخبركم بأدوإ الداء اللسان البذيء والخلق الدنيء»**، وقال

---

(١) رواه مسلم.

(٢)،(٣)،(٤) رواها البخاري ومسلم.

(٥) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه.

(٦) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير، وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

(٧)،(٨) رواهما البخاري ومسلم.

(٩) رواه أبو داود وصححه الألباني.

(١٠) رواه مسلم.

عطاء ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠)، قال: كان في خلقها سوء، وكان في لسانها طول، وهؤلاء بذاءٌ، فأصلح له ذلك منها، ورأى أبو الدرداء ﷺ امرأة سليطة اللسان فقال: «**لو كانت هذه خرساء كان خيرًا لها**». وقال إبراهيم بن ميسرة: «يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب». وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل».

إن الخصومة قد تجر البعض إلى البذاءة، وهي دليل قلة الحياء، وضعف الإيمان وخبث الطوية، وتؤدي إلى الهوان على الناس وإلى إشاعة الفحش والتفحش في المجتمع، والعاقل هو الذي ينظر في عواقب أمره ولا يستخفه الطيش، ولا يحمله الغضب وهوى النفس على أن يورد نفسه موارد الهلكة.

١٩ ـ انتهاك الحرمات

فضلت الشريعة بعض الساعات على بعض كساعة الإجابة يوم الجمعة، وبعض الليالي على بعض كليلة القدر، وبعض الشهور على بعض كرمضان وذي الحجة، وبعض الأيام على بعض كيوم عرفة ويوم النحر، وبعض الناس على بعض كالأنبياء والمرسلين، وبعض الأمكنة على بعض كالحرم المكي.

وشأن المسلم أن يعظم حرمة الزمان والمكان والأشخاص، وأن يدور مع إسلامه حيث دار، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (سورة الحج:٣٢)، والخطر في انتهاك الحرمات كبير أثناء الخصومة والمشاحنة، والانتهاك الذي نعنيه هنا هو المبالغة في خرق محارم الشرع وإتيانها، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لم يقدر الله حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره

فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته، فلـله الفضلة من قلبه وقوله وعمله. هواه المقدم في ذلك كله. المهم أنه يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه، وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه حتى إذا قام في حق ربه، قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قدَّر الله حق قدره من هذا وصفه؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء. اهـ.

وقد وردت النصوص في ذم انتهاك الحرمات، فعن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح - أشد البخل - فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[(١)]، وعن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ستة لعنتهم، لعنهم الله وكل نبي كان: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت ليعز بذلك من أذل الله، ويُذل من أعز الله، والمستحل لحُرم الله، والمستحل من عترتي - أهل البيت - ما حرم الله، والتارك لسنتي»[(٢)]، وعن ثوبان ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله عزَّ وجلَّ هباءً منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي والحاكم وصحح إسناده.

بمحارم الله انتهكوها»[١]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تُنتهك حرمات الله فينتقم لله**»[٢]، وعن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأً مسلمًا في موضع تُنتهك فيه حرمته ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه»[٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[٥]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع - ينتهكها بعضكم - ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب»[٦]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سورة المؤمنون: ٥١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (سورة البقرة: ١٧٢)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد

---

(١) رواه ابن ماجه والمنذري وصحح الألباني إسناده.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه أحمد وأبو داود.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم
(٦) رواه أحمد وصحح أحمد شاكر إسناده.

يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[(١)]، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه...» الحديث[(٢)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»[(٣)]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ (سورة الحج: ٢٥)، قال ابن مسعود رضي الله عنه: **«لو أن رجلاً أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين أذاقه الله من العذاب الأليم»**، وقال عمر رضي الله عنه: **«يا أهل مكة، اتقوا الله في حرمكم هذا، أتدرون من كان ساكن حرمكم هذا من قبلكم؟ كان فيه بنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا، وبنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا حتى عد ما شاء الله»**، ثم قال: **«والله لأن أعمل عشر خطايا بغيره أحب إليَّ من أن أعمل واحدة بمكة»**. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: **«ما من عبد ترك شيئًا لله إلا أبدله الله به ما هو خير منه، من حيث لا يحتسب، ولا تهاون به عبد فأخذ من حيث لا يصلح إلا أتاه الله بما هو أشد عليه»**. وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السحر فيصبح وعليه مذلته. وقال ذو النون المصري: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية. وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

فالله الله في نفسك بأن تنتهك الحرمات فتعرض نفسك لغضب الله وأليم عذابه وهتك ستره سبحانه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢)،(٣) رواهما البخاري ومسلم.

٢٠ - إفشاء السر

إفشاء السر: بمعنى نشره وإذاعته بين الناس ويكون ذلك بالكتابة والإشارة والكلام، وينطوي على خرق وخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به، ويحرم على كل مكلف حيث أمر بكتمه أو دلته قرينة على ضرورة كتمانه، أو كان مما يُكتم عادة، وخصوصًا إذا كان في إفشاء السر مضرة وتهاون بحق المعارف والأصدقاء، وهو من قبيل اللؤم إن لم يكن فيه إضرار، وقد ذهب أكثر العلماء إلى أنه إذا مات صاحب السر، فإنه لا يلزم من كتمانه ما كان يلزم في حياته إلا أن يكون عليه فيه غضاضة ويجوز الإفشاء إذا كان في ذلك مصلحة أو دفع ضرر، ومن ذلك إفشاء يوسف عليه السلام سر التي راودته عن نفسه وسر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ليدفع التهمة عن نفسه، فإن الملك لو اتهمه لم يُوله على خزائن البلاد، وقد يستحب إفشاء السر، إذا كان فيه تزكية أو منقبة أو نحو ذلك، فإن لم يكن كذلك فهو منهي عنه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنفال:٢٧)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (سورة الحج:٣٨)، وعن أنس ﷺ قال: **«مر بي النبي ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان فسلم علينا ثم دعاني فبعثني إلى حاجة له، فجئت وقد أبطأت عن أمي، فقالت: ما حبسك؟ أين كنت؟ فقلت: بعثني رسول الله ﷺ إلى حاجته، فقالت: أي بُني وما هي؟ فقلت: إنها سرٌ، قالت: لا تحدث بسر رسول الله ﷺ أحداً، ثم قال: «يا ثابت لو كنت حدثت به أحداً لحدثتك يا ثابت»**[١]، وعن أنس ﷺ قال: **«أسرَّ إليَّ النبي ﷺ سراً فما أخبرت به أحداً بعده، ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به»**[٢]، وعن أبي سعيد

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) رواه البخاري.

الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»، وفي رواية: «من أشر الناس»(١).

ولما دخل ناس من أصحاب رسول الله ﷺ على أم سلمة فقالوا: يا أم المؤمنين حدثينا عن سر رسول الله ﷺ قالت: كان سره وعلانيته سواء، ثم ندمت فقلت: أفشيت سر رسول الله ﷺ قالت: فلما دخل أخبرته، فقال: «أحسنت»(٢).

ولما عرض عمر على أبي بكر ابنته حفصة رضي الله عنهم أن يزوجه إياها، لم يجبه أبو بكر بشيء، ثم قال لعمر: **«فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»**(٣)، ومن ذلك قول السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما سُئلت عما سارها به رسول الله ﷺ قالت: **«ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سره»**، قالت عائشة رضي الله عنها: **«فلما تُوفي رسول الله ﷺ، قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ»، فقالت فاطمة رضي الله عنها: «أما الآن فنعم. أما حين سارَّني في المرة الأولى فأخبرني: «أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وإنه عارضه الآن مرتين وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك» قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جَزَعي سارَّني الثانية، فقال: «يا فاطمة أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟» قالت: فضحكتُ ضحكي الذي رأيت»**(٤). وفي حديث أم زرع عن عائشة رضي الله عنها: «... جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثا (لا تشيعه ولا تفشيه وإنما تكتم سرنا)»(٥).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٣) رواه البخاري وأحمد.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»[(١)].

قال العباس لابنه عبد الله: «**إني أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب ﷺ - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمسًا: لا تفشين له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تجرين عليه كذبًا، ولا تعصين له أمرًا، ولا يطلعن منك على خيانة**»، قال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خيرٌ من ألف، وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك، قال الغزالي: أفشى بعضهم سرًا له إلى أخيه، ثم قال له: هل حفظت؟ قال: بل نسيت، وقال الثوري: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دُس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سرك فاصحبه، وقال ذو النون المصري: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصومًا، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها.

وقال السفاريني: قال الحكماء: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يقدم عليها: شرب السم للتجربة، وإفشاء السر إلى القرابة، والحاسد وإن كان ثقة، وركوب البحر وإن كان فيه غنى. وقال أيضًا: يُروى أن أصبر الناس من لا يُفشي سره إلى صديقه مخافة التقلب يومًا ما، وقال الحسن البصري: «لا تستقيم أمانة رجل حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه». وعن عطاء قال: «كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا: كتاب الله أن تقرأه، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لابد لك منه»، وعن عبد الله بن المبارك قال: عجبت من اتفاق الملوك كلهم على كلمة: قال كسرى: إذا قلت ندمت وإذا لم أقل لم

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه.

أندم، وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الهند: عجبت لمن تكلم بكلمة إن هي رُفعت ضرته، وإن هي لم تُرفع لم تنفعه. وقال ملك الصين: إن تكلمت بكلمة ملكَتني وإن لم أتكلم بها ملكتها.

كثرة إفشاء السر في المشاحنة والخصومة من الأمور المعلومة، وخصوصًا وسط النساء، وقد يترتب على ذلك أوخم العواقب، والعاقل يتهم نفسه قبل أن يتهم غيره، فقد ضاق صدره عن سره ولذلك باح به لغيره، وعلى من اؤتمن أن يتقي الله في غضبه ورضاه، وأن يتقي موارد الهلكة وما يعقبه المذلة والندم والحسرة والعار والفضيحة، وما يُخل بالمروءة، ويوصف به بأنه من أشر الناس ويفقد الثقة ويفسد الصداقة ويعرض للخطر، ويدل على لؤم الطبع وخيانة الأمانة ونقض العهد، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

إذا حدثت الخصومة فتذكر

أدب الخلاف وفقهه[1]

كان بين آدم ونوح عشرة قرون على التوحيد ثم طرأ الشرك في قوم نوح ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ (سورة نوح:٢٣-٢٤)، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، والناس في ذلك إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل والضلال، وإن لم توحدهم عبادة الله مزقتهم عبادة الشيطان، وقد حذرهم سبحانه من أن يصدعوا دينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام:١٥٩)، وتوالت الأمم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر:٢٤)، وكل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف:٥٩, ٦٥, ٧٣, ٨٥)، وقد تنكرت الكثرة لوصية ربها وصار كل حزب يكيد للآخر متناسين قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء:٩٢)، ثم بعث رسول الله ﷺ على حين فترة من الرسل وحقق الله على يديه من الخير والصلاح والوحدة والاتحاد ما لم يتحقق لأحد غيره، يقول الشيخ عبد الله الصباغ: «لقد عصم الله هذه الأمة من أن تختلف في أصل عقيدتها وفي مصدر شريعتها، كما اختلف اليهود والنصارى في سالف الأمم... وطالما حذرها الله عزَّ وجلَّ مغبة الفرقة والخلاف والانحراف والتشتت والتمزق، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران:١٠٥)، وهذا هو سر وحدة هذه الأمة في

---

(١) ضوابط شرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية (للمؤلف).

عقيدتهـا وفي مشاعرها وفي أحاسيسـها وعواطفها وعاداتها وتقـاليدها رغم اختلاف الشعـوب وتعدد الأوطان ورغم تألب الأعداء وكيـدهم لها ودسهم لتـفريق صفوفـها وصدها عن سبيل ربها تبارك وتعـالى». قال: «أما الخلاف الذي يكثر وروده في كتب الفقه، فهـو اختلاف في الفروع وهو في جملته لا يفـسد للود قضية كمـا كان خلافًا معـتبرًا مشـيرًا على الدليل المستـمد من كتاب الله وسنة رسـوله ﷺ، وعلى ضوء القواعد الشرعيـة المقررة والمقاييس اللغوية التي تقوم على استقـراء العلماء الثقات من أبناء هذه الأمة المبـاركة» وهذا ما يشهد لـه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (سورة النساء: ٨٣)، أما الخلاف المردود، الخلاف المرفوض فهو الخلاف الذي يقوم على اتبـاع الهوى والتعصب الأعمى من غير بينة ولا حجـة ولا برهان، يريدون بذلك أن يمزقوا وحدة هذه الأمة وأن يفـرقوا هذا الدين شيعًا وأحزابًا وأن يجعلوا منه أهواء متبعة وشهوات مطاعة... فهذا هو الخلاف الذي يرفضـه الإسلام والذي تصدى له علماء المسلمين في القـديم والحديث... لأن أمثال هؤلاء أرادوا أن ينـشروا الفوضى الدينية والفـوضى العلمية وهيهـات أن يجتمع الحق والباطل في قـول واحد أو أن تستوي الأنوار والظلم وصـدق الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (سورة فاطر: ١٩-٢٢).

إننا بحاجة ماسة لمعرفة أدب الخلاف وفقهه وأسبابه وأنواعه، فمنه الخلاف السائغ المعتبـر، ومنه غير المنجبـر وقديمًا قالوا: «وما كل خـلاف جاء معتـبرًا»، ومنه خلاف التنوع وخلاف التضاد، ولما كـان الخلاف كثيرًا ما يترتب عليـه فرقة وبغض وضعف، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**الخلاف شر كله**» لما أتم الصلاة خلف عثمان رضي الله عنه وكان يرى خلاف عثمـان رضي الله عنه؛ لذا ينبغي علينا أن نتعرف على ضوابط الخلاف وآدابه، تحـقيقًا لمعاني الوحدة والأخوة على أسس ودعائم صحيحة.

١ ـ أسباب الخلاف بين العلماء:

لم يكن الخلاف بين علماء الأمة المعتبرين في أصول الدين ومصادره الأصيلة وإنما كان الخلاف في أشياء لا تمس وحدة المسلمين الحقيقية وهو أمر لابد أن يكون. وقد كان الناس في عهده ﷺ يرجعون عند التنازع إليه فيحكم بينهم ويبين لهم الحق، ولكن بعد وفاة الرسول ﷺ اختلفت الأمة في أحكام الشريعة التي لا تقضي على أصول الشريعة، وأصول مصادرها، وهؤلاء الأئمة الثقات المعتبرين، الموثوق بعلمهم وأمانتهم ودينهم ولا يخالفون ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عن عمد وقصد، وإنما يحدث منهم خطأ في أحكام الله تعالى (لا في الأصول) وهذا الخطأ نتيجة الضعف البشري وعدم إحاطته بالأمور، وقد تكلم غير واحد من العلماء في أسباب الخلاف بين الأئمة الأعلام كابن تيمية والشوكاني، وذكر ابن عثيمين بعض هذه الأسباب قال:

■ **ومختصرها في النقاط الآتية:**

١ ـ أن يكون الدليل لم يبلغ هذا المخالف الذي أخطأ في حكمه أو بلغه على وجه لا يطمئن به، وهذا السبب يكون في الصحابة ومن بعدهم، أو ربما يكون الحديث قد بلغ الرجل ولكنه لم يثق بناقله ورأى أنه مخالف، فأخذ ما يراه أقوى منه.

٢ ـ أن يكون الحديث قد بلغه ولكنه نسيه، فكم من إنسان ينسى حديثًا، بل قد ينسى آية.

٣ ـ أن يكون بلغه وفهم منه خلاف المراد.

٤ ـ أن يكون قد بلغه الحديث لكنه منسوخ ولم يعلم بالناسخ، فيكون الحديث صحيحًا والمراد منه مفهومًا ولكنه منسوخ، والعالم لا يعلم بنسخه، فحينئذ له العذر لأن الأصل عدم النسخ حتى يعلم بالناسخ.

٥ ـ أن يعتقد أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو بإجماع والأمر ليس كذلك.

٦ ـ أن يأخذ العالم بحديث ضعيف أو يستدل استدلالا ضعيفًا وهذا كثير جدًا.

وهكذا فأنت ترى أن سبب الخلاف مبني على أمرين رئيسين:

(أ) الاختلاف في ثبوت النص الشرعي.

(ب) الاختلاف في فهم النص الشرعي وفي ذلك يقول شيخ الإسلام: «لكن تنوع الشرع لهؤلاء وانتقاله لم يكن لتنوع نفس الأمر النازل على الرسول ﷺ، ولكن لتنوع أحوالهم، وهو إدراك هذا لما بلغه من الوحي، سمعًا وعقلاً، وعجز الآخر عن إدراك ذلك البلاغ إما سمعًا، لعدم تمكنه من سماع ذلك النص، وإما عقلاً، لعدم فهمه الأولى من النص» اهـ.

وقد قسم البعض الخلاف إلى ثلاثة أنواع: مذموم وممدوح وسائغ.

والأول ـ مثل خلاف أهل الأهواء لأهل العلم.

والثاني ـ مثل خلاف أهل العلم لأهل الأهواء.

والثالث ـ مثل خلاف أهل العلم لأهل العلم.

والعلماء الذين نقصدهم هم الموثوقون علمًا وديانة، ممن ينهج منهج السلف الصالح، لا من هم محسوبون على العلم وليسوا من أهله، لأننا لا نعتبر هؤلاء علماء، ولا نعتبر أقوالهم مما يحفظ من أقوال أهل العلم.

٢ ـ *أنواع الاختلاف الواقع بين المسلمين:*

ينقسم الخلاف الواقع بين المسلمين إلى اختلاف التنوع واختلاف التضاد كما بينه شيخ الإسلام: خلاف تضاد، وخلاف تنوع.

فالأول ـ مثل أن يوجب هذا شيئًا ويحرمه الآخر.

والثاني ـ مثل القراءات التي يجوز كل منها، وأنواع التشهدات والاستفتاحات، وغير ذلك. اهـ.

النوع الأول - اختلاف التنوع

وهو ما لا يكون فيه أحد الأقوال مناقضًا للأقوال الأخرى، بل كل الأقوال صحيحة وأمثلة هذا النوع كثيرة، كمن يفسر الصراط المستقيم بأنه الإسلام أو اتباع النبي ﷺ أو الاستقامة على الكتاب والسنة... بحيث تختلف الألفاظ والصور ولكن تتفق في معناها، ومن ذلك وجوه القراءات كملك ومالك في الفاتحة فكلاهما قراءة متواترة، وكذلك التشهدات الصحيحة الثابتة، كلها جائزة وإنما الاختلاف في اختيار الأفضل، وشبيه بذلك صور الحج التمتع والإفراد والقران؛ فمن حج بأي صورة من هذه الصور الثلاث أجزأته، وكلام العلماء إنما تحقيق الأولى.

ومن هذا الباب الواجب المخير مثل كفارة اليمين قال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (سورة المائدة: ٨٩)، ومن هذا الباب ما وقع من الصحابة في غزوة بني قريظة، فقد صلى البعض في الطريق عندما دخل الوقت، وقال: لم يرد إضاعة الوقت، وقالت طائفة: والله لا نصليها إلا في بني قريظة فصلوها بعد غروب الشمس، وكان النبي ﷺ قد قال لهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»، ولم يعنفهم النبي ﷺ بل صوبهم وصفهم صفًا واحدًا وقاتل بهم الأعداء ومن هذا الباب تنوع الأعمال الصالحة، وسؤال الصحابة عن أفضل الأعمال، ومعلوم أن المقصود من هذا الاجتهاد في نوع خاص من هذه الأعمال مع أداء الواجب في غيرها فأهل الصلاة يصومون رمضان ويؤدون الزكاة المفروضة ويجاهدون في سبيل الله، ولكن جل عملهم ومعظمه في الصلاة فرضًا ونفلاً، وكذا أهل الجهاد فهم يصلون ويصومون ويزكون ولكن معظم عملهم واجتهادهم في الجهاد الواجب والمستحب، وهذه الأعمال الصالحة المتنوعة مطلوبة كلها وتكامل المسلمين فيها هو الذي يأتي بأفضل النتائج.

وقد جاء في مجلة (صوت الدعوة السلفية ص:١٨) ما يلي: «والجماعات الإسلامية المعاصرة فيها شيء من هذا النوع من الاختلاف نعني اختلاف التنوع: فبعض الجماعات والاتجاهات اهتمامها الأكبر طلب العلم بأنواعه من علم بالحديث والرجال والفقه والتفسير والأصول والعقائد وغيرها، وبعض الجماعات اهتمامه بالدعوة والتبليغ، وبعضها الجهاد في سبيل الله كما وقع في أفغانستان، وكما هو الآن في البوسنة وكشمير وغيرها، ومنها ما يكون أكبر اهتمامها التواجد في مراكز التأثير في المجتمع من خلال العمل المنظم كالنقابات ونحوها، والمواقع الاقتصادية، أو في العمل السياسي (كدخول مجلس الشعب) عند من يرى جوازه ومشروعيته... ولاشك أن هذا التنوع مطلوب وليس بمذموم بل تحقيق التكامل فيه بين الاتجاهات الإسلامية هو ما يحقق للصحوة كل خير».

تحذيرات حتى ننتفع باختلاف التنوع:

لابد لتحقيق أكبر الفائدة من هذا النوع من الاختلاف من تجنب محاذير وأمراض ظهرت في العمل الإسلامي المعاصر، بل ظهرت فيما سبق من العصور ونبه عليها العلماء، فمن هذه المحاذير:

١ - لا يجوز أن يكون انشغال الأفراد والجماعات بما يرونه أفضل الأعمال سببًا لتركهم الواجبات الأخرى: فلابد من الحرص على الجمع بين المصالح، وتقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى.

وقد قال أبو بكر لعمر ﭬ: واعلم أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ولا تعارض بين الجهاد وتأدية الصلوات المفروضة وصيام رمضان... وأن يكون المصلي مزكيًا صائمًا مجاهدًا جهاد فرض العين، ولا يجوز أن يكون الاشتغال بعلم الحديث مثلاً سبب للجهل بالعقيدة أو الحلال والحرام أو ما لا يسع المسلم جهله من العلوم الواجبة كالأمور التي تستصلح بها القلوب والشبهات ودفعها والفرائض ما

تصح به وما يبطل به، كما لا يجوز للإنسان أن ينشغل بطلب العلم إذا داهم العدو بلده وتعين الجهاد عليه، لكل مقام مقال، وكذلك إذا رأينا المعروف قد ترك والمنكر قد ارتكب وعندنا المقدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يقم أحد بذلك فلا يجوز الاعتذار بطلب العلم أو تربية النفس أولاً، فلابد من تحقيق التوازن في بناء الأفراد والجماعات، وقد رأينا المضرة الكبيرة التي حدثت وسط كثير من المجاهدين الأفغان بسبب إهمال معاني التوحيد وعدم الرجوع للكتاب والسنة بفهم سلف الأمة. ولكي يتم تحقيق التكامل المنشود في هذا النوع من الاختلاف، ترى الدعوة السلفية بالإسكندرية أن تحدد بوضوح القدر الأدنى علمًا وعملاً للفرد والجماعة في مكانها وزمانها، وهو فروض الإيمان وفروض الكفاية التي قد تعينت فلا يسع أحد تركها طالما قدر عليها. وأما فروض الكفاية التي وجد من يقوم بها من الجماعات الإسلامية المتعددة فالتكامل والتعاون رغم الاختلاف المنهجي الذي غالبه من اختلاف التضاد هو الواجب الشرعي فلابد لنا مثلاً من شد أزر المجاهدين في البوسنة وكشمير وغيرها، وإن كان عندهم بعض البدع والمنكرات طالما بقوا في دائرة الإسلام. ولابد لنا من التعاون والتعاضد مع من يكفلون الأيتام والأرامل والمحتاجين، وإن رأينا تقصيرهم في طلب العلم، ولابد لنا من تأييد التواجد الإسلامي في نواحي الحياة المختلفة طالما كان منضبطًا بالشرع، ولو كان لنا من الملاحظات على منهج المتواجدين.

٢ - **المحذور الثاني:** الذي لابد من تجنبه لتحقيق هذا التيامل المنشود بين الاتجاهات الإسلامية: هو أن يربى الأفراد داخل هذه الجماعات على تحقير الأعمال والعلوم الأخرى، التي ليست لجماعته اهتمام كبير بها في سبيل حفز هممهم على تنفيذ ما يطلب منهم، ولاشك أن هذا التحقير لأعمال وعلوم الآخرين بدلاً من الشعور بأهمية كل منها هو الذي يولد الضغائن والبغضاء والأحقاد، وإذا أضيف إلى ذلك السخرية من الآخرين كان البلاء أشد ودخل مسلسل الغيبة والنميمة والاتهام الباطل، ويكفينا في علاج هذا لو التزمنا بقول النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه

المسلم»، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ (سورة الحجرات: ١١)، ولقد ربى رسول الله ﷺ صحابته على عدم تحقير أي عمل صالح يصدر من أي مسلم أو مسلمة، بل ربما كان فيه نجاته، ألم نعلم حديث النبي ﷺ أن بغية من بغايا بني إسرائيل دخلت الجنة في كلب سقته، ألم نعلم من أسماء الله الشكور الذي يشكر القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، ألم نعلم فضائل الأعمال التي تقوم بها الاتجاهات الإسلامية على اختلافها من الكتاب والسنة من فضيلة لطلب العلم وفضل الدعوة وفضل العبادة والتزكية وفضل الجهاد وفضل النفقة في سبيل الله وفضل نصرة الدين! فكيف يتسنى لنا بعد ذلك تحقير شيء من هذه الأعمال والاستهزاء بأصحابها والتهوين من أهمية هذه الأعمال والعلوم! إن النظرة المريضة بالاستعلاء كما تذكر الدعوة السلفية على أصحاب العلوم والأعمال الصالحة الأخرى التي لا تهتم بها الجماعة التي ينتمي إليها الفرد باعتبار أن الأولويات التي تحددها جماعة هي وحدها الحائزة على الصواب لابد أن تختفي في ما بيننا نحن أبناء الصحوة الإسلامية، وإذا جهل علينا أحد بالتحقير من جهدنا وعلمنا لم نقابله بتحقيره هو وعمله، ولا بذكر مثالبه وعيوبه، بل نذكِّره بفضيلة ما نعمله وفضيلة ما يعمله، وأن كلا العملين مطلوب فلا يجوز أن يسمح لطالب الفقه أن يحقر طالب الحديث، ولا أن يحقر طلاب العلم من خرج للدعوة، ولا أن يجعل الخارج للجهاد عمل الآخرين هباءً منثوراً لا قيمة له، ولا أن يحقر الداعي أهمية طلب العلم، ولا أن يكون الساعي على الأرملة والمسكين مستشعراً أن صلاح الأمة بعمل دون عمل من سواه، بل ننشر روح المحبة على الخير ومدح صاحبه، أفلا نحب ما يحب الله ورسوله ﷺ؟ أفنحزن إذا وفق الله عبداً لطاعة لم نقم بها نحن؟ أليس أقل واجب أن أحبه على طاعته وأدعو له بالتوفيق وأرجو له تمام الخير؟ ولا يجوز لنا أن نمن على أحد بعلمنا، بل لله المنة علينا أن هدانا للإسلام ووفقنا للعمل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة الحجرات: ١٧).

٣- **أما المحذور الثالث:** الذي تراه الدعوة السلفية والذي يجب تجنبه في هذا النوع من الاختلاف فهو عقد الولاء والبراء على هذه الأعمال المتنوعة والأولويات المختلفة وتعديه على أصل الولاء لدين الله والمنهج الإسلامي الصحيح منهج أهل السنة والجماعة بشموله وتوازنه، فنجد كثيرًا من الجماعات الإسلامية توالي وتعادي على ما جعلته من أولويات عملها، ونجد أفرادها يتخذون موقفًا ممن رأوا منه اهتمامًا بنوع آخر غير ما تعودوا عليه والعلاج هنا يكمن في تعميق الولاء على الكتاب والسنة - بفهم سلف الأمة - منهج أهل السنة والجماعة وليس التعصب للأسماء ولا الأعمال ولا العلوم، بل نحب الطاعة من كل من أطاع الله ونواليه عليها كما نوالي غيره على طاعته الأخرى ونبغض المعصية من كل من عصى الله ونبرأ إلى الله منها سواء عمل صاحبها ما نراه من أولويات عملنا أو غيره، فمثلاً لو رأينا نحن السلفيين طالب علم منا قد أتى معصية من المعاصي فلابد أن يبغض ذلك منه ونبرأ إلى الله من هذا العمل ولا يكون همنا التهوين من خطأه في حين أنه إذا ارتكب هذه المعصية من ينتسب إلى جماعة أخرى لم نلحظ له خيرًا ولا طاعة عملها تكون سببًا لمغفرة الله له، والميزان في ذلك لابد أن يكون واحدًا منضبطًا بضابط الطاعة والمعصية والخير والشر والسنة والبدعة كما بينتها أدلة الكتاب والسنة والإجماع.

النوع الثاني - اختلاف التضاد

وهو أن يكون كل قول من أقوال المختلفين يضاد الآخر ويحكم بخطئه أو بطلانه، وهو يكون في الشيء الواحد يقول البعض بحرمته والبعض بحله - من جهة الحكم لا من جهة الفتوى، ووقوع هذا النوع من الاختلاف في المال والعقائد والأديان وبين المعلوم بالضرورة والمجمع عليه بين المسلمين ولم يخالف في ذلك إلا

الزنادقة المنافقين وللأسف ما أكثرهم في زماننا ممن يقول إن الأديان كلها حق وصواب وأنه لا فرق بين يهودي ونصراني ومسلم عنده، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا أدخله الله النار»(١).

ومن اختلاف التضاد قول البعض بإباحة هذا الغناء الفاحش الماجن والذي يصدر أحيانًا من نساء وبمصاحبة الموسيقى وسط اختلاط الرجال بالنساء فهذا لا ينبغي أن يختلف في تحريمه، وكذلك القول الساقط ببدعية النقاب والذي يتصادم مع الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة، فقد أجمع العلماء على مشروعية تغطية الوجه والكفين وإنما اختلف العلماء في هل هو واجب أم مستحب؟، فالخروج بقول ثالث يعد بدعة، وقد ذكر ابن رسلان اتفاق العلماء أنه لو كثر الفساق أو خيفت الفتنة وجب على المرأة تغطية الوجه والكفين بحضرة الرجال الأجانب.

المصيب واحد:

ورد في الحديث الصحيح الثابت من طرق أن «الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» (رواه البخاري وغيره). قال شيخ الإسلام: «فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء، الموافقين لسلف الأمة، على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل... قال: وإذا كان هذا في دقة الفروع، فما الظن بما تنازعوا فيه من الأصول؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين، ولا بين العقلاء في أن المصيب في نفس الأمر واحد، وإنما تنازعوا في المخطىء، هل يغفر له، أو لا يغفر له، وهل يكون مصيبًا بمعنى أداء الواجب وسقوط اللوم» اهـ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

قال الشوكاني عن الحديث الذي ذكرناه: «فهذا الحديث يفيدك أن الحق واحد، وأن بعض المجتهدين يوافقه، فيقال له مصيب ويستحق أجرين، وبعض المجتهدين يخالف، ويقال له مخطيء، واستحقاق الأجر لا يستلزم كونه مصيبًا، واسم الخطأ عليه لا يستلزم أن يكون له أجر من قال: «كل مجتهد مصيب»، وجعل الحق متعددًا بتعدد المجتهدين فقد أخطأ خطأ بينًا، وخالف الصواب مخالفة ظاهرة» اهـ.

فوقوع اختلاف التضاد بين المسلمين وأن الحق واحد في قول أحد المجتهدين ومن خالفه فهو مخطيء في الأصول والفروع، في العقائد والأعمال، في الأمور العلمية والأمور العملية هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ﷺ وأجمع عليه أئمة العلم، وقد استدل ابن قدامة على ذلك باستدلالات كثيرة منها قول أبي بكر ﷺ في الكلالة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان، وقول عائشة: أبلغني زيد بن أرقم أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب... إلى أن قال: وهذا اتفاق منهم على أن المجتهد يخطيء.

وخلاف التضاد ينقسم إلى نوعين:

١ - خلاف سائغ غير مذموم.

٢ - خلاف غير سائغ مذموم.

١ - الخلاف السائغ غير المذموم:

(أ) ضوابط الخلاف السائغ[(١)]:

١ - **خفاء الدليل الراجح مع قصد الحق:** كما قال شيخ الإسلام: «إنه إذا كان في المسألة نص خفي على بعض المجتهدين، وتعذر عليهم علمه، ولو علم به، لوجب عليه اتباعه، ولكنه لما خفى عليه اتبع النص الآخر، وهو منسوخ أو مخصوص».

٢ - **ما كان من المسائل الدقيقة:** وهي التي يكثر فيها احتمال الخطأ، وقل من يسلم منه، حتى من فضلاء الأمة، كما قال شيخ الإسلام: «ولاريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر الأمة.

٣ - **عدم مخالفة النص الشرعي أو الإجماع:** وهو أن لا يكون في المسألة نص ولا إجماع، فإذا اجتهد الفقيه فيها وبذل فيها وسعه، فإن خالف غيره من العلماء سواء أكانوا سابقين أو معاصرين، فالخلاف يكون سائغًا، كما نصر ذلك شيخ الإسلام.

٤ - **لا يكون الخلاف سائغًا إلا من أهل العلم والاجتهاد:** وفي هذا الباب يقول شيخ الإسلام، بعد أن ذكر أنواع المجتهدين: «بخلاف الذين أفتوا المشجوج في البرد بوجوب الغسل، فاغتسل فمات، فإنه قال: «قتلوه قاتلهم الله، هلا سألوه إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال» فإن هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد فإذ لم يكونوا من أهل العلم» أهـ.

٥ - **لا يكون الخلاف سائغًا مع البغي:** وذلك أن البغي يعارض قصد الحق الذي هو من لوازم الخلاف السائغ قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ

---

(١) لأبي بكر بن عبد العزيز البغدادي ضمن بحثه بعنوان «ضوابط وآداب الخلاف» وقد ورد في مجلة الحكمة.

الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (سورة آل عمران:١٩)، قال شيخ الإسلام في كلامه في الآية: «والبغي إما تضييع للحق، وإما تعد للحق، فهو إما ترك واجب، وإما فعل محرم، فعلم أنه موجب التفرق هو ذلك» أهـ.

٦ـ **لا يكون الخلاف سائغًا مع ظهور الأدلة:** وذلك أن الدليل الظاهر يحسم مادة الخلاف، فإن كان الخلاف سائغًا قبل ظهور الدليل، فإنه لا يكون كذلك بعد ظهوره، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام: «فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول عالم» أهـ. وقال: «ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف شخص الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه» أهـ.

لا يمكن توحيد الأمة على قول واحد في كل المسائل:

الخلاف واقع بكل أنواعه، فالناس منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر والعالم والجاهل والمحسن والمسيء، ولو نظرنا إلى أفهام العباد وقدراتهم لوجدناها متفاوته، وسبب الخلاف لا يقتصر من حيث الأصل إلى النص المحتمل والفهم المتفاوت بل يتعدى ذلك إلى أسباب الهوى والتعصب والتعلق بالشبهات. . . وهي الأخرى متفاوتة ولكنها موجودة قائمة وأحيانًا لا يزيلها مجرد البيان والتوضيح إذ أن الإذعان والإيمان متفاوت بين الناس، وحسبنا أن نفرق بين الخلاف السائغ المعتبر (الذي لا يفسد للود قضية) وبين الخلاف الذي لا يعتبر كخلافنا مع طوائف الضلالة في معتقداتها الفاسدة وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع إلا أن حرصنا على تحقيق معاني الوحدة والاتحاد وسعينا لتوضيح المفاهيم والعمل على رفع أسباب الشقاق والفرقة طالما أن الأمر في استطاعتنا بألا يجعلنا ننسى أن الراجح عند فلان قد يكون مرجوحًا في نفس الأمر أو عند الآخر، وأن اجتهاد عالم في مسألة، ليس هو

نهاية ولن يلغيها اجتهاد غيره، وأن العالم لا يترك اجتهاده لاجتهاد غيره إلا إذا تبين له خطؤه، ولذلك فإن من يهدف إلى رفع الخلاف في مثل هذه المسائل الاجتهادية يحصر سيئتين: الأولى ـ وضع الشيء في غير محله، وفي ذلك «للجهود المطلوب حفظها». والثانية ـ توسيع الخلاف كما يقول أبو بكر بن عبد العزيز البغدادي.

وقد روى ابن عساكر أن أبا جعفر المنصور سأل الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أن يحمل الناس على كتابه الموطأ فقال له: لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت اليوم أقاويل وسمعوا أحاديث وروايات وأخذ كل قوم منهم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم.

ولذلك فلا داعي لضيق الصدور وتحميل الأمور ما لا تحتمل فقضايا الخلاف السائغ وجدت بين أهل العلم من أهل السنة واتباع السلف، وليست هي من قضايا البغض في الله والمعاداة في الله، ولذلك جاء في مجلة الدعوة السلفية. وكذلك معرفة هذه الأسباب (أسباب الخلاف السائغ)، وأنه لا سبيل لإزالتها يجعلنا لا نحاول السير في طريق يتمناه البعض لقلة فهمه لهذه المسائل ولقراءته لواحد من أهل العلم أو تلقيه منه دون غيره ألا وهو محاولة توحيد الأمة في كل المسائل على قول واحد، قد يتعمق هذا لدى بعض المبتدئين من طلاب العلم حتى يجد كثيراً من العلماء خاصة المعاصرين ينتصر لقول مضعفًا ما سواه، بل ربما لا يشير إلى الخلاف أصلاً فضلاً عن الإشارة إلى درجته، وهل هو سائغ أم غير سائغ ولاشك أن هذا مسلك ما سلكه أحد من أئمة العلم، بل المشهور عنهم رده على من طلبه منهم. كما فعل الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور.

عدم الاحتجاج بالخلاف:

الناس طرفي نقيض، فبينما لا يشير البعض إلى الخلاف أصلاً، ولا يعترف به (سائغاً أم غير سائغ)، رأينا البعض يحتج بالخلاف حتى وإن كان ساقطًا فاسدًا الاعتبار، وجماع القول هو مراعاة الخلاف لا الاحتجاج به.

وفي ذلك يقول الشاطبي: وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل محدودًا في جميع الإباحة، ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان، الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفًا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف، فإن له نظرًا آخر. . . قال: وهو عين الخطأ على الشريعة، حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمدًا، وما ليس بحجة حجة. . .

ثم قال: حكى الخطابي، في مسألة البتع المذكور في الحديث عن بعض الناس، أنه قال: إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم الخمر العنب، واختلفوا فيما سواه، اجتمعوا على تحريمه وألغوا ما سواه. قال الخطابي: وهذا خطأ فاحش. وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، قال الخطابي: ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل، للزم مثله في الربا، والصرف، ونكاح المتعة لأن الأمة قد اختلفت فيه قال (الخطابي): وليس الاختلاف حجة، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين. اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «مع أن تعليل الأحكام بالخلاف علة باطلة في نفس الأمر، فإن الخلاف ليس من الصفات التي يعلق الشارع بها الأحكام في نفس الأمر، فإن ذلك وصف حادث بعد النبي ﷺ ولكن يسلكه من لم يكن عالمًا بالأدلة الشرعية في نفس الأمر لطلب الاحتياط» اهـ.

أمثلة للاختلاف السائغ:

الخلاف له مراتب متفاوتة، ولابد من اعتبار ذلك إذا أردنا حسر الخلاف أو تقويضه يقول ابن تيمية: «فالمسلمون، سنيهم، وبدعيهم، متفقون على وجوب الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة ولا يعذب، وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله، فهو كافر ،وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الإيمان، التي اتفق عليها المنتسبون إلى الإسلام والإيمان، فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد أو بعض معاني بعض الأسماء أمر ضعيف بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، مع أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة، مشهود عليهم بالضلالة، ليس لهم في الأمة لسان صدق، ولا قبول عام كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم وإنما تنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله» اهـ.

■ **واليك بعض أمثلة الخلاف السائغ:**

١ - في الأمور الاعتقادية والعلمية:

■ ذكر ابن تيمية من ذلك الخلاف في رؤية النبي ﷺ ربه، والخلاف في تفضيل عثمان على عليٍّ، ومن هذا النوع أيضاً الخلاف في تفسير بعض آيات القرآن، ومنها ما يتعلق بالأسماء والصفات كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة:١١٥)، هل هذه من آيات الصفات أم لا؟ وبالجملة فإن القرآن كلام الله وهو صفة من صفاته فالاختلاف في فهم معانيه داخل في الأمور العلمية الاعتقادية وأكثره خلاف سائغ.

■ منها اختلاف العلماء في عصمة الرسل من الصغائر غير المزرية هو أمر اعتقادي والخلاف فيه مشهور، ومنها اختلافهم في نبوة الخضر هل هو نبي أم لا، وفي مريم هل هي نبيه أم لا، وقد قال بكل واحد من القولين فريق من علماء أهل السنة.

■ ومنها الخلاف في رؤية الله في الآخرة، هل هي خاصة بالمؤمنين أمر يراه أهل الموقف جميعًا ثم يحجب عن الكفار، أم يراه المؤمنون والمنافقون ثم يحجب المنافقون على ثلاثة أقوال معروفة، وإنما انعقد إجماع أهل السنة على رؤية المؤمنين ربهم.

■ ومنها الخلاف في تسمية أفعال الرب مع الإجماع على أنها ليست مخلوقة وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين عند من أجاز ذلك كالإمام البخاري وابن تيمية وابن القيم رحمهم الله.

■ ومنها الخلاف في كثير من مسائل التكفير، وهي مسألة اعتقادية أصلاً وينبني عليها كثير من الأحكام والولاء والبراء وغيرها، ومع ذلك فقد ثبت فيها الاختلاف السائغ باتفاق أهل العلم بحيث لا يضلل المخالف كمسائل تكفير تارة الصلاة والمباني الباقية عدا الشهادتين تكاسلاً، فمن رأي كفر تارك الصلاة كالإمام أحمد، لا يقول عمن لم يكفره (كالإمام الشافعي) أنه لا يكفر الكافر فهو كافر أو ضال أو مبتدع، بل بإجماعهم لا يضلل ولا يبدع فضلاً عن تكفيره، وكذا تكفير بعض أهل البدع كالخوارج والرافضة والمعتزلة فالجمهور على عدم تكفيرهم، ولكن القول بتكفيرهم سائغ إذا قاله عالم باجتهاده ومن راجع كتب الردة من كتب الفقه يجد كثيرًا من هذا النوع.

■ ومن هذا النوع الأخير الاختلاف في تحقيق المناط في قضايا تكفير الأعيان بناءً عل استيفاء شروط التكفير كالعقل والبلوغ وإقامة الحجة وانتفاء موانعه كالجنون والصغر والجهل الناشىء عن عدم بلوغ الحجة الرسالية والخطأ والنسيان والإكراه

والتأويل، فهذه الموانع كأحكام عامة لا نعرف فيها عن علماء السلف اختلافًا في اعتبارها، ونرى أن الخلاف في عدم اعتبارها أصلاً ليس سائغًا، ولكن الخلاف السائغ في تطبيق هذه الأمور على الواقع فعالم مثلاً يرى أن هذا الشخص الذي ارتكب الشرك الأكبر جاهل أو متأول تأويلاً يمنع من تكفيره بعينه لأنه لم يطلع على أن أحدًا أقام الحجة عليه بينما عالم آخر يعلم أنه قد أقام عليه الحجة وأزال شبهته ولم يبق له عذر فقال بكفره بعينه فلا ينبغي أن ينصب هذا خلافًا بينهما لا تتسع له الصدور خاصة من أتباعهما.

٢ ـ *في الأمور العملية والفقهية:*

وهذه أكثر من أن تحصى، لكننا نشير إلى بعض المسائل التي تعم بها البلوى مما قد يسبب شقاقًا ونزاعًا بين أبناء الصحوة:

■ ومنها التوسل في الدعاء إلى الله بالحق والجاه وبذوات الصالحين كمن يقول: «يا رب بحق فلان أو أسألك بفلان يعني بذاته (مع سلامة عقيدته أن الله وحده هو المالك الحق لكل ما في هذا الكون، ومع سلامته من سؤال الميت أو الغائب، فضلاً عن دعائه، فدعاؤه من دون الله شرك أكبر والعياذ بالله). فهذا النوع من التوسل (وليس كل أنواعه) خلاف سائغ، وإن كان الراجح أنه غير مشروع إلا أن الخلاف فيه سائغ أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب.

■ ومنها الاختلاف في كثير من أمور الوضوء والصلاة كوجوب المضمضة والاستنشاق أو استحبابهما، ووجوب الترتيب في الوضوء أو استحبابه، ووضع اليمنى على اليسرى على الصدر بعد الركوع وإرسالهما، والنزول على الركبتين أم على اليدين في السجود، وقراءة الفاتحة خلف الإمام خاصة في الجهرية والاعتداد بالركوع أم اشتراط قراءة الفاتحة في صلاة المسبوق، وجلسة الاستراحة وتركها، وبطلان الصلاة في المساجد التي بنيت على القبور أم كراهيتها تحريمًا مع الإجزاء،

ووجوب قضاء الفوائت المتروكة بدون عذر أو عدم جواز قضائها أصلاً، وصلاة النفل الذي له سبب في أوقات الكراهة كتحية المسجد، وغير ذلك كثير.

■ ومنها الاختلاف في مسألة اختلاف المطالع في رؤية الهلال، وهل لكل بلد رؤيتهم أم يلزم جميع البلاد رؤية بلد واحد.

■ ومنها الخلاف في وجوب ستر المرأة وجهها عن الرجال الأجانب أم استحبابه فقط (أما القول ببدعته فهو بدعة بلاشك).

■ ومنها الخلاف في التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) هل هو داخل في المنهي عنه أم لا؟.

■ ومع الخلاف في أكل اللحوم المستوردة من دول أوربا وأمريكا (لا من الدول الشيوعية) هل يجوز أكلها أم يحرم، وهذا النوع من الخلاف مسائله أكثر من تحصى في الفروع.

تنبيهات هامة

الأول - من تتبع رخص المذاهب تجمع فيه الشر كله

يجب التحري لمعرفة الصواب عند الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٩).

قال شيخ الإسلام: «وإذا اشتبه الأمر، استبان المؤمن، حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها (أي الاستبانة) كان عاصيًا» اهـ.

فليس معنى أن الخلاف في المسألة خلاف سائغ أنه يجوز لكل واحد أن ينتقي بالتشهي أيًا من القولين دون اجتهاد فهذا سبيل إلى الزندقة والانحلال، وقد أجمع العلماء فيما نقل أبو عمر بن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص: ٣٦٠): «أنه لا يجوز تتبع رخص العلماء فضلاً عن الزلات والسقطات» وقد رأت الدعوة السلفية أن ما يفعله كثير من أهل زماننا في مسائل الخلاف السائغ وغير السائغ بأخذ ما يشتهي، بل يفعله كثير من المنتسبين إلى العلم.

ويفتي البعض بجواز التوفيق بين المذاهب لا بحسب الأدلة والاجتهاد بل بمجرد موافقة ما يظنونه مصلحة أو تيسيرًا على الناس أو أن الرسول ﷺ لم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وهذا من الجهل العظيم المخالف للإجماع القديم كما نقله أبو عمر بن عبد البر، فإن اختيار الأيسر هو في الأمور الاختيارية، أما ما كان فيه إثم وحرام وحلال وواجب ومندوب فلابد من الترجيح والاجتهاد على حسب درجة كل واحد إذ لا يكلف العامي المقلد العاجز بما يكلف به العالم المجتهد أو طالب العلم.

قال أبو عمر بن عبد البر: الاختلاف ليس بحجة عند أهل علمته من فقهاء الأمة إلا من لا بصر له ولا معرفة عنده ولا حجة في قوله. قال المزني: يقال لمن جوز الاختلاف وزعم أن العالمين إذا اجتهدوا في الحادثة فقال أحدهما حلال والآخر حرام، فقد أرى كل واحد منهما جهده وما كلف به وهو في اجتهاده مصيب الحق، أبأصل قلت هذا أم بقياس؟ فإن قال بأصل، قيل كيف يكون أصلاً والكتاب أصل ينفي الخلاف؟ وإن قال بقياس، قيل كيف تكون الأصول تنفي الخلاف ويجوز لك أن تقيس عليها جواز الخلاف؟ هذا ما لا يجوزه عاقل فضلاً عن عالم، ويقال له أليس إذا جئت حديثان مختلفان عن رسول الله ﷺ في معنى واحد أحله أحدهما وحرمه أحدهما، وفي كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ دليل على إثبات أحدهما ونفي الآخر أليس يثبت الذي يثبته الدليل ويبطل الآخر ويبطل الحكم به؟ فإن خفى الدليل على أحدهما وأشكل الأمر فيهما وجب الوقوف، فإذا قال نعم، ولابد من نعم وإلا خالف جماعة العلماء، قيل له فلم لا تصنع هذا برأي العالمين المختلفين فيثبت منهما ما يثبته الدليل ويبطل ما أبطله الدليل.

الثاني - هل اختلاف الأمة رحمة؟

يقول الإمام الخطابي: والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام:

الأول - في إثبات الصانع ووحدانيته، وإنكاره كفر.

ثانيًا - في صفاته ومشيئته، وإنكارهما بدعة.

ثالثًا - في أحكام الفروع المحتملة وجوهًا، فهذا جعله الله رحمة وكرامة، وهو المراد بحديث: «اختلاف أمتي رحمة» الذي رواه البيهقي في المدخل بسند منقطع، ولما أراد هارون الرشيد حمل الأمة فقه الإمام مالك، قال له: يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة، كل يتبع ما صح عنده، وكل على

هدى، وكل يريد الله تعالى، ومن قبل قال عمر بن عبد العزيز: ما سرني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم إن لم يختلفوا لم تكن رخصة، وقال يحيى بن سعيد: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون فيحل هذا، ويحرم هذا فلا يعيب هذا على هذا.

ويقول ابن تيمية: إن ما فيه خلاف إن كان الحاكم المخالف يخالف سنة أو إجماعًا وجب الإنكار عليه، وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم، وإن كانت المسألة ليس فيها سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فإنه لا ينكر على المخالف لرأي المنكر ومذهبه سواء كان المخالف مجتهدًا أو مقلدًا.

وقال القاسم بن محمد: لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى فيه سعة ورأى أن خيرًا منه قد عمله، وليس معنى ما نقلناه عن بعض أهل العلم أن الاختلاف نفسه رحمة أو أنه مطلوب شرعًا، وإنما المعنى أن أصحاب هذا الاختلاف لا يعذبون طالما بذلوا وسعهم في معرفة الحق كل حسب علمه وقدرته، وأصحاب هذا الاختلاف مرحومون، بمعنى أن من اجتهد في الوصول للحق ولم يقصر فقد أدى ما عليه وإن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران كما دل الحديث الصحيح، والحق واحد لا يتعدد، فالمطلوب شرعًا الاتفاق ما أمكن والبحث عن الحق قدر الطاقة وإلا فالخلاف شر كله كما قال ابن مسعود رضي الله عنه، والكتاب والسنة يذمان الاختلاف والواجب علينا أن نميز بين ما يسعنا وما لا يسعنا فيه الخلاف وبين ما يوصف بالرحمة وما يوصف بالمصيبة والثقم، وبين ما توحدت به الأمة مع وجوده، وبين ما هو من أعظم أسباب تمزق الأمة وضعفها.

الثالث ـ لا يجوز مخالفة نصوص الشريعة بآراء الرجال

كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «**أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟! يوشك أن تتنزل عليكم حجارة من السماء**».

وكان الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس. وقال لرجل سأله عن مسألة فأجابه فيها بحديث فقال له: أتقول به يا أبا عبد الله؟ فقال: أتراني خرجت من الكنيسة؟ أتراني أشد في وسطي زنارًا، قال رسول الله ﷺ ولا أقول به!.

نعم على العين والرأس، وهكذا فكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وقد كان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يقول: إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ﷺ خذوا بقول رسول الله ﷺ واضربوا بقولي عرض الحائط، فإذا استبانت لك سنة رسول الله ﷺ فقل بها ولا تعارضها بأقوال صاحب الطريقة والمذهب المخالفة ولا تصادمها بأقوال العلماء المجردة عن الدليل. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦)، وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة النور: ٦٣).

أهمية إدراك وجود هذا الاختلاف:

الكثير من طلاب العلم وأبناء الصحوة الإسلامية لا ينتبهون لوجود هذا النوع من الاختلاف (الخلاف السائغ) ويظنون أن كل مسائل الاختلاف بين العلماء مما يُعادي ولأجله يبغض المخالف له، وهذا قد يوجد من أسباب الفساد والضغائن والتعادي ما لا يعلمه إلا الله. إدراك وجود هذا النوع من الاختلاف وعدم إمكانية إزالته يوسع صدور المسلمين لاحتماله، وليكن شعارنا في ذلك يسعنا ما وسع السلف الصالح،

ولا يسعنا ما لم يسعهم، فإذا بقيت المودة والألفة بين السلف مع وجود هذا الاختلاف فليكن هذا حالنا أيضًا ولنرفق بالمخالف لنا ولا يزيد إنكارنا على مجرد المذاكرة العلمية وبنيان الأدلة التي نرى رجحانها، ولا نسمح للشيطان بإلقاء بذور العداوة عبر سبل الاتهامات بالجهل والضلال أو الانحراف عن منهج السنة وطريقة السلف وليكن الحوار الهادىء الذي نلتزم فيه بما أدبنا به العلماء وكما نعرفه من طرقهم في البحث والمناظرة والرد الرفيق على المخالف، ليكن هذا الحوار هو الأسلوب الذي ينتهجه أبناء الصحوة في خلافاتهم حول المسائل التي يسوغ لهم فيها الاختلاف والاجتهاد، وليبذل كل منا جهده في معرفة الحق والعمل به وليعذر الآخرين داعيًا للجميع بالتوفيق لما يحب الله ويرضاه والقبول عنده سبحانه.

■ *أمثلة للخلاف غير السائغ:*

وهو يشمل الخلاف في مسائل اعتقادية وفي مسائل عملية، وإن كان أكثر الخلاف غير السائغ هو في مسائل الاعتقاد.

أمثلة للخلاف غير السائغ في المسائل الاعتقادية:

أولاً ـ ما يكفر فيه المخالف باتفاق أهل السنة:

وهي الفرق المخالفة لأصول الإيمان إجمالاً وتفصيلاً، وللأمور المعلومة من الدين بالضرورة التي انتشر علمها بين المسلمين على مر العصور ومن هؤلاء.

١ ـ **غلاة الجهمية والفلاسفة:** المصرحون بنفي صريح القرآن العظيم وإنكار أسماء الله وصفاته جملة كمن يقول: لم يكلم الله موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، وكالفلاسفة القائلين: «بقدم العالم وعدم بعث الأجساد».

٢ ـ **غلاة القدرية:** نفاة العلم الإلهي المصرحون بنفي القدر بدرجاته كلها فيقولون: لا قدر وأن الأمر أنف، وأن الله لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها وكذا الإباحية من

الجبرية الذين يحلون المحرمات المعلوم تحريمها بالضرورة ويرونها كالطاعات تمامًا لانعدام الإرادة البشرية بالكلية.

٣- **غلاة الصوفية:** الذين يصرحون بالحلول والاتحاد (وهي عقيدة أخبث من عقيدة النصارى).

أو الذين يصرحون بعبادة غير الله من الأولياء أو غيرهم أو يقولون بأن الكون يدبره مع الله غيره، يملكون الضرر والنفع والرزق وغير ذلك.

٤- **الإباحية:** الذين يستحلون المحرمات وترك الواجبات كالصلوات الخمس وصوم رمضان سواء كان بسبب الغلو في الإرجاء كالجهمية، أو الغلو في الجبر والقول بسقوط الشرائع وعدم التكليف لمن شهد الحقيقة!!.

٥- **غلاة الرافضة:** الذين يعتقدون الألوهية في غير الله كالطائفة النصيرية العلويين الذين يعتقدون ألوهية علي، والدروز القائلين بألوهية الحاكم بأمر الله وسائر فرق الباطنية الاسماعيلية والبهرة والعبيديين الذين أسسوا ما عرف بالدولة الفاطمية، والقرامطة، وكذلك من يعتقد في نبوة أحد بعد النبي ﷺ كالبهائية والقاديانية، وكذلك من يرمي عائشة بالإفك أو يعتقد بتحريف القرآن، وكذلك من يرفعون الأئمة والأولياء فوق الأنبياء والمرسلين.

٦- من يعتقد أن الشريعة الإسلامية غير صالحة إما مطلقًا أو لهذا الزمان ويفضل عليها شرائع البشر الوضعية أو يساويها بها أو يجوزها أو يلزم الكافة بها ويحرم شرع الله تعالى أو يجحد حكم الله سبحانه وينكره من أصله.

٧- من يعتقد بمساواة الملل وعدم كفر اليهود والنصارى وغيرهم.

تنبيه هام جدًا يتعلق بتكفير المعين:

قد يكون القول كفرًا أو يطلق القول بتكفير قائله، فيقال: من فعل كذا فهو كافر ومن قال كذا فهو كافر، أما الشخص المعين فلا يكفر حتى تقام عليه الحجة الرسالية، بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مطاع، فلعل هذا الشخص حديث الإسلام ونشأ ببادية بعيدة أو عرضت له شبهات يعذره الله بها أو عنده تأويل يمنع تكفيره كما قال النووي وابن تيمية وغيرهم من العلماء، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات كما في قصة النوبية التي زنت مع مرعوش بدرهمين، ولم يقم عمر ﵁ الحد عليها لما رآها تستهل بزناها وقال له عثمان ﵁: «ليس الحد إلا على من علم» - أقول إذا كان الأمر كذلك وأولى ثم أولى أن نحتاط في أمر التكفير وخصوصًا مع غربة الحال وانحراف الأوضاع.

وقد كان الإمام أحمد يقول لعلماء وقضاة الجهمية: أنا لو قلت قولكم لكفرت ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جهال، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول: أنا لو رأيت الرجل يسجد عند قبر عبد القادر الجيلاني أو السيد البدوي لم أكفره حتى تقام عليه الحجة الرسالية، التي يكفر مخالفها، إن الناس قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا يتأكد معه أن يحيى من حيَّ عن بينة وأن يهلك من هلك أيضًا عن بينة ثم المعلوم من الدين بالضرورة يتفاوت زمانًا ومكانًا وشخصًا، ولذلك لابد من حيطة وحذر، فمن قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كذلك وإلا حار عليه كما جاء في الحديث الصحيح، وقد كان الإمام مالك - رحمه الله - يقول: «لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهًا واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان تحسينًا للظن بالمسلم».

ثانيًا ـ ما يبدع في المخالف بالاتفاق ويختلف على تكفيره:

وهم المقرون بأصول الإيمان إجمالاً ومخالفون لفهم أهل السنة في أصل كلي من أصول الاعتقاد كالأسماء والصفات والقدر والإيمان والوعد والوعيد والاعتقاد في الصحابة من أمثلة هذا النوع:

١ ـ المعتزلة: الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات، وهؤلاء قد انقرضوا إلا بعض العقلانيين المناصرين لهم في بعض الجماعات.

٢ ـ الخوارج: الذين يكفرون الصحابة ﷿، ويكفرون مرتكب الكبيرة ويخلدونه في النار، وهؤلاء مثل الأباضية المنتشرين بعمان وليبيا وكفرق التكفير.

٣ ـ الرافضة: الذين يسبون الصحابة ﷿، وربما كفروا بعضهم ويسبون أبا بكر وعمر ﭭ ويعتقدون أن أول الخلفاء علي ﭬ وهم الإمامية الاثنى عشرية وهم المنتشرون بالعراق وإيران وبعض الجمهوريات الإسلامية في آسيا.

٤ ـ القدرية: الذين يثبتون علم الله وكتابة المقادير وينفون مشيئته وخلقه لأفعال العباد، وهذه العقيدة للأسف تنتشر بين أوساط من يسمون بالمثقفين في بلادنا وغيرها، بل وينصرها بعض المشايخ الذين يتصدرون للدعوة في بعض الجماعات.

٥ ـ الصوفية: الذين يطوفون بقبور الأولياء ويطلبون منهم المدد ويذبحون لهم وينذرون لهم. يقول ابن تيمية: ونحن نعلم بالضرورة أن رسول الله ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعى أحدًا من الأحياء والأموات ولا الأنبياء ولا غيرهم، لا بلفظ الاستعانة، ولا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لهم السجود لميت ولا إلى ميت، ونحو ذلك بل نعلم أنه نهى عن ذلك كله وأنه من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ . اهـ.

ثالثًا ـ ما يبدع فيه المخالف مع الاتفاق على عدم تكفيره:

لا يختلف على عدم تكفير الشيعة المفضلة (وهم الزيدية الذين يقرون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ويفضلون علي عليهم ﷺ أجمعين وكذا المرجئة ومثل هؤلاء الأشاعرة والماتريدية الذين يأوِّلون بعض الصفات دون بعض، وهؤلاء لا نعلم أحدًا من أهل العلم يقول بتكفيرهم، ومن هذا النوع إجازة التوسل بطلب الدعاء من الميت أو الغائب كمن يقول: يا سيدي فلان ادع الله لي، فهو بدعة بلا خلاف، وهو شرك أصغر لا أكبر، ومنه إنكار أصل أن الله لا يعذب أحدًا قبل بلوغ الحجة، وقد نقل عليه الإجماع لابن تيمية، وابن حزم، وهذا القول قول جماعات من التكفير والتوقف.

١ ـ من هذا النوع من الخلاف القول بجواز الفضل، وأن المحرم هو ربا النسيئة فقط. ويروى هذا عن ابن عباس ويروى رجوعه عنه، وقد استفاضت الأحاديث بتحريمها.

٢ ـ ومنه القول بجواز شرب النبيذ المسكر كثيره من غير عصير العنب وهو قول أهل العراق وهو خلاف نص الحديث الصحيح: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام».

٣ ـ ومنه القول بجواز نكاح المتعة، وهو قول ابن عباس ويُروى رجوعه عنه وقد ثبت النهي عنهما في الصحيحين ونسخ جوازها عام الفتح وأجمع عليه أهل السنة ولم يخالف فيه إلا الشيعة الروافض.

٤ ـ ومنه القول بصحة النكاح بدون ولي، وهو قول الحنفية وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «أيما امرأة نكحت بغير ولي فنكاحها باطل ثلاثًا».

٥ ـ ومنه القول بجواز المعازف وسماعها وهو قول ابن حزم، وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «ليكونن أقوام من أمتي يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف» (رواه البخاري معلقًا).

٦ ـ ومنه القول بجواز تصوير ذوات الأرواح إذا لم يكن للصورة ظل (غير مجسمة) ـ أي جواز الرسم باليد ـ وهو قول بعض السلف، وهو خلاف نص حديث النبي ﷺ في النمرقة وهي قطعًا غير مجسمة: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون» (رواه مسلم).

٧ ـ ومنه القول بتحريم الذهب المحلق على النساء وهو قول الشيخ ناصر الدين الألباني حفظه الله، وهو خلاف الإجماع السابق، وخلاف ظاهر الحديث الصحيح: «أَيَسُّر كما أن يُسَوِّرَكُمَا الله بِسوارين من نار أَدِّيا زكاته» فهو صريح في جواز لبس المحلق مع أداء زكاته.

٨ ـ ومنه القول بعدم وجود الطمأنينة في الركوع والسجود والرفع في الصلاة وهو قول الحنفية وهو خلاف نص حديث المسيء صلاته.

٩ ـ ومنه بلاشك قول بعض المعاصرين أن تحديد قدر ثابت من المال في المضاربة لا يفسدها، وهو خلاف الإجماع الذي نقله ابن المنذر وغيره، وبنوا عليه جواز تعاملات البنوك الربوية، وهو من أبطل الباطل.

١٠ ـ ومنه بعض صور تحقيق المناط وتوصيف الواقع كما يقع في كثير من صور تغيير المنكرات مع إنكار مسألة المصالح والمفاسد، أو القول بعدم وجود مفاسد مع تعرض المسلمين والمسلمات لصنوف الأذى من جراء بعض هذه التصرفات ومثل ذلك توصيف واقع تسليط الكفار من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين على المسلمين قتلاً وسفكًا وتدميرًا على آلاف بل ملايين الأبرياء من المسلمين على أنه استعانة جائزة بالكفار مع انتفاء كل الشروط التي وضعها من أجاز ذلك من أهل العلم، وكذا وصف أعداء الله المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله بكل الطرق على أنهم ولاة

للأمور شرعيين كالخلفاء تلزم طاعتهم وعدم مخالفتهم، وكذا المدافعة عن بعض المرتدين من الكتاب والمفكرين الذي نطقوا بالكفر البواح بزعم عدم تكفير المعين قبل إقامة الحجة، مع أن الحجة في المسائل التي قالوها قائمة على كل أحد كإنكار الشريعة أو الاستهزاء بالقرآن والسنة والطعن في الرب سبحانه والرسل والملائكة، فكفر هؤلاء من قبيل الكفر المجرد الذي لا يستلزم إقامة الحجة من عالم.

١١ ـ ومنه القول بجواز حلق اللحى في الواقع الحالي على سبيل الفتوى لعموم الملتزمين كما تقوله وتفعله بعض الجماعات فإنه خلاف نص الحديث الصحيح في وجوب إعفائها.

١٢ ـ ومنه تأصيل ترك الإنكار في مسائل العقيدة والسياسة وأمراض الأمة والبدع والولاء والبراء كما تقوله جماعات عدة أو تؤصل بعض ذلك.

١٣ ـ ومنه الدخول في الأحزاب والهيئات العلمانية دون الضوابط الشرعية المتفق عليها في البراء من باطلهم، بل مع السكوت والإقرار بشعاراتهم المنكرة بل والكفر أحيانًا كتعانق الهلال والصليب والديمقراطية وحرية الفكر التي تتضمن عندهم حرية الكفر.

١٤ ـ ومنه بلاشك، بل ينبغي أن يدخل في مسائل الاعتقاد تهنئة الكفار من النصارى أو غيرهم بأعيادهم الكفرية أو بمناصبهم الطاغوتية بزعم سماحة الإسلام أو مصلحة الدعوة، فإن هذا عند كل أهل العلم من موالاتهم وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع.

١٥ ـ ومنه الاحتفال بالموالد والأعياد البدعية والمشاركة فيها بزعم الاختلاط بالناس لدعوتهم دون إنكار، والمشاركة في البدع بزعم أن البدع الإضافية محل اجتهاد فيسوغ فعلها.

١٦ ـ ومنه الصلاة بالمساجد التي بنيت على القبور، وهو مخالف للأحاديث المستفيضة في لعن من اتخذ القبور مساجد.

١٧ ـ ومنه موالاة أهل البدع مع السكوت على بدعهم كالروافض والصوفية، وقد أجمع أهل السنة على تبديعهم.

١٨ ـ ومنه القول بكراهية صيام الستة أيام من شوال وهو قول المالكية، والقول بوجوب صوم يوم الشك وهو عند الحنابلة، وهذه أقوال مخالفة لنصوص السنة، وكذلك القول بجواز تزوج الرجل ابنته من الزنا وهو عند الشافعية.

خصومات تتكرر علينا

مر بنا قول الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟، قال: «نعم»، فقال: إن الأمر إذًا لشديد.

١ - الخصومة بين رسول الله ﷺ وقومه[١]

كان أبو طالب يدافع عن رسول الله ﷺ فلما أتت لرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا مات عمه أبو طالب للنصف من شوال في السنة العاشرة من المبعث، وهو ابن بضع وثمانين سنة، وتوفيت بعده خديجة بشهر وخمسة أيام، ويقال بثلاثة أيام فحسب، وهي ابنة خمس وستين سنة، وكانت قريش تكف بعض أذاها عن رسول الله ﷺ حتى مات أبو طالب، فلما مات بالغوا في أذاه، فلما ماتت خديجة أقام بعدها ثلاثة أشهر، ثم خرج هو وزيد بن حارثة إلى الطائف فأقام بها شهرًا ثم رجع إلى مكة في جوار المطعِم بن عدي وما زال يلقى الشدائد.

وعن عبد الله[٢] قال: ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غيرَ يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس وسلى جزور[٣] قريب منه، فقالوا: من يأخذ هذا السلا فيلقيه على ظهره؟ قال: فقال عقبة بن أبي معيط: أنا. فأخذه فألقاه على

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

(٢) هو عبد الله بن مسعود ﵁.

(٣) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفًا فيه، والجزور: ما يُذبح من النوق أو الغنم.

ظهره، فلم يزل ساجدًا حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته عن ظهره، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم عليك الملأ من قريش، اللهم عليك بعتبة ابن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأبي بن خلف أو أمية بن خلف».

قال عبد الله: «فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعًا ثم سحبوا إلى القليب[1] غير أبي أو أمية فإنه كان رجلاً ضخمًا فتقطع» (أخرجاه في الصحيحين)[2].

وعن عروة[3] أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟»، قال: «لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب[4]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني: أن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد لك ما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[5]، قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا» (أخرجاه في الصحيحين)[6].

---

(١) القليب: البئر القديمة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في باب «ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة»، ولفظ البخاري يقرب من اللفظ الذي ذكره المصنف، وأخرجه أيضًا النسائي (١/٥٨)، وأحمد بن حنبل برقم (٣٧٢٢) و (٣٩٦٢).

(٣) هو عروة بن الزبير.

(٤) موضع تلقاء مكة وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

(٥) الأخشبان: جبلا مكة أبو قبيس والجبل الذي يقابله.

(٦) الحديث أخرجه مسلم في باب «ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين»، واللفظ الذي أورده المصنف هو لفظ مسلم.

وعنه قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: «**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!**»[(١)].

جاء في أسباب النزول للواحدي: قال قتادة: بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين، إذ قالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات، هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا عليَّ الركب»، فأتاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (سورة التوبة: ٦٥).

وقال زيد بن أسلم، ومحمد بن كعب: قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: «ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه -»، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ قد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ونتحدث بحديث الركب، نقطع به عنا الطريق»[(٢)].

حوادث في *السيرة*:

- كان النضر بن الحارث إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشًا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في

---

(١) انظر البخاري باب «ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة».

(٢) «الابتلاء والمحن في الدعوات» للدكتور/ محمد عبد القادر أبو فارس.

مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديد[1]، وعن أسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبتها[2].

ـ وكان الوليد بن المغيرة ذا مال وجاه وسلطان، كثير الأولاد، يقول: أينزل على محمد وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ . . . إلى قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٣٢)[3].

ـ وكان أبي بن خلف سيء الخلق بذيئًا يؤذي رسول الله ﷺ، فقد جاءه يومًا بعظم بال قد تكسر، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرمَّ؟، ثم فتَّه في يده، ثم نفخ في الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار»، **فأنزل الله تعالى فيه**: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (سورة يس: ٧٨-٨٠)[4].

ـ وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة شديدًا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، ينال من رسول الله ﷺ، ويستهزئ به، ويسخر منه ومن القرآن الكريم، ومن ذلك، (لما ذكر الله عزَّ وجلَّ شجرة الزقوم تخويفًا بها لهم، قال متهكمًا ساخرًا:

---

(١) السنديد: كلمة فارسية معناها طلوع الشمس، وهم ينسبون إليه كل جميل، وفي الأصول: الشديد، حاشية سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦١).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦١-٣٦٢).

يا معشر قريش هل تدرون ما شجر الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها[١] تزقمًا، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ[٢] يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (سورة الدخان: ٤٣-٤٦). أي ليس كما يقول)[٣].

ـ وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ابن الحارث، وصهيب الرومي، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به من دوننا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام: ٥٢-٥٤)[٤].

ـ قال ابن هشام: قال ابن إسحق: ودعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم، فقال له زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأبي بن خلف، والعاص بن وائل: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك! فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ

(١) تزقم الشيء ابتلعه.

(٢) كل ما يصهر من نحاس أو حديد أو رصاص في جهنم.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٢)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٥٥).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٢-٣٩٣)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٨٣-٨٤)، و «أنساب الأشراف» (١/ ١٥٦).

مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (سورة الأنعام:٨-٩)[(١)].

ـ جاء في أنساب الأشراف للبلاذري أن رجلاً قدم من أراش، بإبل له مكة، فباعها من أبي جهل، فمطله بأثمانها، فوقف الرجل على نادي قريش، فقال: إني رجل غريب، ابن سبيل، وإن أبا الحكم ابتاع مني ظهرًا فمطلني بثمنه، وحبسني حتى شق علي، فمن رجل يقوم معي فيأخذ لي بحقي منه؟ وكان رسول الله ﷺ جالسًا في عرض المسجد، فقالوا، وهم يستهزئون: أترى الرجل الجالس؟ انطلق إليه، يأخذ لك بحقك، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إني رجل غريب، واقتص عليه قصته، فقام رسول الله ﷺ حتى ضرب باب أبي جهل، فقال أبو جهل: من هذا؟، قال رسول الله ﷺ: «محمد بن عبد الله، فاخرج إليَّ». ففتح الباب وخرج. فقال له: «اخرج إلى الرجل من حقه». قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لن أبرح أو تعطيه حقه».

فدخل البيت، فخرج إليه بحقه وأعطاه إياه، فانطلق نبي الله ﷺ، وانصرف الرجل إلى مجلس قريش، فقال: جزى الله محمدًا خيرًا، فقد أخذ لي بحقي بأيسر الأمر. ثم انصرف.

وجاء أبو جهل، فقالوا له: ماذا صنعت؟ فوالله ما بعثنا الرجل إلى محمد إلا هازئين. فقال: دعوني، فوالله ما هو إلا أن ضرب ببابي حتى ذهب فؤادي، فخرجت إليه وإن على رأسي لفحلاً، ما رأيت مثل هامته وأنيابه قط فاتحًا فاه، والله لو أبيت لأكلني، فأعطيت الرجل حقه، فقال القوم: «ما هو إلا بعض سحره»[(٢)].

ـ روى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٥).

(٢) «أنساب الأشراف» (١/ ١٢٨-١٢٩).

ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثًا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (سورة الضحى: ١-٣).

قال ابن حجر في الفتح: «والمرأة هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب»[(١)].

- ولما ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، استقبله زعماؤها وهم ثلاثة إخوة بالسخرية والاستهزاء فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك[(٢)].

- وكان الأسود من المستهزئين، وكان يكنى أبا زمعة، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه، ويقولون: «قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر» ثم يمكون[(٣)] ويصفرون. وكلم رسول الله ﷺ بكلام فشق عليه، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمي الله بصره، ويثكله ولده، فاستجاب الله دعاءه[(٤)].

- وكان أبو جهل - لعنه الله تعالى وأخزاه - في بدر يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق فيقول: يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟

---

(١) صحيح البخاري بفتح الباري (١٠/٣٣٨-٣٣٩).

(٢) «سبل الهدى والرشاد» (٢/٥٧٦).

(٣) يمكون: يصفرون وذلك بالتشبيك بين أصابعهم وإدخالها في أفواههم والنفخ فيها، «المعجم الوسيط» (٢/٨٨٩).

(٤) «أنساب الأشراف» (١/١٤٨-١٤٩).

فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (سورة المدثر: ٣١). إلى آخر القصة، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن، وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع.

بين نوح عليه السلام وقومه[(١)]

دعوة نوح عليه السلام لقومه:

حياة نوح ـ عليه السلام ـ حياة شاقة مريرة، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة فقد أقام بينهم قرونًا ودهورًا فلم ير إلا آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وعقولاً متحجرة. لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحًا ازدادوا له عنادًا، وكلما ذكرهم الله زادوا ضلالاً وفسادًا، وظلوا في طريق الضلال سائرين. لا يلتفتون إلى دعوة نوح، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره، وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عامًا داعيًا، مذكرًا، ناصحًا، وسلك جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان فلم يفلح معهم أبدًا، وكانت دعوته لهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ومع كل ذلك لم تلن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالإساءة، واللطف بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى. وهو لا يفتأ يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

---

(١) «النبوة والأنبياء» لمحمد علي الصابوني.

روى المفسرون أن نوحًا ـ عليه السلام ـ كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرح ويخنقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمون به في الطريق ويقولون أنه سيموت بعد هذا اليوم. فيعيد الله سبحانه إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك وهكذا، بقي يؤذى ويعذب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول: لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده أخبث وألعن فلقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بني احذر هذا لا يغرنَّك عن دينك وآلهتك، ولهذا دعى عليهم نوح بعد أن يئس من إيمانهم فقال: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (سورة نوح:٢٦-٢٧)، فكان بعد ذلك الطوفان.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

نوح يصنع الفُلْك:

لما يئس نوح ـ عليه السلام ـ من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان. وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد كما قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة هود:٣٦)، عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء على قومه بالهلاك والدمار فاستجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان فلا يُبقي منهم أحدًا. وأوحى إليه أن يصنع الفلك (السفينة) ليركب فيها هو وجماعته المؤمنون، ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة

بصنع الفلك ولذلك أوحى الله إليـه صنعهـا وعلّمه كـيف ينبغـي أن تكون كمـا قال تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (سورة هود:٣٧)، وإنما أمره بعدم مراجعته في شأنهم لأن عذاب الله إذا جاء فلا يرد عن القوم المجرمين ولعله قد تدركه رقة عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالعيان.

وأخذ نوح ـ عليـه السلام ـ يصنع السـفينة تحت أمر الله ووحـيه، وجعل قـومه يمرون عليه فيهزأون عليه ويسخـرون ويقولون له: يا نوح قد كنت بالأمس نبيًا واليوم قد صرت نجارًا، ويجتمعون علـيه وهم يضحكون وهو جاد ـ عليه السلام ـ في عمله فكان يجيبهم بقوله: ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ (سورة هود:٣٨).

أراد قوم نوح أن يتذكـروا أعمالهم الصالحة فاتخـذوا لهم تماثيل زعمًا منهم أنهم بذلك لا ينسون ذكراهم ويتـأسون بهم في صالح الأعمال ومع مضـي الأزمان عبدت هذه الأوثان.

روي في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأم سلمة وأم حبيبة لما رأتا الكنيسة التي بأرض الحبشة وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها جميلة قال: «أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله عزّ وجلّ».

وروى البخاري عن ابن عباس عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا... ﴾ (سورة نوح:٢٣)، قال: هذه أسماء رجـال صالحين من قوم نوح فلمّـا هلكوا أوحى الشيطـان إلى قومـهم أن انصبـوا إلى مجـالسهم التي كـانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسـمائهم ففعلوا فلم تُعْبَد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ أي (تقادم) العلم عبـدت، قال ابن عباس: وصارت هـذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

أقول: ومن أجل ذلك جاءت الشريعة الإسلامية الغراء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح وتحرِّم اتخاذ التماثيل أيًا كان الغرض منها. فقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم». وورد أيضًا فيه: «إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل ولا جُنُب». وجاء أيضًا قوله ﷺ: «من صوَّر صورة عذَّبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ» (رواه البخاري).

وكل ذلك سدًا للذرائع وصيانة للعقيدة حتى لا يقع الناس في الوثنية كما وقع قوم نوح، ثم انتقل الشر والفساد إلى غيرهم.

صبر نوح على تكذيب قومه له:

لقد كان جهاد نوح ـ عليه السلام ـ وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقة لأحد على تحمله ولا قدرة له عليه، فقد كان جهاده جهاد الأبطال، وصبره صبر الجبال. أوذي... وعُذِّبَ... واضطهد. وهو لم يكف عن تبليغ دعوة الله لمدة تقارب ألف عام، ولم يضعف عن إبداء النصح والتذكير ابتغاء مرضاة الله. وقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ليصدوه عن دعوته فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات. اتهموه بأنواع الاتهامات، وافتروا عليه أنواع الافتراءات فما زاده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا وصبرًا وجهادًا. فكان من الأنبياء المقربين ومن أولي العزم الصابرين.

أنواع الاتهامات لنوح عليه السلام:

١ ـ اتهم ـ عليه السلام ـ بالسفه والضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٦٠-٦١).

٢ ـ واتهم أيضًا بالجنون، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (سورة القمر:٩)، وأخبر القرآن عن لسانهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (سورة المؤمنون:٢٥).

٣ ـ واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة هود:٣٢).

٤ ـ وهُدِّدَ ـ عليه السلام ـ بالرجم قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (سورة الشعراء:١١٦).

٥ ـ وقابلوه بالسخرية والتهكم، قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (سورة هود:٣٨).

وهكذا تفننوا في إيذائه وإتهامه ليفلوا من عزمه، وهذه الإفتراءات والاتهامات سلاح يستعمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعية مصلح.

بين إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر

قصَّ علينا القرآن الكريم دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه. فقد كان أبوه مشركًا ممن يعبد الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له إنما هو أبوه، ولهذا لم يألُ الخليل جهدًا في تذكير أبيه ونصحه. وتحذيره من عذاب الله، وقد كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البار الذي لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ عليه في الكلام، ولم يعنِّفه أو يزعجه، بل إنه خاطبه بكل أدب ووقار وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة، فبيَّن له في محاورته ومجادلته بطلان ما هو عليه من عبادة أوثان وأصنام، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئًا، وذكَّره بأن هذه الأصنام إذا لم تستطع أن تدفع الضر عن نفسها ولا أن تجلب الخير والنفع إليها فكيف تستطيع أن تدفع عن غيرها، أو كيف تستطيع أن تحقق لعابدها ما

يرجوه منها مع أنها تفقد القدرة والقوة على عمل شيء من الأشياء؟ وهكذا مضى إبراهيم ـ عليه السلام ـ في دعوته لأبيه بالحكمة والموعظة الحسنة في أدب ووقار، ولكنَّ أباه لم يستجب لهذا النصح، ولم يعتبر بمنطق الحجة والبرهان بل أصرَّ على الضلال والعناد، وهدَّد ولده بالقتل والضرب فيما إذا عاد إلى ذكر آلهته المزعومة بالسوء أو الشر. إقرأ قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٤١-٤٧).

وقد استغفر إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه، كما وعده فطلب له من ربه المغفرة والرضوان، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٨٦)، وكان هذا الاستغفار طمعًا من إبراهيم في إيمان أبيه، ولكنَّه حين ظهر له إصرار أبيه على الشرك والوثنية، وعداوته المتأصلة لدين الله، عند ذلك تبرأ إبراهيم من أبيه وقطع صلته به، ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (سورة التوبة: ١١٤).

وفي هذا درس بليغ لأهل العقيدة والإيمان؛ ليقتدوا بالرسل الكرام، ويسيروا على نهجهم الكامل وسيرتهم العطرة، فإبراهيم يتبرأ من أبيه ونوح يتبرأ من ابنه، وهذا هو كمال الإيمان، فليس هناك صلة أقدس أو أعظم من أخوة الدين لأن رابطة الدين فوق رابطة النسب، وهذه هي المُثُل الكاملة في دعوة أنبياء الله، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (سورة الممتحنة: ٤).

أفليس في هذا برهانًا واضحًا على صدق إيمان الخليل ـ عليه السلام ـ؟ أوليس في تبرئه من أبيه ومجاهرته بالعداء، ما يثبت انقطاع الصلة بين الوالد وولده حينما تنعدم روابط الإيمان؟؟! ولكن لا عجب فإنه إبراهيم الخليل أبو الأنبياء الذي ضرب أروع الأمثلة في صدق العقيدة وصدق الإيمان ولذلك استحق أن يكون خليل الرحمن.

بين إبراهيم عليه السلام وقومه:

نشأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسط بيئة فاسدة يحكمها ملك طاغية، مستبد برأيه اسمه (النمرود بن كنعان) قبض على زمام الملك في (بابل) وكان أهلها ينعمون برغد العيش، وظلال الأمن، غير أنهم كانوا يتخبطون في ظلام دامس من الشرك والوثنية، ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يجعلونها أربابًا من دون الله.

ولما رأى (النمرود) نفسه حاكمًا مطلقًا، تحيط به قوة الملك والسلطان، والقوم حوله يتخبطون في الجهالات. أقام نفسه (إلهًا) ودعا الناس إلى عبادته، لأن عبادتهم للأصنام وجهلهم بصفات الإله سوَّغت له هذه الدعوى الباطلة، فالأصنام لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، وهو ينطق، ويفكر ويدرك ويحس ويشعر، ويفيض عليهم الخير، ويدفع عنهم الشر، فلم لا يكون إلهًا؟ فهو أحق بالعبادة من هذه الأحجار التي عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله.

نشأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ في هذا المحيط، وآتاه الله الرشد، وهداه إلى الحق، فعرف بصائب رأيه وثاقب فكره، أن الله تعالى واحد أحد، لم يلد ولم يولد، وأنه مهيمن على الكون، مسيطر على العالم، وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها، والتماثيل التي ينحتونها لا تغني عنهم من الله شيئًا، لذلك عزم على تخليص قومه من هذا الشرك وإنقاذهم من تلك الجاهلية العمياء.

كان إبراهيم مفعم القلب بالإيمان بربه، ممتلئًا بالثقة واليقين بوعد الله بالنصر له، موقنًا بما أوحى الله تعالى إليه من أمر الغيب، وأمر الإيمان، ولكنه أراد أن يزداد

بصيرة وثقة ويقينًا بقدرة الله عزّ وجلّ، فطلب من ربه أن يريه الآية البينة على البعث، وأن يطلعه على النشور، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم، فخاطبه ربه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (سورة البقوة: ٢٦٠).

لقد آمن إبراهيم وصدَّق، ولكن تاقت نفسه للعيان، وامتدت عينه للمشاهدة ليرى عجائب قدرة الله، ويبصر دقائق خلقه وتصويره، وليطمئن قلبه ويزداد يقينه، فأجاب الله سؤاله، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ويضمها إليه، ليتعرف أجزاءها، ويتأمل خلقها، ثم يذبحها فيجعلها أجزاءً، ويفرقها أشلاء، ويجعل على كل جبل منها جزءًا، مختلطًا بغيره من الأجزاء، ثم يدعوهن إليه فيأتينه سعيًا بإذن الله، فلما فعل صار كل جزء ينضم إلى مثله، وعادت الأشلاء كل في مكانه، وسرعان ما سرت فيها الحياة، وسعت إليه بقدرة الله وهو يرى آياته البينة في الخلق والإبداع، سبحانه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، إقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠).

مناظرة إبراهيم لقومه:

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ دائبًا في الدعوة إلى الله، لا يفتأ يذكر قومه وعشيرته بالرجوع إلى الله، دعا أباه إلى الإيمان فأبى عليه، ثم دعا قومه فتنكروا لدعوته وسخروا من رسالته، ولكنّه كان رحيمًا رفيقًا، وبرًا تقيًا، فلم يشأ أن يتركهم في ضلالهم يعمهون، بل عزم أن يمحو منهم تلك العقائد الباطلة، ويردُّهم إلى رشدهم ولو ناله منهم أذى كثير، أو تعرضت حياته للخطر.

لقد كان إبراهيم ذكـيًا صائب الرأي، وقد علم أن (الحجـة) و (البرهان) اللفظي وإن وضحا وضوح الصبح لا ينبتان نباتًا حسنًا في هذه الأرض الجرز، ما لم يقارنهما الحس والبصر، لذلك فقد أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وأن يقرن حواسهم مع أفئـدتهم، لعلهم يرجعون عن غـيِّهم، ويدركون بأنفـسهم تفاهة مـا هم عليه من عبادة حجارة لا تنفع ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئًا.

كان لقومه يوم عيد كبير، يخـرجون فيه خارج المدينة، يقضون الأيام في التسلية والترويح عن النفس، فلما خرجوا لعيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم، فأبى أن يصحبهم، وعزم على أن يـهدم صرح آلهـتهم، فـتظاهر بالسقم ـ ولم يكن به علة، ولـكنه كان سقيم النفس من عبادتهم ـ ولَمَّا خلا له الجو مع أصنامهم، صار يلطمها بيده، ويركلها برجله، ثم تناول فأسـًا وهوى عليها فكسـرها، حتى جعلهـا (جذاذًا) قطعًا صغـيرة محطمة، متناثرة هنا وهناك وترك صنمًا كبيرًا لم يكسره ليقيم الحجة به عليهم، فعلَّق في عنقه الفأس الذي كان قد حطَّم به تلك الأصنام.

رجع قومه من عيدهم وسرعان ما هرعوا نحو المعبد ـ كعادتهم ـ ليقدِّموا فروض الولاء والطاعة لأصنامهم، ولكنهم ذهلوا وبهتوا من هول ما رأوا. . . لقد رأوا آلهتهم ركامًا وهشيمًا، متناثرة في أطراف المعـبد، يعلوها الذل والصغار فنادوا بصوت وتحد، اهتزت له جنبات الأرض ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٥٩).

وسكت الجـميع هـنيهـة وهم في غـمرة الذهول والخـشـوع، أمام هذه الآلهـة المحطمة، ثم انطلق صوت من بين أظهرهم يذكـرهم بتوعد إبراهيم لأصنامهم ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (سورة الأنبـياء: ٦٠)، فلابد أن يكون هو إذًا المحطم للأصنام، اعتزموا على أن يوقعوا به أشد العذاب، وأن يجعلوه عبرة لمن يعتبر، جزاء ما صنعت يداه، فنادوا بأن يأتوا به على أعين الناس، ليشهـدوا عليه بمقالته، ويروا ما يحل به من شديد العقاب.

ولاشك أن اجتماع القـوم في صعيد واحد، كانت (أمنية) لسـيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ليقيم لهم الحجة جميعًا على بطلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عـاكفون. تقاطرت الوفود، وتكاثرت الجمـوع، كل يرغب في القصاص منه، ويود رؤية عقـابه وعذابه إرضاءً لنفوسـهم المتعطشة إلى الثـأر منه، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر وابتدأوا محاكمته على رؤوس الأشهاد.

المحاكمة:

تقـدَّم إبراهيم للمحـاكمـة، وهنا شـخصت الأبصـار لسمـاع الجواب والنقـاش وعرضت عليه تلك الأسئلة: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٢).

لقد كـان إبراهيم حكيمًا داهـية، سار بهم في الجـدال إلى ناحية أخـرى، ليبلغ مقصده ويبلغ رسالته، مهـما كانت النتائج... وجرهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه، ليلزمـهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صـوابهم فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٣).

صفعهم بهذه الحـجة الدامغة، التي نبهتهم من غفلتـهم، وأيقظتهم من غفوتهم، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٤). لقد تركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عندها فحطمها من لا يؤمن بها، ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتـهم فأطرقوا مفكرين، ثم توجـهوا بالكلام مع إبراهيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ!! ﴾ (سـورة الأنبيـاء: ٦٥)، لقـد عرفت يـا إبراهيم أن هذه الأصنام لا ترد سؤالاً، ولا تسـمع كلامًا، فكيف تأمرنا بـسؤالها وهي حجـارة صماء جامـدة، فلما أقروا بعجز الآلهة، وقصورها عن معـرفة ما يجري حولها، وجردوها من القدرة على دفع العـدوان، وصد كيـد المعتـدين، حينئـذ ظهرت حـجة إبراهيم واضـحة، ورأى الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السوي السليم، فأخذ يبكتهم على جهلهم، ويوبخهم على ثباتهم على باطلهم بعد وضوح الحق وسطوعه كالشمس في رابعة النهار: ﴿ قَالَ

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٦-٦٧).

فلما غلبوا على أمرهم، وخافوا افتضاح حالهم، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يكابرون بها، عمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم، ويخفون باطلهم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٨).

إبراهيم يلقى في النار:

أرادوا أن يحرقوه عقابًا له، ولكن كيف يحرقونه؟ لابد أن يصلوه نارًا حامية تعادل لظى الحقد المتأجج في صدورهم من جراء انتهاك حرمة آلهتهم المزعومة، وتحطيمها دون مبالاة.

شرعوا يجمعون الحطب من هنا وهناك، وجعلوا ذلك قربانًا لآلهتهم، وبرًا بمعبوداتهم حتى إن المرأة كانت إذا مرضت نذرت إن عوفيت لتجمعن حطبًا لحرق إبراهيم، مكثوا مدة يجمعون الحطب حتى تراكمت أعواده، وضاق المكان بما جمعوا، فأشعلوا النار فيها فأضطرمت وتأججت، وعلا لهبها وسطع ضوؤها، ثم قيدوه ورموا به فيها، ولكنه كان في رعاية الله وكلأه، فلم تحرق منه النار إلا الوثاق، وجاءه النداء الرباني: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٩).

وهكذا ظهرت آية الله الكبرى في حفظ عبده ورسوله إبراهيم الخليل عليه صلوات الله ورد الله كيدهم في نحورهم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٠).

اقرأ هذه الآيات الكريمة في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ

لأكيدنَّ أصنامكُم بعْدَ أن تولُّوا مُدْبرين (٥٧) فجعلهم جُذاذًا إلاَّ كبيرًا لَّهم لعلَّهم إليه يرْجعُون (٥٨) قالُوا من فعل هذا بآلهتنا إنَّهُ لمن الظَّالمين (٥٩) قالُوا سمعْنا فتًى يذْكُرُهُمْ يُقال لهُ إبْراهيمُ (٦٠) قالُوا فأْتُوا به علىٰ أعْين النَّاس لعلَّهُمْ يشْهدُون (٦١) قالُوا أأنت فعلْت هذا بآلهتنا يا إبْراهيمُ (٦٢) قال بلْ فعلهُ كبيرُهُمْ هذا فاسْألُوهُمْ إن كانُوا ينطقُون (٦٣) فرجعُوا إلىٰ أنفُسهمْ فقالُوا إنَّكُمْ أنتُمُ الظَّالمُون (٦٤) ثُمَّ نُكسُوا علىٰ رءُوسهمْ لقدْ علمْت ما هؤُلاء ينطقُون (٦٥) قال أفتعْبُدُون من دُون اللَّه ما لا ينفعُكُمْ شيْئًا ولايضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ ولما تعْبُدُون من دُون اللَّه أفلا تعْقلُون (٦٧) قالُوا حرّقُوهُ وانصُرُوا آلهتكُمْ إن كُنتُمْ فاعلين (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُوني بردًا وسلامًا علىٰ إبْراهيم (٦٩) وأرادُوا به كيْدًا فجعلْناهُمُ الأخْسرين ﴾ (سورة الأنبياء: ٥١-٧٠).

مناظرة إبراهيم الخليل للنمرود:

عاش إبراهيم الخليل في زمن عصيب، كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال، وقد ظهر في زمانه ذلك الملك الجبَّار المتمرد، الذي ادعى لنفسه الربوبية، ونازع الله في عظمته وسلطانه، فادعى أنه الإله من دون الله، وهذا الجبار يسمى (النمرود بن كنعان) وكان أحد ملوك الدنيا الأربع، فإنه قد ملك الدنيا ـ فيما ذكروا ـ أربعة: مؤمنان، وكافران... أما المؤمنان فهما (ذو القرنين) الذي ذكره القرآن في سورة الكهف، و (سليمان بن داود) عليه السلام. وأمَّا الكافران فهما (النمرود) و (بختنصر) وأمَّا غيرهم فلم يملك الدنيا وإنما ملك بلدًا أو بلادًا منها مثل (فرعون) فقد كان يملك أرض مصر...

وقد ذكر المؤرخون أن (النمرود) هذا قد استمر في ملكه ٤٠٠ سنة وكان قد طغى وبغى، وتكبَّر وتجبَّر، وادَّعى لنفسه الربوبية فناظره الخليل ـ عليه السلام ـ فسفه عقله وأبطل حجته وألقمه الحجر. وكانت أول مناظرة معه أنه حينما دخل عليه الخليل سأله (النمرود): من ربك يا إبراهيم؟ وهل لك رب غيري؟ فأجابه الخليل بكلام العقل والإيمان قال: ﴿ ربِّي الَّذي يُحْيي ويُميتُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٨)، أي إنه الإله العظيم القادر، الذي يحيي الإنسان من العدم ثم يميته ثم يبعثه فهو على كل شيء قدير،

فالإحياء والإمـاتة مظهر من مظاهر قدرة الله، ولكن النمرود السفـيه الأحمق ضحك منه ساخرًا وعارضه بقوله: ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨)، أي أنني استطيع أن أفعل ما يفعله إلهك، قال له: وكيف؟ قـال: انتظر فدعى حاجبه فقال له: اذهب فائتني برجـلين من السجن قد اسـتوجبـا القتل (أي حكم عليـهما بالإعـدام) فذهب الحاجب فأتى له برجلين فوقـفا بين يديه فأمر الجلاد أن يضرب عنق أحـدهما فضربه فمـات، فقـال النمـرود هذا أمتـه، وأمر بإطلاق سـراح الثاني فـأطلق فقـال: وهذا أحيـيتـه. . . وهكذا بمنتـهى السخف والحـماقـة أراد أن يظهر قـدرته على (الإحـياء والإمـاتة) اللتان همـا من خـصائص قـدرة الله ومن صفـاته الأزليـة، بهذه الطريقـة السخيفة الهزلية فقال له نبي الله إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨).

هــود عليه السلام مع قومه عــاد

(عُمَـان) وموضع بلادهم الـيوم رمال، ليـس بها أنيس ولا سـمير، بـعد ذلك العمران والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ أَلاَّ تَعْبُـدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَـذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سـورة الأحقاف:٢١).

وعاد هم (عاد إرم) التي تسمى عاد الأولى، وأما عاد الثانية فمتأخرة قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَـادًا الأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَـا أَبْقَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٥٠-٥١)، وتسمى (عاد إرم) لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَـيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ (سورة الفجر:٦-٨).

وقد كـانت هذه القبـيلة من العمـالقة أشـدَّاء أقوياء، وقـد زادهم الله بسطة في الجسم، وكانوا متـرفين في الحياة، يبنون القصور الفـخمة الشامخة، ويقـيمون القلاع والحصـون، وعندهم البـساتين النضـرة، والعيـون الجارية، وقد غـرقوا في النـعيم، وانغمسوا في البذخ والترف، وقد قص القـرآن الكريم ما كانوا عليه من مظاهر النعمة

والترف فقال عزَّ وجلَّ من قائل: ﴿ أَتبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (سورة الشعراء: ١٢٨-١٣٤).

وقد كانت أجسامهم قوية، وبنيتهم ضخمة متينة، وكانوا إذا مشوا على الأرض تهتز الأرض تحت أقدامهم لثقلهم، كأنهم الجبال لفرط طولهم، وضخامة أجسامهم، فاغتروا بقوتهم، واستكبروا على الله، وعتوا عن أمر رسله، وتمادوا في طغيانهم فأهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ (سورة فصلت: ١٥-١٦).

كان قوم (هود) ـ عليه السلام ـ أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، قال ابن كثير: وكانت لهم أصنام ثلاثة (صدا، وصمودا، وهرا)[1]. وكانوا عربًا جفاةً عتاةً كافرين متمردين على الله وكان (هود) ـ عليه السلام ـ ينذرهم ويحذرهم عذاب الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله عليهم ويبين لهم أنه لا يطلب على نصيحة أجرًا منهم، ولا يبتغي جزاءً ولا شكورًا، وكان منهم ناس قد عتوا عتوًا كبيرًا فقد قاوموا دعوته، وسفهوا رأيه، وعزموا على الفتك به، ورموه بالسفه والجنون، واتهموه بأن آلهتهم قد أصابته بسوء، وأن ما يهزىء به إنما بسبب مس الآلهة له قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ (سورة هود: ٥٣-٥٥).

وقد أنذرهم هود ـ عليه السلام ـ عذاب الله، ولكنهم بقوا على كفرهم وعنادهم.

---

(١) «البداية والنهاية» (جـ١ ص: ١٢١).

هـلاك عـاد:

لما طغت عـاد وتمردت على نبي الله هود ـ عليه السلام ـ ولم ينفعها التذكير والإنذار وتمادت في طريق العصيان، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، حتى اشتد عليهم الجهد والبلاء، فاستغاثوا واستنجدوا فأرسل الله عليهم سحابًا كثيفًا من السماء، فلمَّا رأوا السحاب فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير، وأن الله قد تداركهم برحمته واستجاب دعاءهم حين استغاثوا، فلما أظلمت السحابة رأوها سوداء قاتمة ففزعوا، ثم هبت عليهم الريح ـ وكانت ريحًا عقيمًا ـ وسلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فأهلكهم الله وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية، ونجى الله هودًا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ، وكان الذين هلكوا من قوم عاد قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق من أنفسهم ولا من ديارهم شبح ولا رسم لأن الريح قد دمرت كل شيء، فلم تبق عليهم ولم تذر، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٤-٢٥).

وهذه الريح تسمى (الريح العقيم) التي ذكرها الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (سورة الذاريات: ٤١-٤٢).

وقد سكن هود ـ عليه السلام ـ بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي حضرموت على بعد مرحلتين من مدينة (تريم) وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت ويزعم أهل فلسطين أنه مدفون عندهم والصحيح ما ذكرناه والله أعلم.

صالح عليه السلام مع قومه ثمود

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (سورة النمل: ٤٥).

مساكن ثمود:

كانت مساكن ثمود بالحجر، ولذلك سماهم الله في القرآن الكريم (أصحاب الحجر) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (سورة الحجر: ٨٠-٨١).

وأما الحجر فهي تقع بين (الحجاز والشام) ويمر عليها المسافر بطريق البر، وتعرف الآن بـ (فج الناقة) وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن، وتسمَّى (مدائن صالح).

يقول المسعودي: «ورممهم باقية، وآثارهم بادية، في طريق من ورد من الشام، وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مصاقبة لخليج العقبة» أي أنها قريبة من خليج العقبة.

يقول ابن كثير - رحمه الله -: «وهم قبيلة مشهورة يقال لها (ثمود) باسم جدَّهم أخي جديس، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، فلما نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود استقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها وطبخوا، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمرهم أن يريقوا القدور وأن يعلفوا العجين الإبل، وارتحل بهم حتى نزل البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال لهم - كما في الصحيحين -: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم».

وأما زمن وجود (ثمود) فلم يعلم بالضبط إلا أنهم كانوا بعد (عاد) كما أشارت الآية الكريمة، وقبل الميلاد وقبل زمن موسى ـ عليه السلام ـ قطعًا بدليل قول مؤمن آل فرعون يخوف قومه عذاب الله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٣٠-٣١).

وممن رد على دعوى المستشرقين أن قبيلة (ثمود) من اليهود الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء فارجع إليه إن شئت[(١)].

عبادة قوم ثمود:

كانت قبيلة (ثمود) تدين بعبادة الأوثان، وتكفر بالله الواحد الديان، فبعث الله إليهم سيدنا صالح ـ عليه السلام ـ، يذكرهم بنعم الله، ويهديهم طريق الفوز والسعادة، وأنهم خلفاء في الأرض من بعد قوم (عاد)، وأمرهم بالتقوى، ونهاهم عن عبادة الأصنام فظلوا متمادين في غوايتهم، عاكفين على عبادتهم الباطلة، وكانوا أهل خصب ونعيم، لما لهم من الخيرات الوافرة، والجنات الزاهرة، والعيون الجارية، وقد ذكرهم الله تعالى بهذه النعم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٤٦-١٤٩)، فآمن به نفر قليل، وأكثرهم كذبوه وكفروا برسالته، وعتوا في طغيانهم عتوًا كبيرًا، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه، فجاءهم بمعجزة (الناقة) وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق (صالح) ـ عليه السلام ـ حيث خرجت الناقة من صخر أصم ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء.

---

(١) «قصص الأنبياء» (ص:٥٩).

هلاك ثمود:

وقد حذرهم (صالح) ـ عليه السلام ـ من التعرض للناقة بسوء، وأنذرهم عذاب الله إن هم أقدموا على قتلها: ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الشعراء: ١٥٦).

ولكن النفوس العاتية التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة، والتي قد أعماها حب التمرد والطغيان، وأصم آذانها عن قبول دعوة الله، قد أبت إلا الإجرام، فأقدموا على عقر الناقة بغيًا وعتوًا ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٧٧).

وقد قص الله علينا قصتهم في سورة الشمس ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (سورة الشمس: ١٤-١٥).

وكان أول من سطا على الناقة الشقي اللعين (قُدار بن سالف) فعقرها فسقطت على الأرض فابتدرها الرجال بأسيافهم يقطعونها وكانوا تسعة كما أخبر الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ (سورة النمل: ٤٨)، وقد همُّوا بقتل نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ بعد قتل الناقة لاسيما بعد أن أنذرهم بعذاب الله وتوعدهم به بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (سورة هود: ٦٥)، فأرسل الله على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة من السماء رضختهم ودمرتهم قبل قومهم.

شعيب عليه السلام مع قومه مدين

دعاهم إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد فآمن به قليل وكذَّبه الأكثرون، وقد كان هؤلاء المكذبون على غاية من الضلال والجحود، يقعدون على الطرق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين، ويمنعونهم عن الإيمان به، ويتوعدون من اتبعه بأنواع من التهديد والوعيد كما قال القرآن الكريم على لسان شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (سورة الأعراف:٨٦)، ولما ألح عليهم شعيب ـ عليه السلام ـ في الدعوة والموعظة جاهروه في العداء، وادعوا أنهم لا يفقهون كلامه، ولا يعرفون غرضه وتوعدوه بأنه لولا أن له أنصاراً لقتلوه كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (سورة هود:٩١)، ثم هددوه وتوعدوه بالإخراج والطرد من القرية، هو والذين آمنوا معه إلا أن يعودوا في ملتهم، ويدخلوا في دين قومهم. استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ... ﴾ (سورة الأعراف:٨٨).

العجب من هؤلاء القوم، يأتيهم نبيهم الكريم بدعوة إنسانية كريمة، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فيقولون له: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا... ﴾ (سورة هود:٩١)، مع أن دعوته في غاية الظهور والبيان، ويدعوهم إلى ترك عبادة غير الله فيتوعدونه بالطرد من القرية، وإخراجه هو ومن آمن معه، ويأمرهم بترك ذلك المنكر القبيح (تطفيف المكيال والميزان) فيجيبونه بأسخف جواب وأتفه كلام، ساخرين منه، متهكمين عليه في صلاته وعبادته ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (سورة هود:٨٧).

عجبٌ والله أن يهزأ الجاهل من العالم، وأن يسخر المجنون من العاقل، وأن يصبح السفيه صاحب حجة وبيان يريد أن يظهر بها على خصمه الذي يدعوه إلى الفضيلة والطهر والعفاف؟ متى كانت الاستقامة تعد نقصًا؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيبًا يلام عليه الإنسان؟ ولكنه منطق البغي والعدوان كما قال قوم لوط لنبيهم وأتباعه من المؤمنين ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ...﴾ (سورة الأعراف: ٨٢)، كذلك كان موقف أهل مدين من شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ...﴾ (سورة الأعراف: ٩٠).

هلاك قوم مدين:

ولقد كان من شدة حماقتهم أن يطلبوا من (شعيب) أن يسقط عليهم كسفًا (قطعًا) من السماء، إن كان من الصادقين في دعوته، فأخذهم عذاب (يوم الظلة) بأن سلط الله عليهم الحر سبع أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال فرارًا من شدة الحر، فلما تكامل عددهم في ظلها تزلزلت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء نارًا فاحترقوا وصدق الله حيث يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الشعراء: ١٨٩).

وقد عاش شعيب بعد هلاك قومه مدة من الزمن إلى أن توفاه الله تعالى، وذلك في الفترة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليه الصلاة والسلام، ويغلب على الظن أن أحداث إهلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر والله تعالى أعلم.

خصومة نبي الله لوط عليه السلام مع قومه

كان لوط ـ عليه السلام ـ قد نزح عن محلة عمه الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأمره وإذنه، فنزل بمدينة (سدوم) في أطراف شرق الأردن، وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم طوية، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

وقد ارتكبوا جريمة من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي (إتيان الذكور) دون النساء، وقد حدثنا القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦).

وكانوا لا يستقبحون قبيحًا، ولا يستترون من منكر، قد قست قلوبهم، وفسدت أخلاقهم، حتى كانوا يجاهرون باللواطة ولا يستحون، فبعث الله إليهم (لوطًا) عليه السلام، فدعاهم إلى الله وذكرهم، ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فلما ألح عليهم هددوه بالطرد والإخراج من بين أظهرهم ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ١٦٧)، كما قرروا طرده وطرد من آمن معه لا لشيء إلا لأنهم أناس يتطهرون، ولا يرتكبون الجرائم التي كان يرتكبها أولئك القوم الضالون ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة النمل: ٥٦). وهذا منتهى السفه وقلة العقل والتفكير.

سبحان الله ... متى كان اجتناب الرذائل والقبائح يعتبر جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان بالطرد والحرمان؟!

ومتى كان الشريف الطاهر مجرمًا ينبغي تهجيره، وإخراجه من الأوطان ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ٨٢)؟؟ وما هو السبب في هذا الطرد والإبعاد؟ إنهم لا يستحون أن يقولوا بملء أفواههم ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

فالعفة والطهارة، وعدم التلوث بالقاذورات، وخاصة (اللواطة) تعتبر في نظر أولئك الأشقياء جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان.

ولا عجب فذلك منطق (الطغيان) في كل عصر وزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قصة الملائكة (ضيوف لوط):

وحين أراد الله عزَّ وجلَّ إهلاك أولئك الخبثاء الأشرار، من قوم لوط، الذين كانوا أرذل وأخبث أمةٍ في ذلك الحين، أرسل إليهم الملائكة ليقلبوا عاليها سافلها، وكانت لهم قرى خمسة، ويزيد عددهم على (٤٠٠) أربعمائة ألف كما يذكر ذلك المؤرخون.

فساروا في طريقهم على (إبراهيم) الخليل، فبشروه بغلام حليم، وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل (سدوم وعامورة) وأن الله قد أمرهم بإهلاك جميع أهل القرى، الذين كانوا يعملون الخبائث، فتخوف (إبراهيم) على ابن أخيه (لوط) إذا قلبت بهم الأرض أن يكون ضمن الهالكين فأخذ يناقشهم ويجادلهم، وقال لهم: إن فيها لوطًا، فأخبروه بأن الله سينجيه وأهله ومن معه من المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٣١-٣٢).

خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا إلى (لوط) فدخلوا عليه في صورة شباب مرد حسان، تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال، ولم يخبروه بحقيقتهم، فظن أنهم ضيوف جاءوا يستضيفونه، فرحب بهم. ولكنه اغتم من دخولهم عليه في وقت الظهيرة، لأنه خاف عليهم من أولئك المجرمين الأشرار لاسيما وأنهم في منتهى الحسن والجمال، ووقع في نفسه أنه لابد أن يكون قد رآهم أحد من قومه حين دخلوا

عليه، فلابد أن يمسوهم بأذى، لـذلك فقد أشفق عليهم وخاف من قومـه أن يسمعوا بقدومهم، فيعتدوا عليهم بالفتك في أعراضهم، وهناك أخذ يفكر ماذا سيصنع لو أراد المجرمون أن يعتدوا على ضيوفـه؟ وسرعان ما وقع ما كـان يخشاه فقـد أقبل رجال القرية من قوم لوط، يريدون أن يتـحرشوا بأولئك الضيوف، وأخـذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى ويناقـشهم باللطف واللين، لعل فيهم من يرتدع عن غـيه وضلاله، ويخجل عن خزايتـه في ضيفه، ودعاهم إلى أن يتزوجوا ببنـات القرية فإن ذلك أكرم وأفضل، وأشـرف وأطهر. . . ولكن (الخـبثاء) صـارحوه بغرضـهم السيء وأنهم لا يرغبون إلا في أولئك الشباب المرد الحسان، فـازداد همه وغمه، وشعر الملائكة بذلك فأخبـروه بحقيقة الأمـر وأنهم ليسوا بشرًا إنما هم (الملائكـة) قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمرٍ من الله لأن أهلها كانوا ظالمين، اقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (سورة هود: ٧٧-٨١).

أخبـروه بحقيقـتهم وبمهمـتهم التي جاءوا من أجلهـا، وبأن القوم لن يستطيـعوا الوصول إليهم، وأمروه أن يخرج من أرض قـومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح لأن موعـد إهلاكهم سـيكون في وقت الصبـح، وسيكون ذلك الوقت مـوعد تدمـيرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

هلاك قوم لوط:

اطمأن لوط ـ عليه السلام ـ على ضيوفه، وترك قومه في ضجيجهم وجدالهم وأخذ يستعد للخروج من القرية قبل أن يدركه الصباح، وحين هجم القوم على بيت لوط ليأخذوا الضيوف بالقوة طمس الله أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (سورة القمر:٣٧)، وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خرابًا يبابًا فأهلكهم الله بأنواع من العذاب:

١ ـ قَلَبَ بهم القرى فجعل عاليها سافلها.

٢ ـ أرسل عليهم صيحة من السماء.

٣ ـ أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (سورة هود:٨٢).

وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (سورة الحجر:٧٣-٧٤).

زوجة لوط مع الهالكين:

وقد هلكت زوجة لوط مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله، فحل بها من السخط والعذاب ما حل بهم، ولم ينفعها أنها زوجة نبي فإن الله قد أوعد بإهلاك الكافرين، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف:٨٣)، قال السهيل: واسم امرأة لوط (والهة)، وقد نجا لوط ـ عليه السلام ـ مع ابنتيه من الهلاك.

ويقول بعض المؤرخين: إن البحر الميت. المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجودًا قبل هذا الحادث وإنما حصل من الزلزال الذي جعل عالي البلاد سافلها،

وصارت أخفض من سطح البحر بـنحو أربعمائة متر، وقد أثبتت الاكتـشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت.

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حـولها من الأراضي المتاخمـة لفنائها لردائتهـا ودناءتها، فصارت عـبرة ومثلة، وعظة وآية على قـدرة الله تعالى وعظمته وعـزَّته في انتقامه ممن خـالف أمره وكذَّب رسله واتبع هواه وعصى مولاه»[1].

مسألة مهمة:

قد يـتساءل المـرء هل تخون امـرأة النبي زوجهـا؟ وهل تقع منها جـريمة الزنى؟ فكيف أخبر الله عن زوجتي (نوح ولوط) أنهما خانتا أزواجهما؟؟

والجـواب أن هذا أمر مـستـحيل لا يمكن أن يقع لأن الله عـزَّ وجلَّ قد حـفظ الأنبياء من تلوث العـرض. ومن وقوع أزواجهن بالفاحشة، لأن ذلك يـؤذي سمعة الأنبيـاء الأطهار، ولهذا قال ابن عـباس: ما بغت امـرأة نبي قط. وهذا هو مذهب أئمة السلف والخلف.

وأما الكفر منهن فقد يقع، فقد كانت زوجة (لوط) كافرة، كما كانت زوجة نوح كافرة أيضًا، وقد ضرب الله المثل بهما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (سورة التحريم: ١٠)، والمراد بالخيانة هنا (الخيانة في الدين) حيث لم تؤمنا بالله، قال ابن كثير: فخانتاهمـا أي في الدين فلم تتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كـانتا على فاحشة، حـاشا، وكلا، فإن الله لا يقدِّر علـى نبي أن تبغى امرأته، ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرًا[2].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) «البداية والنهاية» (ص: ١٨٢جـ١).

محنة يوسف عليه السلام

إلقاء يوسف في الجب:

لم يجد يعقوب بدًا أن يرسل يوسف مع إخوته، لئلا يشعروا بأن أباه يخشى عليه منهم، فيدبروا له مكيدة في غيابه، فتظاهر بقبول كلامهم وأرسله معهم على كره ومضض، وما أن غابوا به عن عينيه حتى جعلوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه بسيء الكلام وقبيح المقال، ثم أجمعوا على إلقائه في غيابة الجب (أي في قعره) وكانت قليلة الماء. فلمَّا ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لابد من فرج ومخرج من هذه الشدة والضيق، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا، في وقت يكون لك فيه العزة والسيادة عليهم وهم لا يعلمون أمرك. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة يوسف:١٥)، مرت سيارة (قافلة) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه في الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء، فإذا غلام جميل الصورة، وسيم الخلق، قد تعلَّق بها فاستبشر الرجل وقال: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ﴾ (سورة يوسف:١٩)، وأسروه بضاعة حتى وصلوا إلى مصر، فباعوه على أنه عبد رقيق فاشتراه عزيز مصر واسمه (قطفير) من القافلة بثمن رخيص، واحتل عنده مكانًا حسنًا بسبب أمانته، وحسن خلقه، وصدقه ونزاهته، وكان ذلك على وجه التقريب سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد . . .

أما إخوة يوسف فقد رجعوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف قد لطخوه بدم شاة ذبحوها ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله، ولكنهم نسوا أن يخرقوا القميص ـ وآفة الكذب النسيان ـ فلم يفلحوا في هذا المكر، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (سورة يوسف:١٦-١٧)، قال بعض السلف: «لا يغرنك بكاء

المتظلم، فرب ظالم وهو باك كما فعل إخوة يوسف حين جاءوا أباهم عشاء يبكون»، وروي أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لما أتوه بقميص يوسف ملطخًا بالدم جعل يقلبه وينظر فيه ويقول: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني دون أن يمزق ثوبه!! يقول ذلك تعريضًا بكذبهم وإيذانًا لهم بأن صنيعهم ومكرهم لم يرج على أبيهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (سورة يوسف: ١٨).

محنة يوسف مع امرأة العزيز:

أقام يوسف الصديق في بيت عزيز مصر، منعمًا مكرمًا، وكان فائق الحسن والجمال، فلما شبَّ وكبر، عشقته امرأة العزيز (زوجة سيِّده) وشغفت به حبًا ودعته إلى نفسها، وكان ذلك بداية المحنة الثانية له، أما المحنة الأولى فقد كانت عندما حسده إخوته ورموه في الجب، ولقد كان يوسف طاهر النفس عفيف الخلق، مستقيم السيرة، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة، ووقف في وجه الشهوة والإغراء موقف المؤمن الحازم لأمرين اثنين:

أولهما ـ الإيمان بالله الذي غمر قلبه، والسيرة العطرة التي نشأ عليها في حجر أبيه وجده...

ثانيهما ـ أن زوجها هو سيِّده الذي أحسن إليه، وأكرم مثواه، وائتمنه على ماله وعرضه، فكيف يخونه؟ قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة يوسف: ٢٣).

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة، فغلقت الأبواب، وأحكمت الخطة، ودعته صراحة إلى نفسها، ولكنه امتنع وأبى، وأصرَّ على العصيان لأمرها، وغلبها الحب على حيائها، واستطارت الشهوة في نفسها فأمسكت به تريد أن تجبره على مواقعتها، ولكن خوفه من الله عصمه عن

ذلك فتجاذبا، وأخيراً أفلت من يدها وأمسكت بثوبه من خلف فتمزق الثوب، وظلت تلاحقه وهما يستبقان البـاب، هو يريد فتحه هربًا، وهي تحول بينه وبين الباب طلبًا، لتقضي مـنه لبانتها، وفي هذه اللحظة كـان قد وصل زوجها فوجـدها في هذه الحالة المريبة. . . وهنا يـبدأ الكيد الخبيث والمكر المدبر فـتنطلق صارخة باكـية لتظهـر أمام زوجها بالبراءة، زاعمة أن يوسف راودها عن نفسها، فامتنعت منه، وأنه قد عزم على عمل الفـاحشـة معهـا فهـربت منه، وفي لمحة عين يصـبح الطالب مطلوبًا، والظالم مظلومًا، وتصبح العقوبة واجبة لمن أراد أن يخون شرف سيده، ويهتك عرضه، وحقًا إنه الكيد والمكر والدهاء استـمع إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٥-٢٧)، شهادة صادقة، وحـجة مقنعة، شـهد بها طفل من أقـربائها، أنطقه الله بها لتكون العـقوبة الشديدة التي أرادتها له امرأة العزيز، وخلاصة الشهادة كما يلي:

إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعـة فلابد أن يُشق ثوبه من أمام لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفـسها، فالمنطق السوي أن يـكون الشق من الأمام، وإن كان يوسف هو الهارب وهي الطالبة فلابد أن يشق ثوبه من خلف ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (سورة يوسف: ٢٨-٢٩).

شيوع الخبر في المدينة:

شـاع الخبـر في أرجـاء المدينة، وأخذت ألـسنة النساء تلـوك في امرأة العـزيز، استـهجانًا ولومًا لـها على صنعها، كـيف تعشق سيـدة عبدها؟ وكـيف تهوى وتحب خادمها؟ وبلغ ذلك امرأة العزيز، فـأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، من ذوات الثراء

والجاه، ودبرت لهن مكيدة حتى يعذرنها في هذا الحب والغرام، هيأت لهن مكانًا يجلسن فيه، وقدمت إليهن طعامًا يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر، وفي تلك اللحظة أمرته أن يخرج عليهن، فبهرهن جماله، وألهاهن حسنه وتشاغلن عما في أيديهن فصرن يقطعن أيديهن ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة بألم جراحة الأصابع حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهن يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة، والعقل غارق والبصر شارد في الاستمتاع بجمال يوسف، والتأمل في محاسنه، ثم لم يمنعهن العتب والعذل إلا أن يعلن إكبارهن لذلك الجمال الفائق قائلات: ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة يوسف: ٣١)، وهنا باحت امرأة العزيز بسر عشقها له، بعد أن أوقعتهن في شباك غرامه، فقالت معاتبة لهن ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٣٢).

لقد كانت العدالة تقضي بأن يكرم يوسف على نزاهته وعفته وأن تعاقب زوجة العزيز على جناياتها وما اجترحته يدها، ولكن الأمر كان بالعكس فقد قُدم يوسف البريء النقي الطاهر، فدية لسمعة تلك التي استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت أن تلحق به عار الخيانة، فبرئت تلك المرأة وأدين يوسف، وحكم عليه بالسجن، فمكث في السجن سنوات عديدة تبلغ سبعًا[1]، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (سورة يوسف: ٣٥).

---

(١) لقد كان السجن أحب إليه من مواقعة الحرام، وانتقل - عليه السلام - من محنة إلى أخرى، ومن خصومة مع إخوته إلى خصومة مع امرأة العزيز وزوجها ونسوة المدينة، وكانت هذه المحن إلى المنح أقرب فإن الله عزَّ وجلَّ لا يضيع أجر المحسنين.

بين موسى عليه السلام وفرعون

هلاك فرعون وجنوده:

تمادى فرعون في كفره وعناده، ومخالفته لنبي الله وكليمه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ ولم تنفعه النذر، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، فتجهز موسى ومن معه وكانوا يزيدون على ٦٠٠ ألف مقاتل غير الذرية فخرج بهم في الليل وساروا في طريق البحر الأحمر ـ على خليج السويس ـ وأخذوا يجدون السير، واستيقظ فرعون فلم يجد موسى ولا بني إسرائيل حيث خلت منهم بلاد مصر، فجهز جيشًا عرمرمًا حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فرس، وكانت عدة جنوده تزيد على مليون وستمائة ألف[1] جندي، فلحقهم بالجنود وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس، وتراءى الجمعان فشعر بنو إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم، ولم يبق بينهم وبين الموت إلا ساعات أو لحظات، حين ذاك ضجوا بالعويل والصياح وقالوا: يا موسى إنا لمدركون، فسكن موسى روعهم، وأزال خوفهم فأخرج عصاه وضرب به البحر فانفلق بقدرة الله، فكان كل فرق كالطود العظيم، فسار موسى ومن معه على سطح البحر ـ بعد أن أصبح يابسًا ـ مسرعين مستبشرين بعد أن رأوا هذه الآية العظمى، التي تجتاز لها عقول الناظرين، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون ووصوله إلى البحر، فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان حتى لا يسلكه فرعون وجنوده، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله لأنه يريد إغراقهم فيه ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (سورة الدخان: ٢٤)، رهوًا: أي ساكنًا على هيئته التي هو عليها. فلما وصل فرعون رأى هذه

(١) ذكر هذه الرواية ابن كثير في «البداية والنهاية».

الآية الباهرة، ففزع وخاف أن يسلكه، ولكنه أظهر لجنوده التجلد والشجاعة ثم خاطبهم بقوله: «انظروا كيف انحسر البحر لي، لأدرك عبيدي الآبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي وعبادتي، لأردهم إلى مملكتي مقهورين مدحورين» وأخذ يشجع الجند لاقتحام البحر أمامه من أجل أن يفوز بالنجاة هو... ولكن هيهات فقد فات الأوان واقتربت ساعة الأجل، وجاء ملك من السماء فقاد فرس فرعون جهة البحر، فلمَّا رأته الجنود قد سلك البحر، اقتحموا وراءه مسرعين، فلمَّا أصبحوا جميعهم فيه أوحى الله إلى موسى أن أضرب البحر بعصاك فضربه فارتطم عليهم، وعادت أمواجه هائجة كما كان، فلم ينج منهم إنسان... إقرأ قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٦٠-٦٦).

وغرق الجيش جميعًا، وأما فرعون فلمَّا أصبح بين الأمواج على وشك الدمار والغرق، أعلن إيمانه واستسلامه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة يونس: ٩٠-٩١). فلم ينفعه إيمان ولا توبة بل هلك مع الهالكين إلى غمرات الجحيم.

بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل

لما أهلك الله فرعون وجنوده، ونجى بني إسرائيل من العذاب المهين، أمره أن يتوجه بهم إلى (بيت المقدس) فخرجوا حتى إذا كانوا في الطريق عطشوا عطشًا شديدًا، فشكوا إلى موسى متذمرين واستسقوه فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلمَّا ضربه انبجست (تفجرت) منه اثنتا عشرة عينًا لكل سبط من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها، وأرسل الله لهم (المن والسلوى) رزقًا منه جلَّ وعلا، يحصلون

عليه دون جهد أو تعب، ثم أمر موسى أن يدخل بهم الأرض المقدسة، التي كان قد وعدهم الله بها على لسان نبيه وكليمه موسى عليه السلام، فلما اقتربوا منها وجدوا فيها قومًا من الجبارين وهم من (الكنعانيين) ومن بقايا (الحيثانيين) فأمرهم موسى ـ عليه السلام ـ بالدخول ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس ولكنهم أبوا ونكلوا عن الجهاد، وجبنوا عن مقابلة عدوهم، وقالوا قولتهم الفاجرة لنبيهم الكريم ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٢٤).

يذكر المؤرخون أن موسى ـ عليه السلام ـ كان قبل أن يطلب إلى بني إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل من قبله أناسًا يأتون بالأخبار، ويقول المفسرون إنهم كانوا اثنى عشر رجلاً فرأوا من ضخامة أجسام أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم، فلمَّا عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فضعفت نفوسهم وخارت قواهم، ولم يعد لديهم طاقة للقتال أو الجهاد، وكان بنو إسرائيل قد ألفوا الذل والهوان منذ أن كانوا في أرض الفراعنة، وتحت سلطان الأقباط لذلك امتنعوا عن تنفيذ أمر الله وجبنوا عن جهاد الأعداء فألقاهم الله في التيه، وضيعهم في الصحراء (٤٠) أربعين سنة يسيرون ويحلون، ويرتحلون ويذهبون ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٢٦)، وكان ذلك عقوبة من الله تعالى لهم، حتى انقرض ذلك الجيل الذي عاش على الذل وألف الهوان وجاء من بعدهم من الأبناء الذين عاشوا في الصحراء على الحرية والعزة فدخلوا مع (يوشع بن نون) الأرض المقدسة.

العبرة من تاريخ بني إسرائيل:

وقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية، التي تقابل النعمة بالجحود، والإحسان بالعصيان، فقد أغدق الله عليهم نعمه، ونجَّاهم من كيد

عدوهم، وأهلك فرعون وجنوده، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل، وتنكروا لدعوة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء، وفعلوا ما تقشعر له الأبدان، وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، وغضب الله عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٦١)، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١١٧).

ولو أردنا أن نستقصي جرائم بني إسرائيل (اليهود) لضاق بنا المقام، وأحوجنا إلى مجلدات ضخمة فإن حياتهم سلسلة من الجرائم لا في حق البشرية فحسب بل في حق الأنبياء والرسل، وفي حق الذات العلية ذات الله تبارك وتعالى حيث اتهموا الله عزَّ وجلَّ بأنواع من الاتهامات الشنيعة، فقد اتهموه بالبخل والشح، ورموه بالعجز والظلم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... ﴾ (سورة المائدة: ٦٤).

وفاة موسى عليه السلام:

توفي كليم الله موسى ـ عليه السلام ـ بعد أخيه هارون ـ عليه السلام ـ في أرض التيه، ولم يدخل الأرض المقدسة ببني إسرائيل، وإنما دخلها بهم يوشع بن نون، وقد كان عمر موسى حين وفاته (١٢٠) سنة وقد روى البخاري في قصة وفاته حديث ملك الموت الذي جاءه ليقبض روحه فصكه موسى ففقأ عينه... وفيه يقول الرسول ﷺ: «لو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر قدر رمية بحجر»، صلى الله عليه وتغمده الله برحمته آمين.

اتهام مريم عليها السلام

يروى أن مريم لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من أقربائها يدعى يوسف النجار وكان من العباد الصالحين ـ وكان ابن خالها ـ على ما يروي ابن كثير، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج، فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء، قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكر وأنثى، قال لها: فأخبريني خبرك، فقالت: إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (سورة آل عمران: ٤٥)، فعرف أنها بريئة وأن الحمل الذي بها إنما هو بمشيئة الله وإرادته الحكيمة... وروى السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يومًا على أختها ـ زوج زكريا ـ فقالت لها أختها: أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أني أيضًا حبلى، فاعتنقتها وقالت لها (أم يحيى): إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى ـ عليه السلام ـ على يحيى، قال: وبلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة[(١)].

وقد شاع الخبر في بني إسرائيل أن مريم حامل، فما دخل على أهل بيت من الهم والحزن كما دخل على آل بيت زكريا، حتى اتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذي كان يتعبد معها في المسجد، واتهمها آخرون بزكريا ـ عليه السلام ـ، ويقول ابن جرير إنهم أرادوا قتله ففر منهم فلحقوه حتى أمسكوا به ثم نشروه بالمنشار فقتل صلوات الله عليه بأيدي اليهود المجرمين.

---

(١) انظر «البداية والنهاية» لابن كثير (ص: ٦٥) الجزء الثاني.

ولادة السيد المسيح عليه السلام:

المشهـور المستفـيض أن ميلاد عـيسى ـ عليه الـسلام ـ كان ببـيت لحم، وأنها لما هربت وخافت عليـه أسرعت به وجاءت إلى بيت المقدس، وقـد قصَّ القرآن الكريم علينا قصة ولادته في سورة مريم. . . وخلاصة تلك القصة أن مريم ـ عليها السلام ـ لما أتمت أيام حـملها وهي في بيت لحم اشـتد بهـا المخاض فـألجأها إلى جـذع نخلة يابسة، فـاحتضنت الجـذع لشدة الوجع وولدت عيـسى ـ عليه السلام ـ فـقالت عند ولادتها ـ لما قاسته من الآلام والتغرب، ولما خـافت من إنكار قومها واتهامهم لها عند رؤية وليدها ـ قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (سورة مريم: ٢٣). فقد تمنت الموت من جهة الدين، إذ خافت أن يظن بها الشـر والسوء في دينها، وتعير بين قومها وعشيرتها.

وضعت مـريم البتـول العذراء طفلهـا، وهزت جذع النخلة التي لا ثمـر فيـها، فتـساقط عليـها الرطب الجني الناضج، فـأكلت من الرطب وشربت من الـنهر الذي أجراه الله لهـا في مكان لا نهر فـيه، وكان كل ذلك إكـرامًا من الله تعـالى لها على إيمانها وصلاحها وطاعتها لله عزَّ وجلَّ، وعناية لوليدها عيسى عبد الله ورسوله.

وكان مـيلاد السيـد المسيح ـ عليه أفـضل الصلاة والتسليـم ـ يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر كـانون الأول. أي قبل ميلاد الرسول الأعظم ﷺ بما يزيد على ٦٠٠ عام، حـملت مريم وليدها الصـغير، وأتت به قـومها تحملـه على يدها، فلما شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم والخطب الجـسيم وأخذوا يظنون بها الظنون، كيف يكون لها وليـد وهي لم تتزوج بعـد؟ وزاد في هذا الفزع والاضطراب أنهم يعـرفون قومها وعشـيرتها، فهي من بيئة شريفة فاضـلة وأبوها (عمران) من السادة الأشراف، بل لقد كان رئيس العلماء، وأسرتها أسرة فضل وشهامة ودين، فكيف تأتي مريم بمثل هذه الجريمة النكراء، وتقترف عمل الفاحشة؟ وهنا سكتت مريم، وأشارت إلى وليدها

الرضيع ليتكلم معهم، وليجيبهم على أسئلتهم التي وجهوها إليها، والتهم التي اتهموها بها، فليس أدل على طهارتها وبراءتها من أن يتكلم هذا الطفل وهو لم يزل بعد في المهد ويجيبهم على تلك الاتهامات والافتراءات. . . إقرأ الآيات الكريمة من سورة مريم قصة ولادته عليه السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (سورة مريم: ٢٢-٣٣).

هيرودس يعزم على قتل المسيح:

في الزمن الذي ولد فيه السيد المسيح كان هناك حاكم ظالم يسمى (هيرودس) وقد حكم البلاد بأمر (قيصر أوغسطس) وقد بلغه عن طريق بعض الكهنة أنه ولد مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم، وقد تفرد بذكر هذه القصة إنجيل (متَّى) وإنجيل (برنابا) وأن يوسف النجار قد أمر في منامه بأن يذهب بالطفل (عيسى) وأمه (مريم) إلى مصر خشية عليه من بطش ذلك الحاكم الجائر، فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك (هيرودس) ولما هلك أُمِرَ يوسف في منامه بأن يأخذ الطفل وأمه ويرجع بهما إلى بلادهما لأن الذين يطلبون قتله قد هلكوا فرجع بهما[١].

(١) راجع «قصص الأنبياء» (ص: ٣٨٦).

دعوة السيد المسيح:

قام السيد المسيح يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه، في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة، وخرافات وأباطيل، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وحرفوا شريعة الله، وتلاعبوا بنصوص التوراة، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيهم، فبعث الله إليهم عيسى بن مريم ليردهم إلى الجادة، ويصحح ما دخل إلى شريعتهم من تحريف وتبديل، فقام صلوات الله عليه يبلغهم أوامر الله، ويعلمهم ما أنزل عليه من أحكام تشريعية جديدة، منها تحليل بعض ما كان قد حُرِّم عليهم في شريعة موسى ـ عليه السلام ـ بسبب بغيهم وعدوانهم، والتي كانت عقوبة لليهود في ذلك الحين، وقد حكى الله جلَّ ثناؤه على لسان السيد المسيح المهمة التي بعث من أجلها ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: ٥٠-٥١).

وقد أجرى الله على يد عيسى بن مريم المعجزات الباهرات تصديقًا لنبوته وتأييدًا لرسالته، كما سنبين ذلك عند ذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام.

وقد لقي السيد المسيح من اليهود تعنتًا واستكبارًا، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة ورؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف، حول مفاهيم الدين، وأصول الشريعة الربانية التي جاء بها من قبله موسى عليه السلام، والتي حرفها أولئك الظالمون المجرمون، فكان يحاج (الفريسيين) والكتبة، والكهنة[١]، فيدحضهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة... ولبث عيسى ـ عليه السلام ـ

(١) الفريسيون: هم الزهاد المنقطعون للعبادة، و(الكتبة) هم كتاب الشريعة والوعاظ، و(الكهنة) هم خدمة الهيكل والمعبد.

يجاهر بدعوته، ويجادل المنحرفين، من كهـنة، وكتبة، وفريسيين، ويدلهم على الله، ويأمرهم بالاستقامة، ويبين فساد طريقتـهم، ويفضح رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعًا، فقرروا التخلص منه.

اجتمع عظماء اليهود وأحبارهم، وتشاوروا في أمر المسيح، فقالوا: إنا نخاف أن يفسد علينا ديننا ويتـبعه الناس، فقال لهم رئيس الكهنة: لأن يموت رجـل واحد خير من أن يذهب الشعب بأسـره، فأجمعوا علـى قتله، فسعوا به لدى الحـاكم الروماني (بيلاطس البنطي) الذي كان حاكمًا على اليهود باسم الملك (قيصر) وزينوا له دعواهم بأنه يريد أن يكون ملكًا على الـيهود، وأنه يسـعى لتقـويض الحكم القـائم، وأوغروا صـدره حتى قـرر أن يتخلص مـن عيـسى ـ عليه السـلام ـ بالقـتل والصلب، على طريقتهم التي كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل، وعلم عيسى ـ عليه السلام ـ بمكر القوم به، فـاختفى عن أعين الرقبـاء حتى لا يعلم أحد من أعـوان الحاكم مكانه فيقبضوا عليه ويسلموه للقتل.

قتل يحيى عليه السلام

يروي المؤرخون في سـبب مقتل يحـيى بن زكريا ـ عليه السـلام ـ أسبابًا كثـيرة أشهرها ما رواه ابن كثير وذكره الشيخ النجار في كتابه (قصص الأنبياء) وهو ما يلي:

كان حاكم فلسطين (هيرودس) وكان رجلاً شريرًا فاسقًا، وكانت له ابنة أخ يقال لها (هيروديا) بارعـة الجمال فأراد عمـها أن يتزوج منها، وكانـت البنت وأمها تريدان هذا الزواج، فلمَّا علم يحـيى ـ عليه السلام ـ بذلك أعلن معـارضته بأن هذا الزواج محرم في الشريعة عند أهل الكتاب كما هو محرم عند المسلمين.

فحقدت أم الفتاة على يحيى وبيتت له مكيدة قتل، فزينت ابنتها (هيروديا) أحسن زينة، وألبستهـا أفخر اللباس، وأدخلتها على (هيرودس) فرقـصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فقـال لها: تمني علي!! فقالت له ـ كما علمتهـا أمها ـ أريد رأس يحيى بن

زكريا في هذا الطبق، فاستجاب لطلبها وأمر برأس يحيى فقتل ـ عليه السلام ـ وهو في الصلاة وذبح كما تذبح النعجة، ثم قدم رأسه في طبق والدم ينزف منه فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها.

هذه القصة تبين لنا مدى الظلم والطغيان الذي حلَّ بحكام بني إسرائيل، حتى تجرؤا على قتل الأنبياء، وسفك دماء الأبرياء من أجل شهوة طارئة أو في سبيل إرضاء رغبات أهل الفسق والضلال. المستهترين بحرمة الدين، وقدسية الشرائع السماوية، ولا عجب فإن بني إسرائيل (اليهود) هم أول من سنَّ هذه السنة السيئة وهي (قتل الأنبياء) حتى أصبح ذلك شعارًا لهم ورمزًا لطغيانهم وضلالهم، فمن (يحيى) إلى (زكريا) إلى التآمر على المسيح عيسى إلى أنبياء لا يحصي عددهم إلا الله سفكت دماؤهم بدون ذنب على أيدي أعداء الله (اليهود الخبثاء) وأعداء الإنسانية في كل حين وزمان، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن إجرام اليهود بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة المائدة: ٦٤)، وقال تعالى في بيان قتلهم الأنبياء: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٨٧).

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ٩١)، وقال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ (سورة البقرة: ٦١).

وفي حادثة مقتل يحيى ـ عليه السلام ـ قتل عدد كبير من العلماء الذين أنكروا على الحاكم طغيانه وظلمه ومنهم (زكريا) والد يحيى ـ عليهما السلام ـ ويشير بعض المؤرخين إلى أنه نشر بالمنشار بعد مقتل ولده يحيى كما مر سابقًا.

ويروى عن سعيد بن المسيب أنه قال: «لما قدم بختنصر الشام إذا هو بدم يحيى ابن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه بما حدث له، فَقَتَلَ على دمه سبعين ألفًا فسكن...» وبذلك انتهى شأن يحيى ـ عليه السلام ـ بتلك المأساة المفجعة.

وروى الحافظ ابن عساكر عن زيد بن واقد أنه قال: «رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير، وفي رواية كأنما قتل الساعة».

أقول: ليس هذا بغريب فقد ثبت في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكُل أجساد الأنبياء» (رواه أبو داود).

وجاء تلاميذ يحيى وأخذوا جثته بعد قتله فدفنوها، ثم جاءوا إلى المسيح عيسى ابن مريم وأخبروه بمقتل يحيى - عليه السلام - فحزن حزنًا شديدًا عليه ثم جهر بدعوته وقام في الناس واعظًا واتبعه خلق كثير إلى أن دبَّر له اليهود مؤامرة لقتله واغتياله فرفعه الله إلى السماء ونجاه الله من كيدهم.

أصحاب الكهف (١)

فتية آمنوا بربهم، وكانت خصومتهم مع قومهم حول معاني الإيمان والعقيدة فآثروا ما عند الله، وقد كانت قصة أصحاب الكهف والرقيم هي القصة الأولى في سورة الكهف، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهؤلاء الفتية المؤمنون كانوا قد خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم ولجئوا إلى غار في الجبل ثم مكثوا فيه نيامًا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة، وهذه القصة تبدأ بالآية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (سورة الكهف:٩)، ثم تنتهي عند الآية ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف:٢٦)، لقد طوى القرآن اسمهم ورسمهم وطولهم ويكفيهم وصف خالقهم لهم ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا

---

(١) راجع كتابي: «قصة أهل الكهف» سعيد عبد العظيم.

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (سورة الكهف: ١٣-١٤).

وقد بين سبحانه حالة البشر قديمًا وحديثًا، وكيف أنهم ينشغلون بالأشكال والأوصاف وأمور لا طائل تحتها ولا فائدة من ورائها عن الغايات والمقاصد ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٢٢)، فالفائدة حاصلة سواء كانوا ثلاثة أم أربعة، خمسة أم ستة، فلا داعي للانشغال بذلك عن المغزى الحقيقي وهو أنهم على حداثة سنهم، آثروا ما عند الله، تاركين حياة القصور، وكانوا أولاد أمراء كما تذكر بعض كتب التفسير وقالوا: ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (سورة الكهف: ١٥)، ودخلوا الكهف فرارًا بدينهم من الوثنية والكفر فكانوا آية وقصتهم حكاية تتلى ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (سورة الكهف: ١٦)، خرجوا من وسط قومهم مستعينين بالله، متوكلين عليه منيبين إليه قائلين: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (سورة الكهف: ١٠)، فما ضاعوا ولا خابوا عندما أوقعوا حاجتهم بالله ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (سورة الكهف: ١٧)، وما أعظم أن يحيا الإنسان بإسلامه ولإسلامه، ويؤثر دينه على الدنيا بمباهجها وزخارفها سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، رجلاً كان أم امرأة، وُجد في هذا العصر أو في غيره من العصور، بحيث تصبح حياته جهادًا في سبيل الله، وسعيًا من أجل إعلاء كلمة الله، والمسلم في جهاده هذا يعلم أنه ليس وحده، وأنه لا يواجه عدوه بكثرة عدد أو عتاد، وإنما يواجههم بالإيمان الصادق الذي يحمله، وبما يعلمه من تأييد الله للمجاهدين الصادقين، وبما ينزله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من

الصبر وقـوة التحمل وغيـر ذلك من الوسائل التي قد لا تتخـيلها عقول البـشر، لقد أجرى سبحانه على أيديهم كرامـات كثيرة، قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ (سورة الكهف:١١-١٢)، وقال: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (سورة الكهف:١٨)، وقال: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (سورة الكهف:٢٥)، بل لما صحبهم الكلب كـان له شأن وخبر وكان محـلاً للكرامـة، ولِمَ لا؟ ومصـاحبـة الصالحين صـلاح، وهم القوم لا يشـقى بهم جليسهم، وهذه القـصة ليست بطولة يهودية أو نصرانية، وإنما هي قـصة إسلام لوجه الله تعالى تحدث هنا وهناك في كل عصر ووقت، وقد تكون أنت صاحبها، هي قصة من يتعـامل مع الله ويخلص أمره لله ويفر بدينه من الفتن، ويخـرج من الواقع السيئ حتى لو أدى به ذلك أن يهـاجر من وطنه وأن يدخل غـارًا، إنها قصة فـتية، أتقـياء أخفـياء، ساروا على درب الأنبـياء والمرسلين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (سورة الأنعام:٩٠)، فلا حجة بعد ذلك في الكفر بخالق الأرض والسموات، وقد رجح ابن جرير والكثيـرون أن الفتية كانوا على دين عـيسى ـ عليه السلام ـ ومال ابن كـثير إلى غير ذلك فقال: وقد ذُكر أنهم كـانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم، إلى أن قال: والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصـرانية بالكلية، فإنهم إن كانوا على دين النصرانية مـا اعتنى أحبار اليهود بخـبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقـال ابن إسحاق: طغى أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا حتى عبدوا الأصنام وذبحوا لها وبقى فيهم من هو على دين المسـيح مـتمـسكًا بدينه وبعبـادة الله وحده، وكـان بالروم ملك يقـال دقيانوس عـبد الأصنام وذبح للطواغيت، وكان يحـمل الناس على ذلك، ويقتل من خالفه، فمر بمدينة أصحاب الكهف، وهـي مدينة من الروم يقال لها أفسوس، ولما مر دقيانوس بالمدينة اختفى منه أهل الإيمان فكان يبعث أعـوانه ليحضرهم، فخيروهم بين الشرك والقتل، إلى أن استدعى الـفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وطلب منهم

أن يشركوا، وأن يذبحوا للطواغيت، فامتنعوا فهددهم بالقتل، فربط الله على قلوبهم، وثبتهم على التوحيد، ثم بدا له فأمهلهم ليراجعوا أنفسهم في مصيرهم.

ثم إن الإمبراطور رحل إلى مدينة أخرى لبعض شأنه ثم عاد ليطلبهم فلم يجدهم فقد فروا بدينهم من فتنة الشرك واعتزلوا المشركين، وأووا إلى كهفهم ومعهم بعض النقود وبعض الطعام ومعهم رقيمهم «كتابهم المرقوم الذي فيه معتقدهم» وتذكر كتب التفاسير أنهم دخلوا الكهف ومعهم كلب، فلما طلبهم الإمبراطور دعوا الله ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (سورة الكهف: ١٠)، وناموا فكانت النومة التاريخية التي صارت مضرب المثل: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (سورة الكهف: ١١)، وكان باب كهفهم إلى جهة الشمال وذلك من رحمة الله تعالى بهم حتى لا يؤذيهم شروق الشمس ولا غروبها، وقلّبهم الله على جنوبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم، ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (سورة الكهف: ١٨)، وفي ذات الوقت تأكيداً لحياتهم، ثم بعث الله الفتية ليتساءلوا بينهم، كم لبثوا؟ وفي حيرة من أمرهم، قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وفي تسليم لله قالوا: ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ (سورة الكهف: ١٩)، وفي تسليم لله قالوا: ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ (سورة الكهف: ١٩)، وحذروهم: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (سورة الكهف: ٢٠)، وخرج المتلطف الحذر، فرأى كل شيء قد تغير في المدينة، ودفع ما معه من النقود إلى رجل يبيع الطعام، فتعجب التاجر لأن هذه العملة كانت على عهد دقيانوس، وقد هلك هذا الطاغية المشرك، وبقيت تحمل اسمه، وشاع الخبر في المدينة وما حولها، واجتمع الناس من هنا وهناك ليروا هذه الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ (سورة الكهف: ٢١).

وهكذا تظهر حكمة الله التي خفيت وينكشف سر الغيب الذي ادخره الله ليظهر في حينه، لقد بعث أهل الكهف، ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب

فيها وكانوا مـن قبل بين منكر ومصدق، فجاء العثور على أهل الكهـف حجة قاطعة وبرهانًا ساطعًا على البعث والحياة الآخرة.

ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس ما خلاصته أن كفار قريش بعثوا النضر بن الحارث وعقبـة بن أبي معيط إلى أحبار يهـود بالمدينة ليسألوهم عن محمـد ﷺ ويصفوا له صفته، وما يدعـو إليه فإنهم أهل الكتاب وعندهم نبأ الأنبياء، فلمـا كلموا اليهود في ذلك أشاروا على كفار قريش بأن يسـألوا النبي ﷺ عن أشياء قالوا لهم: سلوه عن فتيـة ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟، وسلـوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغربهـا ما كان من نبأه ـ يعنون ذا القرنين ـ وسلوه عن الروح، فـإن أخبركم بذلك فهو نبي مرسل، فاتبعوه وإلا فهو رجل يقول، فاصنعوا ما بدا لكم.

وسـأل كفـار قـريش الرسـول ﷺ عن الأمـور الثلاثة، فـقـال لهم ﷺ: «أخبركم غداً»، ولم يستثن ـ لم يقل: إن شاء الله ـ فاستلبث الوحي وشق عليه، ثم جاء جبريل ـ عليه السلام ـ بسورة الكهف وفـيها معاتبة في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (سورة الكهف: ٢٣-٢٤).

صاحب يس(١)

قصة صاحب يس خصومة رجل مع قـومه وهي من أبلغ ما قصه ربنا جلَّ وعلا في كتابه، لِمَا فيهـا من العظات والعبر، فهي قصة رجل من الأتقيـاء الأخفياء، جهل قيمـته أهل الأرض بينما كـان له ذكرٌ وخبر في أهل السـماء، هو رجل تابع المرسلين وآمن بهم، وبغض النظر عن حرفته وصنعته وعن اسمه ورسمه، وطوله وشكله. . .

فقد بقيت قصته مثلاً يُحكى، قيل: كان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يعكف على عـبادة الأصنام سـبعين سنة يدعوهم، لعلهـم يرحمونه ويكشـفون

(١) راجع كتابي «قصة صاحب يس» سعيد عبد العظيم.

ضُرَّه فـما استجـابوا له، فلما أبصر الرسل دعـوه إلى عبادة الله فـقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القـادر فيفرج عنك ما بك، فقـال: إن هذا لعجب لي، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تسـتطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة، قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر. فآمن ودعوا ربهم، فكشف الله مـا به، كأن لم يكن به بأس، فـحينئذ أقـبل على التكسب، فـإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفًا وتصدق بنصف، فلما همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس: ٢٠)، قال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبـر المرسلين جاء يسعى، فقـال للمرسلين: أتطلبون على ما جـئتم به أجرًا؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على الله، قـال أبو العالية: فاعتقـد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومـه فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ (سورة يس:٢١)، أي لو كانوا مـتهمين لطلبوا منكم المال ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة يس:٢١)، فاهتدوا بهم، قـال قتادة: قال له قومـه: أنت على دينهم؟ فـقال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (سورة يس:٢٢)، أي خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس:٢٢)، وهذا احتجـاج منه عليهم، وأضاف الفطرة على نفـسه، لأن ذلك نعـمة عليـه توجب الشكر، والبعث إلـيهم، لأن ذلك وعـيد يقتضي الزجر، فكان إضافة النعمة إلى نـفسه أظهر شكرًا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرًا، قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ (سورة يس:٢٣)، يعني أصنامًا ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ﴾ (سورة يس:٢٣)، يعني مـا أصابه من القـسم ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ (سورة يس:٢٣)، يخلصـوني مما أنا فيه مـن البلاء ﴿إِنِّي إِذًا﴾ (سورة يس:٢٤)، يعني إن فعلت ذلك ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يس:٢٤)، أي خسران ظاهر ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (سورة يس:٢٥)، قال ابن مـسعود: خاطـب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم، ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاشـهدوا أي كونوا شـهود بالإيمان، وقـال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به، وقيل إنه لما قال لقومه: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس: ٢٠)، رفعوه إلى الملك، وقالوا: قد تبعت عدونا؟، فطول

معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل، إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه، وفي طريقة قتله أقوال كثيرة، والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له: ادخل الجنة قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق، أراد قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران:١٦٩)، ثم لما قُتل صاحب يس قال: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يس:٢٦-٢٧)، وكأنه تمنى أن يعلموا بحاله ليتعلموا حسن مآله وحميد عاقبته، أو تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله. قال ابن عباس: نصح قومه حيًا وميتًا، قال القرطبي: «وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام» اهـ.

فلما قُتل صاحب يس غضب الله وعجل النقمة على قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس:٢٨-٢٩)، أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله، قال قتادة ومجاهد والحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء، وقيل: الجند العساكر، أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش، ولا عساكر، بل أهلكتهم بصيحة واحدة، قال معناه ابن مسعود وغيره، وكأن القوم هانوا على ربهم بعد مصرع صاحب يس، فما احتاجوا إلا إلى صيحة واحدة، صاروا بها ميتين هامدين، وقيل: إن الكفار لما رأوا العذاب قالوا: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ (سورة يس:٣٠)، فتحسروا على قتلهم، وترك الإيمان بهم، فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم الإيمان، وقال مجاهد وقال الضحاك: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل، وكأنه حال مطرد، ففي الذاريات قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن

رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٥٢-٥٣)، وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (سورة ق: ١٢-١٤)، فالتكذيب هو هو، مما يَدُلك على قلة من يتعظ ويعتبر بمصارع الهلكى، والناظر في قصة صاحب يس سيلمس دروسًا كثيرة، منها ما يتعلق بالدعوة إلى الله والهمة العالية التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، فصاحب يس أتى من أقصى المدينة يسعى فلم يتوان ولم يتكاسل، ولم يبذل لدعوته الفتات من وقته، يتكلف لها السفر ويستصحبها معه في حاله وترحاله، ثم دعوته هي دعوة الاتباع التي لا ابتداع فيها ولا اختراع، يركز فيها على معاني التوحيد، وذلك لأن تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى، والداعية إلى الله ينبغي أن يكون على بصيرة وعنده المقدرة على سوق الحجج والبراهين للمدعوين، وإزالة ما يعلق بنفوسهم من شبهات، ولا ينس في غامرة ترغيبه وترهيبه وتذكيره بالله واليوم الآخر، أن يبدأ بنفسه، وأن تكونَ دعوته بالسلوك أبلغ من دعوته بالقول ولذلك قال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٢٢)، وقد يقدم الداعية نفسه رخيصة في سبيل دينه، ويقوم في موطن يعرضه للقتل محتسبًا ذلك عند الله كما فعل صاحب يس، فهو عندما جاء من أقصى المدينة يسعى وكان يعلم أنه لن يكون أكثر وأشد حرمة من المرسلين الثلاثة الذين قُتلوا، أي أنها نهاية محتومة، وعلى الرغم من ذلك واجه مصرعه، بإيمان ويقين، إن موقف الداعية يفترق عن موقف السياسي، فلا نفاق ولا كذب ولا مداهنة على حساب الحق، وقد يقول البعض: إن صاحب يس أضاع نفسه، والأمر ليس كذلك، فلا ضيعة ولا خيبة على من تعامل مع الله، فهل ضاع من باع قليلاً بكثير وفانيًا بباق وظلاً زائلاً وعاريةً مسترجعةً بجنةٍ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟! لقد انتقل من دار إلى دار والفارق خروج نفسه، والكل يموت ولكن هل الكل ينتقل شهيدًا إلى ربه؟! إن الحياة تمتد زمانًا ومكانًا في نظر المؤمن

زمانًا لأبد الآبدين، ومكانًا إلى جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، ومن هنا تلمح لماذا طوى القرآن طريقة قتله ومصرعه، واكتفى بذكر الفائدة وهي أنه نصحهم حيًا كما نصحهم ميتًا، وإلا فكل نفس ذائقة الموت وكانوا يقولون من لم يمت بالسيف مات بغيره، وكأن حب الخير كان يجري منه مجرى الدم من العروق، وهذه هي الشفقة الحقيقية ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يس:٢٦-٢٧)، وهذا المعنى شبيهه بحالة شهداء أُحد كعبد الله بن حرام وغيره عندما قتلوا شهداء قالوا: من يبلغ عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى الله عنا ورضينا عنه، فكان هذا البلاغ المبين ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة آل عمران:١٦٩-١٧٠).

إن حرمة المؤمن عند الله عظيمة، بل لَزَوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس:٢٨-٢٩)، وكان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول: إن الله عظمك وشرفك وحرمك، وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

فليعتبر هؤلاء الذين يقتلون أولياء الله دون وجه حق، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا.

عبد الله الغلام

خصومة غلام ومن آمن معه كالراهب والأعمى وأصحاب الأخدود في مواجهة الملك الطاغية وجنده وحاشيته.

ورد في صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «**كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه**

فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور «سفينة صغيرة» فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي

حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي «جعبة السهام» ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها. أو قيل له اقتحم. ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق»[1] (رواه الترمذي بمعناه)، وفيه: «**وكان على طريق الغلام راهب في صومعة**»، قال معمر: «أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين»، وفيه أن الدابة التي حبست الناس كانت أسداً وأن الغلام دفن - قال - فيُذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قُتل، وقال حديث حسن غريب، وقد حكت سورة البروج قصة أصحاب الأخدود، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (سورة البروج: ٤-١٠).

وهذه القصة لغلام من جملة الأتقياء الأخفياء ما نعلم لونه ولا سنه ولا طوله ولا اسم أبيه... ومع ذلك فهي قصة تدل دلالة واضحة على أن معاني الإيمان والصبر والثبات على طاعة الله ليس لها سن معين، وأن الغلام بفطرته السوية كان يميل للراهب الذي كان على الحق أكثر من ميله للساحر المبطل، وفيها حرص الملك

(١) رواه مسلم وغيره.

على استمرار صنعة السحر، وهكذا شأن المنحرفين في كل عصر في الوقت الذي تضيق فيه صدورهم بالحق وأهله، وقد قدم الغلام روحه رخيصة في سبيل إعلاء كلمة الله وهو الذي دل الملك الطاغية على طريقة قتله، وفي القصة صور من إكرام الله لهذا الغلام على الرغم من حداثة سنه، فقد قتل الدابة العظيمة بحجر صغير، وكان يُبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، كما كان مجاب الدعوة، ثم وُجد على النحو الذي مات عليه، وذلك بعد مئات السنين، ويده على صدغه كلما أزاحوها انبثق الدم من جرحه، فكان بذلك آية بينة على عظيم قدرة الله جلَّ وعلا وإكرام الله لأولياءه في حياتهم وبعد مماتهم.

قال القرطبي: قال علماؤنا: أعلم الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه من وَحَّد قبلهم من الشدائد، ويؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم، وقال ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا... قلت ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصَلُب دينه أولى، قال الله تعالى مخبرًا عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (سورة لقمان:١٧)، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(١)، وروى سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضئ النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: أوصني. فقال:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني.

«لا تشرك بالله شيئًا وإن قطعت أو حُرقت بالنار»[(١)] الحديث، قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك اهـ.

وقد ذكر النبي ﷺ خباب بن الأرت رضي الله عنه بقصة هؤلاء الذين نشروا بالمناشير وذلك عندما أتاه يقول له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا، وكان خباب ممن يُؤذَى في سبيل الله، والحديث رواه البخاري.

المؤمن وصاحب الجنتين

الخصومة قد تحدث بين المرء وأخيه وصاحبه، ولما كانت الدنيا والآخرة حسبة واحدة فإن المشاهد تتواصل كما حدث في قصة المؤمن وصاحب الجنتين.

إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابًا لمحسن أو عقابًا لكافر، وقد ضرب الله مثلاً لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (سورة الكهف: ٣٢-٣٤)، قيل نزلت في الأخوين من أهل مكة مخزوميين أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة، وقيل هو مَثَل لجميع من آمن وجميع من كفر، وقيل: هو مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه، وشبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس والآخر كافر واسمه قرطوش، وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات، قيل كانا شريكين ثم اقتسما المال،

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

فأنفق المؤمن مــاله في طاعة الله، وأما الآخـر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشـترى دواب وبقرًا فاستنتجـها فنمت له نماء مُفرطًـا، وأتجر باقيها فـربح حتى فاق أهل زمانه غنى، وأدركت المؤمن حــاجة، فأراد أن يسـتخدم نفسه في جنة يخـدمها فـقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فـجاءه فلم يكد يصل إليــه من غِلظ الحجـاب، فلما دخـل عليه وعـرفه وسأله حـاجتـه قال له: ألم أكن قاسـمتك المال نصـفين! فما صنـعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خيـر منه وأبقى، فقال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيـهًا، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صـنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحـسن الحال، وذلك أني كسبت وسفهت أنت، اخرج عني، ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمـره وذهابها أصلاً بما أرسل الله عليها من السمـاء من الحسبان، قيل: إن الله تعالى توفـى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما اسـتقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقـبل هو وأصحابه يتسـاءلون فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ (سورة الصافات: ٥١-٥٢)، فنادى مناد: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصافات: ٥٤-٥٥)، فنزلت: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾ (سورة الكهف: ٣٢)، بين الله تعـالى حال الأخـوين في الدنيـا في هذه السورة - سـورة الكهف - وبين حالهمـا في الآخرة في سورة الصافـات في قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ (سورة الصافات: ٥١-٥٢)، إلى قوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (سورة الصافات: ٦١).

قال تعالى حاكيًا عن الكافر صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (سورة الكهف: ٣٥-٣٦)، قيل: أخـذ بيد أخيـه المؤمن يُطيف به فـيهـا ويريه إياها، وكان كـافرًا

ظالمًا لنفسه منكرًا البعث، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (سورة الكهف:٣٦)، وإن كان بعث فكما أعطاني هذه النعم في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه، وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر، فلما سمع المؤمن ذلك وعظ الكافر ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:٣٧-٣٨)، بيَّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التي لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة، ثم تواصل الحوار فقال المؤمن للكافر على سبيل التوبيخ والوصية له والرد عليه: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (سورة الكهف:٣٩-٤١)، أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع، وكان الكافر قد قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ (سورة الكهف:٣٥).

قال العلماء: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة**»، **أو قال:** «**كنز من كنوز الجنة**»، **قلت: بلى يا رسول الله، قال:** «**لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عزَّ وجلَّ: أسلم عبدي واستسلم**»[1].

وأصبح الكافر يضرب إحدى يديه على الأخرى ندمًا، فقد أحيط بثمره، أي أُهلك ماله كله، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:٤٢)، أي ياليتني عرفت نعم الله عليَّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به، وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني.

وخُتمت القصة بقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (سورة الكهف: ٤٣-٤٤).

أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضل عنه من افتخر بهم من الخدم والولد وعَلِمَ بذلك أن الله خير ثوابًا في الدنيا والآخرة لمن آمن به، فالعاقبة للمتقين والنصر عقبى الصابرين، والله لا يضيع أجر المحسنين ولا يصلح عمل المفسدين.

مؤمن آل فرعون[1]

لقد كانت خصومة هذا الرجل مع فرعون والملأ، خصومة محكوم مع حاكمه.

وقع الحق في قلب مؤمن آل فرعون، عندما سمع دعوة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ وقيل كان ابن عم فرعون كما ذكر السُّدي وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: **«لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي قال:** ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (سورة القصص: ٢٠)»[2]، لقد اصطفاه سبحانه واجتباه من وسط ركام الكفر والضياع، فهو من آل فرعون، وما أعظم الفارق بينه وبين فرعون وآله، إنه رجل أطلق الله بصيرته، فلم ترهبه صولة الباطل، ولا كثرة الانحراف، وتابع نبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، معتصمًا بالله، مؤثرًا ما عنده سبحانه، وقد وصفه القرآن بأنه رجل ـ والرجال قليل ـ، وبأنه مؤمن، وما من إنسان قد علم الغاية التي من أجلها خُلق إلا ويتمنى أن يوصف بوصف الإيمان، فعندما تأتي هذه الشهادة من خالق الأرض والسموات، ممن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وممن أحاط بكل شيء علمًا، فأنعم بهذا الوصف والثناء: وكعادة القرآن الكريم، فقد طوى عنا اسمه ورسمه وسنه وطوله وشكله... مما لا طائل تحته ولا فائدة من وراء معرفته،

(١) راجع كتابي «قصة مؤمن آل فرعون» سعيد عبد العظيم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

لتبقى قصته درسًا في إخلاص الأمر لله، وعبرة لكل من أراد أن يتاجر مع الله، وعظة لكل من أراد أن يقيم واجب العبودية، حتى لو خفى اسمه على أهل الأرض يكفيه أن يُعرف في أهل السماء ويكون من جملة الأتقياء الأخفياء، فإذا ما زمجر الباطل من حولك، واشتد الظلم والظلام، فانهض على ساق عزمك، وجدد الوعظ القديم، وردد على المسامع ما قاله مؤمن آل فرعون، لقد كان يكتم إيمانه بعد أن وقع الحق في قلبه، ولهذا قام يدفع عن موسى - عليه السلام - ويحتال لدفع القوم عنه فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (سورة غافر:٢٨)، وفي هذا إشارة إلى التوحيد والدلائل الدالة عليه، صاغه على سبيل الاستفهام الإنكاري، فما سب ولا لعن لكنه تسلل إلى قلوبهم بالنصيحة الرقيقة الممزوجة بالتخويف والإقناع، قال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة غافر:٢٨)، ومن المعلوم أن من هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفًا كذابًا، وهذا تعريض بفرعون، فقد كان مسرفًا في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على إدعاء الإلهية.

انتقل مؤمن آل فرعون بعد ذلك إلى تخويفهم من عذاب الله فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (سورة غافر:٢٩)، يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به، ولما علم فرعون بظهور حجته قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (سورة غافر:٢٩)، لقد أخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة، تأخذه العزة بالإثم، ويرى في النصح الخالص اعتداءً على سلطانه، ونقص من نفوذه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان، لقد كان ادعاء فرعون عاريًا من كل برهان ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (سورة هود:٩٧)، ثم إن مؤمن آل فرعون وكأنه لم يعبأ بقول فرعون فاستمر في تحذيره: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا

لِّلْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٣٠-٣١)، ومن المعلوم أن قوم فرعون لم يقلوا في كـفرهم وعتوهم عن هؤلاء الهلكى، وليسـوا بأشد قوة من هذه الأمم المعذبة، فوجب الاعـتبار بالأمم الغابرة والاتعاظ بأحوالهم، ثم أفصح عن إيمانه، إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل أو واثقًا بأنهم لا يقصدونه بسوء فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (سورة غافر: ٣٢-٣٣)، وهو اليوم الذي تنادي فـيه الملائكة الذين يحـشرون الناس للمـوقف، وسمي بيـوم التناد، لمناداة الناس بعضهم بعضًا، وهذا إفصاح منه عن إيمانه بالله واليوم الآخر.

وأمام مراوغة فـرعون واستهتاره، وإصراره على الكفر لم يجـد مؤمن آل فرعون إلا أن يلقي كلمته الأخيرة مدوية صريحة: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (سورة غافر: ٣٨)، وانتقل بهم من الإجمال إلى التفصيل، فـبين حقارة الدنيا، وأنه يستمتع بها في أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، بعكس الآخرة فهي دار القرار ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (سورة غافر: ٣٩)، فالذي يؤثر الدنيا على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، كما قرر المؤمن لقـومه قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة غافر: ٤٠).

وكان تعجبـه من سفههم قد بلغ منتـهاه فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (سورة غـافر: ٤١)، يعني أنا أدعوكم إلى الإيمـان الذي يوجب النجاة وتدعونني إلى الـكفر الذي يوجب النار، لقد دعـاهم إلى الحيـاة الحقيـقية والسـعادة الأبدية، فكانت دعـوتهم له للدخول في كـفرهم هي جزاؤه، ومكافـأته!!! وهم لم يدعوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب فالكفر سبب الخلود في النار، والمؤمن يخاف أن يعود في الكفر كما يخاف أن يقذف في النار ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (سورة غافر: ٤٢).

لقد أعلن الرجل إيمانه وجهر بالحق في مواجهة فرعون وملأه بلا تردد ولا تلعثم، فلا يبق بعد ذلك إلا أن يفوض أمره إلى الله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة غافر: ٤٤)، لقد قال كلمته وأراح ضميره، مهددًا إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى، والأمر كله لله.

لقد طويت الدنيا، وعُرضت أول صفحة بعدها، فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى، وقد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملأه، فلم يصبه من آثارها شيء من الدنيا، ولا فيما بعدها أيضًا، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (سورة غافر: ٤٦).

لم يقصر مؤمن آل فرعون في تقرير الدين الحق، وفي الذب عنه، ولم يسلمه سبحانه لأعدائه، بل تولى عنه رد كيد الكافرين وقصد القاصدين ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ (سورة غافر: ٤٥)، أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى ـ عليه السلام ـ وأما في الآخرة فبالجنة، وكان المؤمن لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه.

آسية بنت مزاحم

الخصومة قد تحدث بين المرء وزوجه، كما حدثت بين آسية بنت مزاحم وزوجها فرعون، هي امرأة اعتزت بإيمانها، وآثرت ما عند الله على متع الدنيا الزائلة.

إن الأتقياء لا يقصرون على هذه الأمة، منهم الكبار والصغار، والرجال والنساء، ومن جملة هؤلاء آسية بنت مزاحم، امرأة فرعون، وهي التي ضُرب بها المثل في كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة التحريم: ١١).

قال يحيى بن سلام: قوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة التحريم: ١٠)، مثلٌ ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم بنت عمران، ترغيبًا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين، وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون، وكانت آسية آمنت بموسى، وقيل: هي عمة موسى آمنت به، قال أبو العالية: اطَّلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها، فقال لهم: إنها تعبد ربًا غيري، فقالوا له: أقتلها. فأوتد لها أوتادًا وشد يديها ورجليها فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ ووافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، وقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذبها وهي تضحك. فقبض روحها، وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذب بالشمس، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها. وقيل: سمَّر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى، فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة، وقال الحسن: إنه من دُرة، ولما قالت: ونجني، نجاها الله أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم.

فهذه امرأة مؤمنة، أقامت تحت فرعون إقامة اضطرار، وكان زوجها من أكفر الخلق برب العالمين، فقد ادعى الربوبية والألوهية مع الله، فما طاوعته على ذلك، بل أنابت إلى الله في عسرها ويسرها، وجأرت إلى الله بالدعاء تسأله النجاة من فرعون وعمله بالكفر والظلم والشماتة، كما تسأله النجاة من القوم الظالمين وهم القبط، أهل مصر، فما تخلفت عنها الإجابة، فقد رفعها الله مكانًا عاليًا، وبنى لها بيتًا في الجنة، وصارت قصتها مثلاً يُضرب.

الخصومة مع أبرهة وأصحاب الفيل[(١)]

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل).

قال ابن إسحاق: ثم إن أبرهة بنى القليس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك وليست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السهيلي أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أنواعًا من السخر، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا وأحجارًا وأمتعة عظيمة وركب فيها صلبانًا من ذهب وفضة، وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًا واتساعها باهرًا، فلما هلك بعد ذلك أبرهة وتفرقت الحبشة كان من يتعرض لأخذ شيء من بنائها وأمتعتها أصابته الجن بسوء، وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كعيب وامرأته ـ وكان طول كل منهما ستون ذراعًا، فتركها أهل اليمن على حالها، فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجرًا حجرًا ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق: فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة الذين ينسئون شهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم كما قررنا ذلك عند قوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (سورة التوبة:٣٧)، قال ابن إسحاق: فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيه ـ أي أحدث ـ حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق

(١) «البداية والنهاية» باختصار.

بأرضه فأخبر أبرهة بذلك. فقال: من صنع هذا؟، فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فقعد فيها، أي أنه ليس لذلك بأهل. فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه، فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيرًا، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرًا لك من القتل. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق وكان أبرهة رجلاً حليمًا ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم وهما شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيرًا فأتي به فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة، فخلى سبيله وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبحث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق: واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه تعظيم الكعبة. قال: فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال

حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس وقد تقدم في قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلاً منهم، وكان يمتنع بالحرم فلما خرج منه أصابه حجر فقتله، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب»، فحفروا فوجدوهما، قال وهو أبو ثقيف.

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضًا والله أعلم، وقد قال جرير:

إذا ماتَ الفرزدق فارجموه ❊ كرجمكم لقبر أبي رُغال

الظاهر أنه الثاني

قال ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود ابن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله. ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له أن الملك يقول إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فائتني به، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان له صديقًا

ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشيًّا ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، قال: أفعل، فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال فائذن له عليك فليكلمك في حاجته فأذن له أبرهة، قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك، فقال له: ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟!، فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًا سيمنعه، فقال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، فرد على عبد المطلب إبله.

قال ابن إسحاق: ويقال إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر بن نفاثة بن عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا؟.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رءوس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ـ:

لاهُمَّ إن العبد يمنع ... رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غدواً محالك
إن كنت تاركهم ... وقبلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. وقال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال: أبرك محمود وارجع راشدًا من حيث أتيت، فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه، فبرك الفيل.

قال السهيلي: أي سقط إلى الأرض وليس من شأن الفيلة أن تبرك وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان[1] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها

---

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن البلشون فإنه يشبه الخطاطيف.

حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك وليس كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمت قيحا ودما حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ، كان مما يعدد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل).

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا التفسير بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة.

قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات ولم تتكلم لها العرب بواحد علمناه، قال: وأما السجيل فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب، قال: وزعم بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة وأنها سنج وجل[1] فالسنج الحجر والجل الطين، يقول الحجارة من هذين الجنسين الحجر

(١) أصله (سنك وكل) ولما لم تتلفظ العرب بالكاف بدلوها بالجيم فقالوا سنج وجل وركبوهما كلمة واحدة فهي مستعربة أهـ.

والطين، قال: والعصف ورق الزرع الذي لم يقصب، وقال الكسائي: سمعت بعض النحويين يقول واحد الأبابيل أبيل وقال كثيرون من السلف: الأبابيل الفرق من الطير التي يتبع بعضها بعضًا من ههنا وههنا، وعن ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب، وعن عكرمة: كانت رؤوسها كرؤوس السباع خرجت عليهم من البحر وكانت خضرًا. وقال عبيد بن عمير: كانت سودًا بحرية في مناقيرها وأكفها الحجارة، وعن ابن عباس: كانت أشكالها كعنقاء مغرب وعن ابن عباس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان ومنها ما هو كالإبل، وهكذا ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق، وقيل كانت صغارًا والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيرًا أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين في رجليه وحجرًا في منقاره قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحًا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعًا.

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال: وليس كلهم أصابته الحجارة يعني بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حل بقومهم من النكال وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله، وروى ابن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان، وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنيسًا فأما قائده فلم يسم والله أعلم.

وذكر النقاش في تفسيره أن السيل احتمل جثثهم فألقاها في البحر، قال السهيلي وكانت قصة الفيل أول المحرم من سنة ست وثمانين وثمانمائة[١] من تاريخ ذي القرنين.

قلت وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر الله فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره ويوقره ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة بل عماد دينه وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة: فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصًا وتوطئة لبعثة محمد ﷺ.

قصة قابيل وهابيل[٢]

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٢٧-٣١).

---

(١) كذا بالأصل والذي في السهيلي سنة اثنتين وثمانين... إلخ اهـ.
(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير باختصار.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك، فذكر السدي عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم ـ عليه السلام ـ أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قربانًا وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السموات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك. فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وقال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرًا لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته، وقيل بل خنقه خنقًا شديدًا وعضا كما تفعل السباع فمات والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة المائدة:٢٨)، دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل

والمقتول في النار»، قالوا: «يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟!»، قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»، وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة المائدة:٢٩)، أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك أي تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك قاله مجاهد والسدي وابن الجرير وغير واحد وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض قال فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب»، فلا أصل له ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضًا ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم والقتل.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي»، قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؟ قال: «كن كابن آدم»، ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعًا وقال: «كن كخير ابني آدم»، وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» (رواه الجماعة سوى أبي داود).

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة

ذلك، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير وقال إنه كان من الصالحين أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل إن هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس، وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (سورة المائدة: ٣١)، ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين. قال السدي بإسناده عن الصحابة: أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه فلما رآه يصنع ذلك قال: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه. وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزنًا شديدًا.

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلا به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين كتبهم التي بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.

وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه وكيف

يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها، وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم وقد أسلم في زمن عمر وكان ينقل شيئًا عن أهل الكتاب فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفًا لقلبه فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده وبالغ أيضًا هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده، ومنها ما هو باطل لا محالة، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا، وقد قال البخاري: وقال أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخربني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة، وذُكر كعب الأحبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب يعني من غير قصد منه، وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضًا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل» والله أعلم.

قصة جريج أحد عُباد بني إسرائيل

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، قال: وكان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جريج فابتنى صومعة وتعبد فيها قال: فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج، فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأفتننه. فقالوا: قد شئنا ذاك، قال: فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأمكنت نفسه من راع كان يؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً، فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج، فأتوه فاستنزلوه**

فشتموه وضربوه وهدموا صومعته، فقال: ما شأنكم؟! قالوا: إنك زنيت بهذه البغي فولدت غلامًا، فقال: وأين هو؟ قالوا: هو هذا، قال: فقام فصلى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بأصبعه، فقال: بالله يا غلام من أبوك؟ فقال: أنا ابن الراعي. فوثبوا إلى جريج فحملوه يقبلونه وقالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت. قال: وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مر بها راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، قال: فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، قال ثم عاد إلى ثديها فمصه، قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيع الصبي ووضع أصبعه في فيه يمصها، ثم مرت بأمة تُضرب فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، قال: فترك ثديها وأقبل على الأمة فقال: اللهم اجعلني مثلها، قال: فذاك حين تراجعا الحديث فقالت: خلفي مر الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومررت بهذه الأمة فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها، فقال: يا أمتاه إن الراكب ذو الشارة جبار من الجبابرة، وإن هذه الأمة يقولون زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق وهي تقول: حسبي الله» (رواه البخاري).

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان جريج يتعبد في صومعته قال: فأتته أمه فقالت: يا جريج أنا أمك وكلمني، قال وكان أبو هريرة يصف كيف كان رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن، قال: وصادفته يصلي، قال: يا رب أمي وصلاتي فاختار صلاته فرجعت ثم أتته فصادفته يصلي، فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني، فقال: يارب أمي وصلاتي فاختار صلاته فقالت: اللهم هذا جريج وإنه ابني وإني كلمته فأبى أن يكلمني اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات، ولو دعت عليه أن يفتتن لافتتن، قال: وكان راع يأوي إلى ديره فخرجت امرأة فوقع عليها الراعي فولدت غلامًا فقيل: ممن هذا؟ فقالت: هو من صاحب الدير، فأقبلوا بفئوسهم ومساحيهم وأقبلوا إلى الدير، فنادوه فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره فنزل إليهم فقالوا: سل هذه المرأة قال: أراه تبسم، قال: ثم مسح رأس

الصبي فقال: من أبوك؟ قال: راعي الضأن، قالوا: يا جريج نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة، قال: لا ولكن أعيدوه كما كان، ففعلوا» (رواه أحمد ومسلم).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«كان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يتعبد في صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت: أي جريج أي بني أشرف عليَّ أكلمك أنا أمك أشرف علي فقال: أي ربي صلاتي وأمي، فأقبل على صلاته، ثم عادت فنادته مراراً فقالت: أي جريج أي بني أشرف علي، فقال: أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه المومسة، وكانت راعية ترعى غنمًا لأهلها ثم تأوي إلى ظل صومعته فأصابت فاحشة فحملت فأخذت، وكان من زنى منهم قُتِل، فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج صاحب الصومعة، فجاؤا بالفئوس والمرور، فقالوا: أي جريج أي مرائي أنزل، فأبى وأقبل على صلاته يصلي، فأخذوا في هدم صومعته، فلما رأى ذلك نزل، فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً فجعلوا يطوفون بهما في الناس، فوضع أصبعه على بطنها فقال: أي غلام من أبوك: فقال: أبي فلان راعي الضأن، فقبلوه وقالوا: إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة، قال: أعيدوها كما كانت»** (وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه).

فهؤلاء ثلاثة تكلموا في المهد: عيسى بن مريم عليه السلام وقد تقدم الكلام على قصته. وصاحب جريج ابن البغي من الراعي كما سمعت واسمه يابوس كما ورد مصرحًا به في صحيح البخاري. والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال: **«بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب وهي ترضعه فقالت: اللهم لا تمت ابني حتى يكون مثل هذا، فقال: اللهم لا تجعلني**

مثله ثم رجع في الثدي، ومر بامرأة تُجَرُّ ويُلعب بها فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقال: أما الراكب فإنه كافر، وأما المرأة فإنهم يقولون: إنها تزني، وتقول: حسبي الله، ويقولون: تسرق، وتقول: حسبي الله»، وقد ورد في من تكلم في المهد أيضًا شاهد يوسف وابن ماشطة آل فرعون والله أعلم.

قصة برصيصا

وهي عكس قضية جريج فإن جريجًا عُصم وذلك فُتن.

عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الحشر:١٦-١٧)، قال ابن مسعود: وكانت امرأة ترعى الغنم وكان لها إخوة أربعة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان، فقال له: اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل تصدق ويسمع قولك فقتلها ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا، قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟، قالوا: لا بل قصها علينا، قال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان فقال: إني أنا أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال: فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل. وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل ابن حيان نحو ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بسياق آخر فقال: إن راهبًا تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة، فقال

لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها، قال: فجاؤا بها إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يومًا عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك إنك أعيتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك اسجد لي سجدة، فسجد له، قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الحشر: ١٦).

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم

فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم، قال الإمام البخاري حدثنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مسهر عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز فذهب وتركه وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا وإنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها؛ فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي فأبطأت عنهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل انتظر حتى طلع الفجر؛ فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إلي وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن**

آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار؛ فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا» (رواه مسلم).

خبر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأعمى وأقرع بدا لله أن يبتليهم، فبعث الله إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال له: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، فقال أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال البقر (هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر) فأُعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها، قال وأتى الأقرع فقال له: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس، فمسحه فذهب وأُعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك، قال: البقر فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها، قال وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا. فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني اعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله عزَّ وجلَّ، فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له: مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله

ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمى فرد الله إلي بصري، وفقيراً فقد أغناني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزَّ وجلَّ، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك» (هذا لفظ البخاري في أحاديث بني إسرائيل).

حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأدَّاها

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيدًا، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى الله شهيدًا فرضي بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركبًا وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركبًا إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا يجيئه بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطبًا فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال: والله مازلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إليَّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا الذي جئت فيه؟، قال: فإن الله أدَّى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بالفلك راشدًا. (هكذا رواه الإمام أحمد مسندًا، وقد علقه البخاري في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم).

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشترى رجل من رجل عقاراً له فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على انفسهما منه وتصدقا»** (هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به وقد روي أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين، وقد كان قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة والله أعلم).

قال إسحاق بن بشر في كتابه (المبتدأ) عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملوكه وعماله بنفسه وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. قال: فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن فجلس إلى قاض من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومة فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي وهم بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي إني اشتريت من هذا داراً عمرتها ووجدت فيها كنزاً وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليَّ فقال له القاضي: ما تقول؟، قال: ما دفنت وما علمت به فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك، فقال القاضي: هل لكما أمراً نصف مما دعوتماني إليه؟، قالا: نعم، قال للمدعي: ألك

ابن؟، قال: نعم، وقال للآخر: ألك ابنة؟، قـال: نعم، قال: اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهـزهما من هذا المال وادفعا فـضل ما بقى إليهمـا يعيشان به فـتكونا مليا بخيره وشـره، فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك ثم قـال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحدًا يفعل مثل هذا أو قاضٍ يقضي بمـثل هذا، فقال القاضي وهو لا يعرفه: وهل أحد يفـعل غير هذا؟! قـال ذو القرنين: نعم، قال القـاضي: فهل يُمطرون في بلادهم؟! فعجب ذو القرنين من ذلك، وقال: بمثل هذا قامت السموات والأرض.

اختصام ملائكة الرحمة والعذاب بشأن قاتل المائة نفس

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانًا ثم خرج يسأل فأتى راهبًا فسأله فقال: هل من توبة؟، قال: لا، فقتله، فجعل يسأل فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى إلى هذه أن تباعدي وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه اقرب بشبر فغفر له**» (هكذا رواه ههنا مختصراً وقد رواه مسلم عن بندار به ومن حديث شعبة ومن وجه آخر عن قتادة به مطولاً).

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)

عن عمرو بن ميـمون، قال: إني لقائم ما بيني وبين عمر إلا عـبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مـرَّ بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم ير فـيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركـعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبَّر فسمـعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب، حين طعنه، وطار

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنسًا(١) فلما ظنَّ العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال: يا بن عباس انظر من قتلني؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصَّنَع(٢)؟ قال: نعم. قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدَّعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ـ وكان العباس أكثرهم رقيقًا ـ فقال: إن شئت فعلت: أي قتلناهم. قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلُّوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم.

فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تُصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه فعرفوا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدِم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كان كفافًا لا لي ولا علي.

فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا بن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك، يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدَّين فحسبوه فوجدوه سبعة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال: إن وفاه مال آل عمر فأده من

---

(١) هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به، من جبة أو دراعة ونحوها.

(٢) يقال: رجل صنع (بفتح الصاد والنون): إذا كان له صفة يعمل بيديه ويكسب بهما.

أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها: يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ـ قل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فمضى فسلَّم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويقول لك: يستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنَّه اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء. قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قُبضت فاحملوني، ثم سلم وقل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردَّتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسرن معها، لفما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة فاستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فلما قُبض خرجنا به، فانطلقنا به، فسلَّم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر، قالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه. (انفرد بإخراجه البخاري)[١].

وعن عثمان بن عفان قال: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله، فقال له: ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك، في الثانية أو الثالثة، وسمعته يقول: ويلي وويل أمي إن لم تغفر لي، حتى فاظت نفسه[٢].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في مناقب عثمان كاملاً. وأخرج طرفًا منه في الجنائز «باب ما جاء في قبر النبي وأبي بكر وعمر».

(٢) خرجت روحه.

قال سعد بن أبي وقاص: طُعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم ـ قال معاوية: كان عمر ابن ثلاث وستين ـ.

وعن الشعبي أن أبا بكر قُبض وهو ابن ثلاث وستين، وأن عمر قُبض وهو ابن ثلاث وستين.

خصومة عثمان رضي الله عنه مع قاتليه[1]

روى ابن عساكر أنه لما طعن قال: بسم الله توكلت على الله، فلما قطر الدم قال: سبحان الله العظيم، وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم، وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان، متأولاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة المائدة:٣٣)، وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من جملة المفسدين في الأرض، ولاشك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه، ويزور على خطه وخاتمه، ويبعث غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين، على تأمير محمد بن أبي بكر على مصر، بخلاف ذلك كله، ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب على خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان، أعظموا ذلك، مع ما هم مشتملون عليه من الشر فرجعوا إلى المدينة فطافوا به على رؤوس الصحابة، وأعانهم على ذلك قوم آخرون، حتى ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر

---

(١) «البداية والنهاية» باختصار.

عثمان ﷺ، فلما قيل لعثمان ﷺ في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين، حلف بالله العظيم، وهو الصادق البار الراشد، أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه، ولا علم به، فقالوا له: فإن عليه خاتمك. قال: إن الرجل قد يزور على خطه وخاتمه، قالوا: فإنه مع غلامك وعلى جملك. فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك. فقالوا له - بعد كل مقالة - إن كنت قد كتبته فقد خنت، وإن لم تكن قد كتبته بل كتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلافة، إما لخيانتك، وإما لعجزك، وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير فإنه لو فرض أنه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضره ذلك لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام، وأما إذا لم يكن قد علم به فأي عجز ينسب إليه إذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه، وليس هو بمعصوم بل الخطأ والغفلة جائزان عليه ﷺ، وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متعنتون خونة، ظلمة مفترون، ولهذا صمموا بعد هذا على حصره والتضييق عليه، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد، وتهددوه بالقتل، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه، ومن وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من منع ماءها، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، وذكر: أنه لم يقتل نفسًا، ولا ارتد بعد إيمانه، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام، بل ولا مس فرجه بيمينه بعد أن بايع رسول الله ﷺ، وفي رواية: بعد أن كتب بها المفصل، ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه والرجوع إلى الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر منهم، فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده، حتى اشتد عليه الحال. وضاق المجال، ونفد ما عنده من الماء، فاستغاث بالمسلمين في ذلك فركب علي بنفسه وحمل معه قربًا من الماء فبالجهد

حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ، وتنفير لدابته، وإخراق عظيم بليغ، وكان قد زجرهم أتم الزجر، حتى قال لهم فيما قال: والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا بهذا الرجل، والله إنهم ليَأسِرون فيُطعِمون ويَسْقون، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار، وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها، فقالوا: ما جاء بك؟، فقالت: إن عنده وصايا بني أمية، لأيتام وأرامل، فأحببت أن أذكره بها، فكذبوها في ذلك ونالها منهم شدة عظيمة، وقطعوا حزام البغلة وندَّت بها، وكادت أو سقطت عنها، وكادت تقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها، ووقع أمر كبير جدًا، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما وقع هذا أعظمه الناس جدًا، ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك، فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذى ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج. واستخلف عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس، فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أحاجف عنك أفضل من الحج، فعزم عليه، فخرج بالناس إلى الحج واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع اليسير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين، وبلغهم أيضًا أن معاوية قد بعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد نفذ آخر مع معاوية بن خديج، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعًا في جيش فعند ذلك صمموا على أمرهم، وبالغوا فيه، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج، وأحاطوا بالدار وجدوا في الحصار، وأحرقوا الباب، وتسوروا من الدار المتاخمة للدار، كدار عمرو بن حزم وغيرها، وحاجف الناس عن عثمان أشد المحاجفة،

واقتتلوا على الباب قتالاً شديدًا، وتبـارزوا وتراجزوا بالشعر في مبارزتهم، وجعل أبو هريرة يقول: هذا يوم طاب في الضراب فيـه، وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار، وجرح عـبد الله بن الزبير جراحات كثيـرة، وكذلك جرح الحسن بن علي ومروان بن الحكم فقطع إحدى علباويه فعاش أوقص حتى مات. ومن أعيان من قتل من أصحاب عثمان، زياد بن نعيم الفهري، والمغيرة بن الأخنس بن شريق، ونيار بن عبـد الله الأسلمي،في أناس وقت المعركـة، ويقال إنه انهزم أصـحاب عثـمان ثم رجعوا، ولما رأى عثـمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم، فانصـرفوا كما تقدم، فلم يبق عنده أحـد سوى أهله، فدخلوا عليه من البـاب، ومن الجدران وفزع عثمـان إلى الصلاة وافتتح سـورة طه، وكان سريع القراءة ـ فقـرأها والناس في غلبة عظيمـة، قد احتـرق الباب والسـقيفـة التي عنده، وخافوا أن يصـل الحريق إلى بيت المال، ثم فرغ عـثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصـحف، وجعل يتلو هذه الآية ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (سورة آل عـمران:١٧٣)، فكان أول من دخل عليه رجل يقـال له الموت الأسود فخنقه خنقًا شديدًا حتى غشي عليه، وجـعلت نفسه تتردد في حلقه، فتركه وهو يظن أنه قد قـتله، ودخل ابن أبي بكر فمـسك بلحيتـه ثم ند وخرج، ثم دخل عليـه آخر ومعه سيف فـضربه به فاتقاه بيده فـقطعها، فقيل: إنه أبانها، وقـيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثـمان قال: والله إنها أول يد كتبـت المفصل، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (سورة البقرة:١٣٧)، ثم جاء آخر شاهرًا سيفه فـاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه مـنه، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها، ثم إنه تقدم إليه فوضع السيف في بطنه فتحامل عليه، رضي الله عن عثمان، وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إلـيه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في فيـه، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله فاستدار المصحـف ثم استقر

بين يدي عثمان رضي الله عنه، وسالت عليه الدماء، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها فولت فضرب عجيزتها بيده. وقال: إنها لكبيرة العجيزة، وضرب عثمان فقتله، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجل يقال له قترة فقتله.

وذكر ابن جرير أنهم أرادوا حز رأسه بعد قتله، فصاح النساء وضربن وجوههن، فيهن امرأتاه نائلة وأم البنين، وبناته، فقال ابن عديس: اتركوه، فتركوه، ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه، وذلك أنه نادى مناد منهم: أيحل لنا دمه ولا يحل لنا ماله؟!، فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه، فلما خرجوا إلى صحن الدار وثب غلام لعثمان على قترة فقتله، وجعلوا لا يمرون على شيء إلا أخذوه حتى استلب رجل يقال له كلثوم التجيبي ملاءة نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتل الغلام أيضًا، ثم تنادى القوم: أن أدركوا بيت المال لا تستبقوا إليه، فسمعهم حفظة بيت المال فقالوا: يا قوم النجا النجا، فإن هؤلاء القوم لم يصدقوا فيما قالوا من أن قصدهم قيام الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما ادعوا أنهم إنما قاموا لأجله وكذبوا إنما قصدهم الدنيا، فانهزموا وجاء الخوارج فأخذوا مال بيت المال، وكان فيه شيء كثير جدًا.

ولما وقع هذا الأمر العظيم، الفظيع الشنيع، أسقط في أيدي الناس، فأعظموه جدًا، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا، وأشبهوا من تقدمهم ممن قص الله علينا خبرهم في كتابه العزيز، من الذين عبدوا العجل، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٤٩).

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان ـ وكان قد خرج من المدينة ـ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم ترحم على عثمان، وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال: تبًا لهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة يس:٤٩-٥٠)، وبلغ عليًا قتله فترحم عليه، وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الحشر:١٦)، ولما بلغ سعد بن أبي وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه، وتلا في حق الذين قتلوه ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (سورة الكهف:١٠٣-١٠٤)، ثم قال سعد: اللهم اندمهم ثم خذهم، وقد أقسم بعض السلف بالله إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً. (رواه ابن جرير).

وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه (منها) دعوة سعد المستجابة كما ثبت في الحديث الصحيح، وقال بعضهم: ما مات أحد منهم حتى جن، وقال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث قال: الذي قتل عثمان كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي.

مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه (١)

حصر في منزله أيامًا ثم دخلوا عليه فقتلوه يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة، ويقال لثمان عشرة خلت من سنة خمس وثلاثين.

واختلف في قاتله، فقيل: الأسود التجيبي من أهل مصر، وقيل: جبلة بن الأيهم، وقيل: سودان بن رومان المرادي، ويقال: ضربه التجيبي ومحمد بن أبي حذيفة وهو يقرأ في المصحف، وكان صائمًا يومئذ.

ودفن ليلة السبت بالبقيع وسنه تسعون، وقيل خمس وتسعون، وقيل ثمان وثمانون، وقيل اثنتان وثمانون.

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

عن عبد الله بن فروخ قال: شهدت عثمان بن عفان دفن في ثيابه بدمائه، وقيل: صلى عليه الزبير، وقيل: حكيم بن حزام، وقيل: جُبير بن مُطعِم.

وعن الحسن قال: لقد رأيت الذين قتلوا عثمان تحاصبوا في المسجد حتى ما أبصر أديم السماء، وإن إنسانًا رفع مصحفًا من حجرات النبي ﷺ ثم نادى: ألم تعلموا أن محمدًا ﷺ قد برىء ممن فرَّق دينه وكان شيعًا؟.

خصومة علي رضي الله عنه مع الخوارج

عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري قال: جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة رضي الله عنها ونحن عندها جلوس مرجعة من العراق ليالي قتل علي رضي الله عنه، فقالت له: يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسألك عنه تحدثني عن هؤلاء القوم الذي قتلهم علي رضي الله عنه، قال: وما لي لا أصدقك؟، قالت: فحدثني عن قصتهم، قال: إن عليًا رضي الله عنه لما كاتب معاوية وحكم الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة وإنهم عتبوا عليه فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله تعالى واسم سماك الله تعالى به ثم انطلقت فحكمت في دين الله فلا حكم إلا لله تعالى فلما أن بلغ عليًا رضي الله عنه ما عتبوا عليه وفارقوه عليه فأمر مؤذنًا فأذن أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه فجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف حدث الناس فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾

(سورة النساء: ٣٥)، فأمة محمد ﷺ أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا على أن كاتبت معاوية كتب علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشًا فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: كيف نكتب؟ فقال: اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ: فاكتب محمد رسول الله، فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشًا، يقول الله تعالى في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١). فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فخرجت معه حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء يخطب الناس فقال: يا حملة القرآن إن هذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه من كتاب الله ما يعرفه به هذا ممن نزل فيه وفي قومه قوم خصمون فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه كتاب الله فقام خطباؤهم فقالوا: والله لنواضعنه كتاب الله فإن جاء بحق لنتبعه وإن جاء بباطل لنبكتنه بباطله فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم علي على الكوفة فبعث علي رضي الله عنه إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ بيننا وبينكم ألا تسفكوا دمًا حرامًا أو تقطعوا سبيلاً أو تظلموا ذمة فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء إن الله لا يحب الخائنين فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا بن شداد فقد قتلهم، فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم واستحلوا أهل الذمة فقالت: آلله، قال: آلله الذي لا إله إلا هو لقد كان، قالت: فما شيء بلغني عن أهل الذمة يحدثونه يقولون ذو الثدي، وذو الثدي، قال: قد رأيته وقمت مع علي رضي الله عنه في القتلى فدعا الناس فقال: أتعرفون

هذا؟ فما أكثر من جاء يقول قد رأيته في مسجد بني فلان يصلي ورأيته في مسجد بني فلان يصلي ولم يأتوا فيه بثبت يعرف إلا ذلك، قالت: فما قول علي رضي الله عنه حين قام عليه كما يزعم أهل العراق، قال: سمعته يقول صدق الله ورسوله، قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك؟. قال: اللهم لا، قالت: أجل صدق الله ورسوله يرحم الله عليًا رضي الله عنه إنه كان من كلامه لا يرى شيئًا يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله، فيذهب أهل العراق يكذبون عليه ويزيدون عليه في الحديث. (رواه أحمد).

قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن زيد بن وهب، قال: قدم على علي قوم من أهل البصرة من الخوارج، فيهم رجل يقال له: الجعد بن بعجه، فقال له: اتق الله يا علي فإنك ميت. فقال له علي رضي الله عنه: «بل مقتول، ضربة على هذا تخضب هذه - يعني لحيته من رأسه - عهد معهود[١]، وقضاء مقضي، وقد خاب من افترى».

وعاتبه في لباسه فقال: ما لكم وللباس؟ هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلم.

وعن أبي الطفيل قال: دعا علي الناس إلى البيعة، فجاء عبد الرحمن بن مُلجم المرادي فرده مرتين، ثم أتاه فقال: ما يحبس أشقاها؟ لتخضبن أو لتُصبغن هذه - يعني لحيته من رأسه - ثم تمثل بهذين البيتين[٢]:

أشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت آتيك[٣]

ولا تجزع من القتل ... إذا حل بواديك

(١) يشير إلى أنه عهد النبي صلى الله عليه وسلم إليه.

(٢) الكامل للمبرد (٣/ ٩٣٢).

(٣) في الكامل: «لاقيكا». والحيزوم: ما اشتمل عليه الصدر، والمعنى: وطن نفسك على الموت.

وعن أبي مجلز قال: جاء رجلٌ من مراد إلى علي وهو يصلي في المسجد، فقال: احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر عليه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جُنة حصينة.

قال العلماء بالسير ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان، وقيل ليلة إحدى وعشرين منه، سنة أربعين فبقي الجمعة والسبت، ومات ليلة الأحد، وغسله ابناه وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، ودفن في السحر، وفي سنِّه أربعة أقوال، أحدها: ثلاث وستون، والثاني: خمس وستون، والثالث: سبع وخمسون، والرابع: ثمان وخمسون.

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: قُتل علي ﷺ وهو ابن ثمان وخمسين، ومات لها حسن، وقُتل لها الحسين[(١)] ومات علي بن الحسين وهو ابن ثمان وخمسين، وسمعت جعفرًا يقول: سمعت أبي يقول لعمته فاطمة بنت حسين أم عبد الله بن حسن هذه[(٢)] تُوفي لي ثمانيًا وخمسين[(٣)] فمات لها.

قال سفيان: وسمعت جعفر بن محمد يقول: وقد زدت أنا على ثمانٍ وخمسين.

وعن أبي جعفر قال: هلك علي بن أبي طالب وله خمس وستون سنة، قال: وكان علي وطلحة والزبير في سن واحد.

(١) أي عمر كل منهما (٥٨) سنة أيضًا.
(٢) إشارة إلى السنة التي هم فيها.
(٣) أوفى: أتم وأبلغ، أي تمَّ له بتلك السنة ثمان وخمسون من العمر.

وقعة صفين
بين أهل العراق وبين أهل الشام

روى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين أنه قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين». عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، فقال: كذب أبو شيبة، والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت وقد قيل أنه شهدها من أهل بدر سهل بن حنيف، وكذا أبو أيوب الأنصاري، قاله شيخنا العلامة ابن تيمية في كتاب الرد على الرافضة ـ وروى ابن بطة بإسناده عن بكير الأشج أنه قال: أما إن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه لما فرغ من وقعة الجمل ودخل البصرة وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة، سار من البصرة إلى الكوفة، قال أبو الكنود عبد الرحمن بن عبيد فدخلها عليٌّ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين فقيل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا! إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله فأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرحبة وصلى في الجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله ـ وكان على همذان من زمان عثمان ـ وإلى الأشعث بن قيس ـ وهو على نيابة أذربيجان من زمان عثمان ـ أن يأخذا البيعة على من هنالك من الرعايا ثم يقبلا إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علي رضي الله عنه أن يبعث إلى معاوية رضي الله عنه يدعوه إلى بيعته قال جرير بن عبد الله: أنا أذهب إليه يا أمير

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ـ باختصار.

المؤمنين فإن بيني وبينه ودًا، فآخذ لك منه البيعة، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، وبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله أعطاه الكتاب فطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤس أهل الشام فاستشارهم فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتل عثمان بن عفان [1] فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين ألم أنهك أن تبعث جريرًا، فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية بابًا إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت ثم لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثني لم يعنني جواب معاوية ولأعجلنه عن الفكرة، ولو أطاعني قبل لبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة، فقام جرير مغضبًا وأقام بقرقيسيا، وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه، وخرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من الكوفة عازمًا على الدخول إلى الشام فعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الأنصاري وكان قد أشار عليه جماعة بأن يقيم بالكوفة ويبعث الجنود وأشار آخرون أن يخرج فيهم بنفسه، وبلغ معاوية أن عليًا قد خرج بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فقال له: أخرج أنت أيضًا بنفسك، وقام عمرو بن العاص في الناس فقال: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبق مع علي إلا شرذمة قليلة من الناس، ممن قتل، وقد قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي

---

(١) معاوية ﷺ هو ولي دم عثمان، وقد وافق اجتهاده اجتهاد أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير، وكان الحق مع علي رضي الله عنهم أجمعين. والواجب علينا أن نمسك عما حدث وشجر بينهم وأن نعلم أنهم خيار أولياء الله المتقين؛ فلا يجوز انتقاصهم ولا سبهم، ولم يكن تنازعهم على الملك والرئاسة ولم يزد علي ﷺ على قوله: إخواننا بغوا علينا، وقال: قتلاي وقتلى معاوية في الجنة.

دمكم أن تطلوه، وكتب إلى أجناد الشام فحضروا، وعقدت الألوية والرايات للأمراء، وتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا أيضًا إلى نحو الفرات من ناحية صفين ـ حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب ﷺ ـ وسار علي ﷺ بمن معه من الجنود من النخيلة قاصدًا أرض الشام، قال أبو إسرائيل عن الحكم بن عيينة: وكان في جيشه ثمانون بدريًا ومائة وخمسون ممن بايع تحت الشجرة، رواه ابن ديزيل.

وقد اجتاز في طريقه براهب فكان من أمره ما ذكره الحسين بن ديزيل في كتابه عن حبة العرنى قال: لما أتى علي الرقة نزل بمكان يقال له البليخ على جانب الفرات فنزل إليه راهب من صومعته فقال لعلي: إن عندنا كتابًا توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام، أعرضه عليك؟ فقال علي: نعم! فقرأ الراهب الكتاب.

«بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، وكتب فيما كتب أنه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل الله، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شرف، وفي كل صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وينصره الله على كل من ناوأه فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت فلبثت بذلك ما شاء الله ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمته بشاطيء هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق ولا ينكس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد أو قال التراب ـ في يوم عصفت فيه الريح ـ والموت أهون عليه من شرب الماء، يخاف الله في السر، وينصح في العلانية، ولا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة» ثم قال لعلي: فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك، فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسيًا منسيًا، والحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار، فمضى الراهب معه وأسلم فكان مع علي حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس يطلبون قتلاهم قال علي: اطلبوا الراهب، فوجدوه قتيلاً، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه واستغفر له.

وقعة الجمل

لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق، كان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارًا من الفتنة، فلما بلغ الناس أن عثمان قد قتل، أقمن بمكة بعد ما خرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتجسسون الأخبار فلما بويع لعلي وصار حظ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك رؤس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن عليًا في نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربص بهم الدوائر[1]، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم، ولكن لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه علية الصحابة فر جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة، واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكة وتبعهم خلق كثير، وجم غفير، وكان علي لما عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرضه على الخروج معه، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام، ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكة أيضًا في هذا العام يعلى بن أمية من اليمن، - وكان عاملاً عليها لعثمان -، ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة، وأمهات المؤمنين، فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة، وقالوا لها: حيثما

---

(١) اجتهد علي رضي الله عنه وأصاب وله أجران، واجتهدت أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم وأخطأوا ولهم أجر.

ما سرت سرنا معك، فقال قائل: نذهب إلى الشام، فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها، «ولو قدموها لغلبوا، واجتمع الأمر كله لهم، لأن أكابر الصحابة معهم»[١]، وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من علي أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا، وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان. فاتفق الرأي على ذلك وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة، فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك وقلن: لا نسير إلى غير المدينة، وجهز الناس يعلى بن أمية فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر أيضًا بمال كثير، وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة، وسار الناس صحبة عائشة في ألف فارس، وقيل تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة، وتلاحق بهم آخرون، فصاروا في ثلاثة آلاف، وأم المؤمنين عائشة تحمل في هودج على جمل اسمه عسكر، اشتراه يعلى بن أمية من رجل من عرينة بمائتي دينار، وقيل بثمانين دينارًا، وقيل غير ذلك، وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هنالك وبكين للوداع، وتباكى الناس، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب، وسار الناس قاصدين البصرة، وكان الذي يصلي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم يؤذن للناس في أوقات الصلوات، وقد مروا في مسيرهم ليلاً بماء يقال له الحوأب، فنبحتهم كلاب عنده، فلما سمعت ذلك عائشة قالت: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: الحوأب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظنني إلا راجعة، قالوا: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «ليت شعري أيتكن التي تنبحها كلاب الحوأب»، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته، وقالت: ردوني ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحوأب، ـ وقد أوردنا هذا

---

(١) سقط من المصرية.

الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوة كما سبق ـ فأناخ الناس حولها يومًا وليلة، وقال لها عبد الله بن الزبير: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب، ثم قال الناس: النجا النجا، هذا جيش علي بن أبي طالب قد أقبل، فارتحلوا نحو البصرة، فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رءوس الناس، أنها قد قدمت، فبعث عثمان بن حنيف عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليها ليعلما ما جاءت له، فلما قدما عليها سلما عليها واستعلما منها ما جاءت له، فذكرت لهما ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان، لأنه قتل مظلومًا في شهر حرام وبلد حرام، وتلت قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء: ١١٤)، فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: ما بايعت عليًا؟ قال: بلى. والسيف على عنقي، ولا أستقبله إن هو لم يُخل بيننا وبين قتلة عثمان، فذهبا إلى الزبير، فقالا مثل ذلك، قال: فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف، فقال أبو الأسود:

يا بن الأحنف قد أُتيت فانفر ▫▪▫ وطاعن القوم وجالد واصبر

واخرج لهم مستلئمًا وشمر

فقال عثمان بن حنيف: إنا لله وإنا إليه راجعون، دارت رحا الإسلام ورب الكعبة، فانظروا بأي زيفان نزيف، فقال عمران: إي والله لتعركنكم عركًا طويلاً، يشير عثمان بن حنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعًا: «تدور رحا الإسلام لخمس وثلاثين» الحديث كما تقدم، ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: أشر علي، فقال اعتزل فإني قاعد في منزلي، أو قال قاعد على بعيري، فذهب فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح والاجتماع في المسجد، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهز، فقام رجل وعثمان على المنبر فقال: أيها الناس إن كان هؤلاء القوم جاءوا خائفين فقد جاءوا من بلد يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته، فأطيعوني وردوهم من حيث جاءوا، فقام الأسود ابن سريع السعدي فقال: إنما جاءوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا، فحصبه الناس، فعلم عثمان بن حنيف أن لقتلة عثمان بالبصرة أنصارًا، فكره ذلك، وقدمت أم المؤمنين بمن معها من الناس، فنزلوا المربد من أعلاه قريبًا من البصرة، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها، وخرج عثمان بن حنيف بالجيش فاجتمعوا بالمربد، فتكلم طلحة ـ وكان على الميمنة ـ فندب إلى الأخذ بثأر عثمان، والطلب بدمه، وتابعه الزبير فتكلم بمثل مقالته فرد عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف، وتكلمت أم المؤمنين فحرضت وحثت على القتال، فتناور طوائف من أطراف الجيش فتراموا بالحجارة، ثم تحاجز الناس ورجع كل فريق إلى حوزته، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حنيف إلى جيش عائشة، فكثروا، وجاء حارثة بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين! والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي من حيث جئت إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع وأقبل حكيم بن جبلة ـ وكان على خيل عثمان بن حنيف ـ فأنشب القتال وجعل أصحاب أم المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال، وجعل حكيم يقتحم عليهم فاقتتلوا على فم السكة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن، وحجز الليل بينهم، فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، إلى أن زال النهار، وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف، وكثرت الجراح في الفريقين، فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتابًا ويبعثوا رسولاً إلى أهل المدينة يسأل أهلها، إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة، خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها، وإن لم يكونا أكرها على البيعة خرج طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم، وبعثوا بذلك كعب بن سور القاضي، فقدم المدينة يوم الجمعة، فقام في الناس، فسألهم: هل بايع طلحة والزبير طائعين أو مكرهين؟ فسكت الناس فلم يتكلم إلا

أسامة بن زيد، فقال: بل كانا مكرهين، فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه، فحاجف دونه صهيب، وأبو أيوب، وجماعة حتى خلصوه، وقالوا له: ما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال: لا والله ما كنت أرى أن الأمر ينتهي إلى هذا، وكتب علي إلى عثمان بن حنيف يقول له: إنهما لم يكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا، وقدم كعب بن سور على عثمان بكتاب علي، فقال عثمان: هذا أمر آخر غير ما كنا فيه، وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى، فجمعا الرجال في ليلة مظلمة وشهدا بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع، ولم يخرج عثمان بن حنيف تلك الليلة، فصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ووقع من رعاع الناس من أهل البصرة كلام وضرب، فقتل منهم نحواً من أربعين رجلاً.

معاوية بن أبي سفيان ومُلكه (١)

قد تقدم في الحديث أن الخلافة بعده عليه السلام ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا، وقد انقضت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي؛ فأيام معاوية أول الملك، فهو أول ملوك الإسلام وخيارهم.

فضل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي أبو عبد الرحمن القرشي الأموي، خال المؤمنين، وكاتب وحي رب العالمين، أسلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يوم الفتح، وقد روي عن معاوية أنه قال: أسلمت يوم عمرة القضاء ولكني كتمت إسلامي من أبي إلى يوم الفتح، وقد كان أبوه من سادات قريش في الجاهلية، وآلت إليه رياسة قريش

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ـ باختصار.

بعد يوم بدر، فكان هو أمير الحروب من ذلك الجانب، وكان رئيسًا مطاعًا ذا مال جزيل، ولما أسلم قال: يا رسول الله مرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم»، قال ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك، قال: «نعم»، ثم سأل أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته، وهي عزة بنت أبي سفيان واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فلم يقع ذلك، وبيَّن رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له، وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير موضع، وأفردنا له مصنفًا على حدة ولله الحمد والمنة.

والمقصود أن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ مع غيره من كتاب الوحي ﷺ، ولما فتحت الشام ولاه عمر نيابة دمشق بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقره على ذلك عثمان بن عفان وزاده بلادًا أخرى، وهو الذي بنى القبة الخضراء بدمشق وسكنها أربعين سنة، قاله الحافظ ابن عساكر، ولما ولي علي بن أبي طالب الخلافة أشار عليه كثير من أمرائه ممن باشر قتل عثمان أن يعزل معاوية عن الشام، ويولي عليها سهل بن حنيف فعزله فلم ينتظم عزله والتف عليه جماعة من أهل الشام ومانع عليًا عنها وقد قال: لا أبايعه حتى يسلمني قتلة عثمان فإنه قتل مظلومًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ (سورة الإسراء: ٣٣)، وروى الطبراني عن ابن عباس أنه قال: مازلت موقنًا أن معاوية يلي الملك من هذه الآية. أوردنا سنده ومتنه عند تفسير هذه الآية، فلما امتنع معاوية من البيعة لعلي حتى يسلمه القتلة، كان من صفين ما قدمنا ذكره، ثم آل الأمر إلى التحكيم، فكان من أمر عمرو بن العاص وأبي موسى ما أسلفناه من قوة جانب أهل الشام في الصعدة الظاهرة، واستفحل أمر معاوية، ولم يزل أمر علي في اختلاف مع أصحابه حتى قتله ابن ملجم كما تقدم، فعند ذلك بايع أهل العراق الحسن بن علي، وبايع أهل الشام لمعاوية بن أبي سفيان، ثم ركب الحسن في جنود العراق عن غير إرادة منه، وركب معاوية في أهل الشام فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان سعى الناس بينهما في الصلح فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الملك إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك في ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وأربعين ـ

ودخل معاوية إلى الكوفة فخطب الناس بها خطبة بليغة بعد ما بايعه الناس ـ واستوثقت له الممالك شرقًا وغربًا، وبعدًا وقربًا، وسمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على أمير واحد بعد الفرقة، فولي معاوية قضاء الشام لفضالة بن عبيد، ثم بعده لأبي إدريس الخولاني، وكان على شرطته قيس بن حمزة، وكان كاتبه وصاحب أمره سرحون بن منصور الرومي، ويقال إنه أول من اتخذ الحرس وأول من حزم الكتب وختمها، أو كان أول الأحداث في دولته ﷺ.

مقتل حمزة رضي الله عنه

عن جعفر بن عمرو الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار إلى الشام، فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم. وكان وحشي يسكن حمص. فجئنا حتى وقفنا عليه فسلمنا فرد السلام، وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي أتعرفني؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله، إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة فولدت له غلامًا فاسترضعه، فحملتُ ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأني نظرت إلى قدميه.

فكشف عبيد الله وجهه ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ فقال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي ببدر فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حُر، فلما خرج الناس عام «عينين» ـ قال: وعينين جبل أحد[1] بينه وبينه وادٍ ـ خرجت مع الناس إلى القتال فلما أن اصطفوا[2] للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة فقال: يا سباع، يا بن أم أنمار، يا بن مُقطعة البظور[3]

---

(١) «جبيل تحت أحد». ويقال ليوم أحد: يوم عينين، وللعام الذي جرت فيه هذه الحركة: عام عينين.

(٢) صف: للقتال لما استصفوا.

(٣) جمع بظر: ما يقطع في الختان، وكانت أم أنمار ـ وهي أم سباع ـ تختن النساء بمكة.

أتحارب الله ورسوله؟ ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب وكمنت لحمزة تحت صخرة حتى مر علي فلما أن دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّته[١] حتى دخلت بين وركيه، وكان ذلك آخر العهد به، فلما رجع الناس رجعتِ معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ زجلاً فقالوا: إنه لا يهيج الرسل[٢] فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآني قال: «أنت وحشي» قلت: نعم. قال: «أنت قتلت حمزة؟»، قلت: قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله، قال: «أما تستطيع أن تغيب وجهك عني؟» قال: فرجعت فلما توفي رسول الله ﷺ وخرج مسيلمة الكذاب قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافىء به حمزة. فخرجت مع الناس فكان من أمرهم ما كان. قال: وإذا رجل قائم[٣] من ثلمة جدار كأنه جمل أورق[٤] ثائر رأسه، قال: فأرميه بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ودب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته.

قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيتٍ، وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود. (انفرد بإخراجه البخاري)[٥].

وعن الزبير أنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى حتى إذا كادت تشرف على القتلى، قال فكره رسول الله ﷺ أن تراهم فقال: المرأة المرأة. قال الزبير: فتوسمت أنها أمي صفية، فخرجت أسعى إليها فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى،

---

(١) الثنَّة: ما بين السرة والعانة من أسفل البطن، جمع ثُنَن.
(٢) لا يزعجهم ولا ينفرهم.
(٣) قط: في.
(٤) أسمر.
(٥) هذا الخبر أخرجه البخاري في المغازي، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٨٥).

قال: فلدمت في صدري[(١)]، وكانت امرأة جلدة، قالت: إليك لا أرض[(٢)] لك، قال: فقلت إن رسول الله قد عزم عليك. قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها. فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه بهما.

قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فُعل به كما فُعل بحمزة. قال: فوجدنا غضاضة وحياءً أن نكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له (رواه الإمام أحمد).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد فنظر إلى شيء لم ينظر إليه شيء قط كان أوجع لقلبه منه. ونظر إليه قد مُثل به فقال: «رحمة الله عليك فإنك كنت - ما علمت - فعولاً للخيرات وصولاً للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى، أما والله مع ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك». فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بعد - بخواتم النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (سورة النحل: ١٢٦)، إلى آخر السورة. فصبر النبي ﷺ وأمسك عما أراد[(٣)].

وعن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى على جنازة كبَّر عليها أربعًا وإنه كبر على حمزة سبعين تكبيرة[(٤)].

---

(١) ضربت ودفعت.

(٢) من ألفاظ الشتيمة عند العرب، وهو كقولهم: لا أم لك ولا أبا لك.

(٣) الحديث ضعيف أخرجه البزار والطبراني وفيه صالح بن بشير المزني ضعيف - مجمع الزوائد (٦/ ١١٩)، وقال السيوطي في «لباب النقول»: أخرجه الحاكم والبيهقي في «الدلائل» والبزار.

(٤) الحديث لم أجده عن أنس، وتكرار الصلاة على حمزة ﷺ أخرجهما البزار والطبراني عن ابن عباس وفيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف، والطبراني عن ابن عباس أيضًا بإسناد فيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو ضعيف أيضًا، وأحمد في المسند عن ابن مسعود وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط وأخرجها أيضًا ابن إسحاق في «السيرة» (٣/ ١٠٢) فقال: حدثني من لا أتهم عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث عن ابن عباس، فذكره، فقال السهيلي وقوله من لا أتهم، يعني الحسن بن عمارة، ولا خلاف في ضعفه عند أهل الحديث. اهـ.

وعن جابر قال: لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد كتبوا إليه: إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: انبشوهم. قال: فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة[(١)] طرف رجل حمزة فانبعث دمًا.

وعنه قال: كتب معاوية إلى عامله بالمدينة أن يجري عينًا إلى أحد فكتب إليه عامله، إنها لا تجري إلا على قبور الشهداء، قال: فكتب إليه أن أنفذها، قال: فسمعت جابر بن عبد الله يقول: فرأيتهم يخرجون على رقاب الرجال كأنهم رجال نوم حتى أصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دمًا.

خصومة بلال بن رباح مع أمية بن خلف

اسم أمه حمامة - أسلم قديمًا فعذبه قومه وجعلوا يقولون له: ربك اللات والعزى، وهو يقول: أحد أحد. فأتى عليه أبو بكر فاشتراه بسبع أواقٍ وقيل بخمس، فأعتقه فشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وهو أول من أذَّن لرسول الله ﷺ، كان يؤذن له حضرًا وسفرًا، وكان خازنه على بيت ماله: وكان آدم شديد الأدمة نحيفًا طوالاً أجنأ، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شمط[(٢)] كثير لا يغيره.

عن مجاهد قال: إن أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال وصهيب، وخبَّاب، وعمَّار، وسمية أم عمار، فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم ما بلغ فأعطوهم ما سألوا فجاء إلى كل رجل منهم قومه بأنطاع الأدم[(٣)] فيها الماء وألقوهم فيه وحملوا بجوانبه إلا بلالاً فإنه هانت عليه

---

(١) المجرفة من الحديد.

(٢) شيب.

(٣) النطع: بساط من الجلد.

نفسه في الله حتى ملوه وجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة[١] فجعل بلال يقول: أحد أحد (وقد روي هذا عن ابن مسعود إلا أنه جعل مكان خباب المقداد).

عن زر بن حبيش، عن عبد الله، قال: كان أول من أظهر إسلامه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمَّار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله عزَّ وجلَّ وهان على قومه فأعطوه الولدان فأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أَحدٌ أَحدٌ (رواه الإمام أحمد).

وعن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحدٌ أحدٌ الله يا بلال، ثم أقبل ورقة على أمية بن خلف وهو يصنع ذلك ببلال فيقول: أحلف بالله عزَّ وجلَّ إن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا. حتى مر به أبو بكر الصديق يومًا وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية: ألا تتقي الله عزَّ وجلَّ في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه عما ترى، قال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت. قال: هو لك فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، فأخذ أبو بكر بلالاً فأعتقه ثم أعتق معه على الإسلام، قبل أن يهاجر من مكة، ست رقابٍ بلال سابعهم.

---

(١) هما الجبلان المطيفان بمكة: أبو قبيس والأحمر.

قال محمد بن إسحاق: وكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.

بين عبد الله بن حذافة وملك الروم[١]

عبد الله بن حذافة السهمي، صحابي جليل، أسر بالروم وكان سببًا ﷺ في فك أسرى المسلمين.

نظر ملك الروم إلى عبد الله بن حذافة طويلاً ثم بادره قائلاً: إني أعرض عليك أمرًا، قال: وما هو؟، فقال: اعرض عليك أن تتنصر... فإن فعلت خليت سبيلك، وأكرمت مثواك. فقال الأسير في أنفةٍ وحزم: هيهات... إن الموت لأحب إليّ ألف مرةٍ مما تدعوني إليه. فقال قيصر: إني لأراك رجلاً شهمًا... فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري وقاسمتك سلطاني. فتبسم الأسير المكبل[٢] بقيوده وقال: والله لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. قال: إذن أقتلك.

قال: أنت وما تريد، ثم أمر به فصلب، وقال لقناصته ـ بالرومية ـ: ارموه قريبًا من يديه، وهو يعرض عليه التنصر فأبى، فقال: ارموه قريبًا من رجليه، وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى.

عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقدر عظيمة فصب فيها الزيت ورفعت على النار حتى غلت ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يلقى فيها فألقي، فإذا لحمه يتفتت.

---

(١) «الفرج بعد الشدة» لإبراهيم بن عبد الله الحازمي.

(٢) المكبل: المقيد.

وإذا عظامه تبدو عارية... ثم التفت إلى عبد الله بن حذافة ودعاه إلى النصرانية، فكان أشد إباءً لها من قبل، فلمَّا يئس منه، أمر به أن يلقى في القدر التي ألقي فيها صاحباه فلما ذهب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: إنه قد بكى... فظن أنه قد جزع وقال: ردوه إليَّ، فلما مثل بين يديه عرض عليه النصرانية فأباها، فقال: ويحك، فما الذي أبكاك إذًا؟!. قال: أبكاني أني قلت في نفسي: تلقى الآن في هذه القدر، فتذهب نفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفس فتلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله.

فقال الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك؟. فقال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا؟ قال: وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا. قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله، أقبل رأسه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين جميعًا، لا ضير في ذلك عليَّ.

ثم دنا منه وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أسارى المسلمين، وأن يدفعوهم إليه، فدفعوا له.

قَدِمَ عبد الله بن حذافة على عمر بن الخطاب ﵁، وأخبره خبره؛ فسرَّ به الفاروق أعظم السرور، ولمَّا نظر إلى الأسرى قال: حق على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة... وأنا أبدأ بذلك.

عامر بن فهيرة

مولى أبي بكر رضي الله عنهما

يكنى أبا عمر واشتراه أبو بكر وأعتقه قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، فكان من المستضعفين يعذب بمكة ليرجع عن دينه، وشهد بدرًا وأحدًا وقُتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة.

قال العلماء بالسير: طعنه جبار بن سلمى فأنفذه، فقال عامر: فزتُ والله جبار، أما قوله: «فزت والله» قـالوا: بالجنة، فأسلم جبار، ولم يوجد عـامر، قال عروة بن الزبير: يَرون أن الملائكة دفنته.

روى البخاري عن عائشة قالت: لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل، فمكثا فيـه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ويدلج مـن عندهما بسحر، ويرعى عليهما عامر بن فـهيرة مولى أبي بكر منحةً من غنم[١] فيريحهـا عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فـيبيتان في رسل، وهو لبن منحتهمـا، حتى ينعق بها عامر ابن فهيره بغلسٍ[٢]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وعن عائشة قالت: لم يكن مع رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة إلا أبو بكر، وعامر بن فهيرة، ورجل من بني الديل دليلهم.

وعن الزهري قال: أخبرني ابن كعب بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ إلى بني سليم نفراً فيهم عامر بن فهيرة، فاستجاش عليهم عامر بن الطفيل فأدركوهم ببئر معونة فقتلوهم، قـال الزهري: فبلغني أنهم التمسوا جسد عامـر بن فهيرة فلم يقدروا عليه. قال: فيرون أن الملائكة دفنته.

وعن عروة أن عامر بن الطفيل كان يقول من رجل منهم؟ لما قتل رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه قالوا هو عامر بن فهيرة[٣].

---

(١) شاة ينتفع بلبنها ويعيدها.

(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٣) الخبر ذكره ابن إسحاق في «السيرة»، وابن عبد البر في «الاستيعاب» في ترجمة عامر بن فهيرة.

حديث الإفك

خصومة عائشة ﵂ مع من رماها بهذا الإفك المبين

عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوجة النبي ﷺ، حين قال لها الإفك ما قالوا فبرأها الله عزَّ وجلَّ، وكلهم حدثني بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصًا[1] وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني وبعض حديثهم يصدق بعضًا.

ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا[2] أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزاةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنونا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار[3] قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بهودجي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه.

---

(١) أي تتبعًا للقصة.

(٢) كذا ولعل الصواب «إلى سفر».

(٣) الجزع: الخرز، وظفار على زنة قطام: مدينة لحمير باليمن، ويروى أظفار والصحيح الأول.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن[١] ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل[٢] الهودج حين رحلوه فرفوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش. فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان ابن المعطل السُلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش (وأدلج فأصبح عند منزلي) فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يُضرب الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه. حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني.

وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول. فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك. وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟»، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب.

---

(١) لم يصبن بالسمنة.

(٢) كذا في جميع الأصول، وفي صحيح البخاري: خفة.

فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم سطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ فقالت: أي هنتاه[(١)] أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما ذاك؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا إلى مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكم؟»، قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قال: «وأنا»، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: أي بُنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط حظية عند زوجها[(٢)] ولها ضرائر إلا أكثرن عليها القول، قالت: قلت: أي سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟!. قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا ترقأ لي دمعة، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[(٣)] يستشيرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا أعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بُريرة فقال: «أي بُريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟»، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق نبيًا إن رأيت[(٤)] عليها أمرًا قط أغمصه عليها[(٥)] أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله.

---

(١) كلمة تقال في خطاب الأنثى. وفيها لغات أخرى، والهن: كناية عن كل اسم جنس، ومعناه شيء «أقرب الموارد».

(٢) ط: وضيئة عند رجل.

(٣) أبطأ.

(٤) أي: ما رأيت.

(٥) أي: أعيبه عليها.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟. فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا فقبلنا أمرك. قالت: فقام سعد ابن عُبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن عبادة: كذبت، والله لنقتلنه. فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا. ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا (وسكت).

قالت عائشة رضي الله عنها وبكيت يومي ذلك لا ترقأ لي دمعة ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا ترقأ لي دمعة ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي. فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس عندي، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل. وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه (قد) بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عزّ وجلّ، وإن كنت هممت أو لمت بذنب فاستغفري الله عزّ وجلّ وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلُص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله

ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ. فقلت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقالت عائشة ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن ـ: بلى إني والله قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله عزَّ وجلَّ يعلم أني بريئة لا تصدقوني، وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة تصدقوني، وإني والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (سورة يوسف:١٨).

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي. قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله عزَّ وجلَّ مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عزَّ وجلَّ فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله عزَّ وجلَّ بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان (يأخذه) من البرحاء عند الوحي حتى إنه كان ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُري عنه يعني رسول الله ﷺ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة أما إن الله تعالى قد برأك»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى وهو الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ (سورة النور:١١)، سبع عشرة[1] آية. فأنزل الله تعالى هذه الآيات براءتي، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره فقال: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا إن شاء الله تعالى بعد الذي قال في عائشة ما قال. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النور:٢٢)،

---

(١) ط: عشر آيات.

فقال أبو بكر الصديق: إني لأحب أن يغفر الله عزَّ وجلَّ لي، فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري ما علمت أو ما رأيت أو ما بلغك؟ قالت: يا رسول الله صلى الله عليك أحمى سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى عني بالورع وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. (أخرجاه في الصحيحين)[١].

سرية بئر معونة[٢]

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القراء فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ، فقتلوهم فدعا النبي ﷺ عليهم شهرًا في صلاة الغداة وذاك بدء القنوت وما كنا نقنت.

وروي أيضًا عن أنس بن مالك أن رعلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى إذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم

(١) الحديث صحيح أخرجه البخاري في الشهادات وفي تفسير سورة النور وفي المغازي، وأخرجه مسلم في تفسير سورة النور، والترمذي في تفسير سورة النور برقم (٣١٧٩).
(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ـ باختصار.

فبلغ النبي ﷺ فقنت شهرًا يدعو في الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنًا ثم إن ذلك رفع «**بلغوا عنا قومنا أنَّا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا**».

وروي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ بعث حرامًا (أخًا لأم سليم) في سبعين راكبًا وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خير رسول الله ﷺ بين ثلاث خصال فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر أو أكون خليفتك أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف فطُعن عامر في بيت أم فلان فقال: غدة كغدة البكر في بيت امرأة من آل فلان، ائتوني بفرسي فمات على ظهر فرسه فانطلق حرام أخو أم سليم وهو رجل أعرج ورجل من بني فلان، فقال: كونا قريبًا حتى آتيهم فإن آمنوني كنتم قريبًا وإن قتلوني أتيتم أصحابكم فقال أتؤمنوني حتى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم وأومأوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه قال همام: أحسبه حتى أنفذه بالرمح فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فلحق الرجل فقتلوا كلهم غير الأعرج وكان في رأس جبل فأنزل الله علينا ثم كان من المنسوخ «إنا لقد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا» فدعا النبي ﷺ ثلاثين صباحًا على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله ورسوله.

وروى البخاري: عن أنس بن مالك قال: لما طعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه وقال: فزت ورب الكعبة.

وروى البخاري عن عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن هشام بن عروة أخبرني أبي قال لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، قال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم فنعاهم فقال: «**إن أصحابكم قد أصيبوا**

وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا»، فأخبرهم عنهم، وأصيب يومئذ فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسمى عروة به ومنذر بن عمرو وسمى به منذر.

وفي مغازي موسى بن عقبة عن عروة أنه قال: لم يوجد جسد عامر بن فهيرة يرون أن الملائكة وارته وقال يونس عن ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ يعني بعد أحد بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ثم بعث أصحاب بئر معونة في صفر على رأس أربعة أشهر من أحد.

قال بعض أهل العلم: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ بالمدينة فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جار، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة المعنق ليموت في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين فيهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدي بن النجار وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر في رجال من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرَّة بني سليم فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر في الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم وقالوا: لن نُخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم ـ عصية ورعلاً وذكوان والقارة ـ فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا أسيافهم ثم قاتلوا القوم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار فإنهم تركوه به رمق فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري

ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف، فلم ينبئهما بمصاب القوم إلا الطير تحوم حول العسكر فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ماذا ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني لم أكن لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لأخبر عنه الرجال. فقاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو أسيرًا فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم. قال: وخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا في ظل هو فيه وكان مع العامريين عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما وقتلهما وهو يرى أن قد أصاب بهما ثأرًا من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره بالخبر، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين لأدينهما**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا**»، فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، فقال حسان بن ثابت في إخفار عامر أبا براء ويحرض بني أبي براء على عامر:

بني أم البنين ألم يرعكم ••• وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء ••• ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ••• فما أحدثت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب وأبو براء ••• وخالك ماجد حكم بن سعد

قال ابن هشام: أم البنين أم أبي براء وهي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة، قال: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه في

فخذه فأشواه، ووقع عن فرسه وقال: هذا عمل أبي براء، إن أمت فدمي لعَمِّي فلا يتبعن به، وإن أعش فسأرى رأيي.

وقال حسان بن ثابت يبكي قتلى بئر معونة ـ فيما ذكره ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ والله أعلم:

على قتلى معونة فاستهلي ▫▪▫ بدمع العين سحّا غير نزر
على خيل الرسول غداة لاقوا ▫▪▫ ولاقتهم مناياهم بقدر
أصابهم الفناء بعقد قوم ▫▪▫ تخون عقد حبلهم بغدر
فيالهفي لمنذر إذ تولى ▫▪▫ وأعنق في منيته بصبر
وكائن قد أصيب غداة ذاكم ▫▪▫ من أبيض ماجدٍ من سر عمرو

الأخبار بمقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما (١)

عن أنس قال: استأذن ملك المطر أن يأتي النبي ﷺ، فأذن له، فقال لأم سلمة: احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين بن علي، فوثب حتى دخل، فجعل يصعد على منكب النبي ﷺ فقال له الملك: أتحبه؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»، قال: فإن أمتك تقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، قال: فضرب بيده فأراه ترابًا أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها، قال: فكنا نسمع: يقتل بكربلاء. (رواه أحمد والبيهقي).

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ اضطجع ذات يوم فاستيقظ وهو حائر، ثم اضطجع فرقد، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت منه في المرة الأولى، ثم اضطجع واستيقظ وفي يده تربة حمراء وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول الله؟،

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ـ باختصار.

فقال: «أخبرني جبريل أن هذا مقتل بأرض العراق للحسين، قلت له: يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها» (رواه البيهقي).

عن ابن عباس قال: كان الحسين جالسًا في حجر النبي ﷺ فقال جبريل: أتحبه؟، فقال: «وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي؟»، فقال: أما إن أمتك ستقتله، ألا أريك من موضع قبره؟ فقبض قبضة فإذا تربة حمراء. (رواه البزار).

عن أم الفضل بنت الحارث أنها دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني رأيت حلمًا منكرًا الليلة، قال: «وما هو؟»، قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري، قال: «رأيت خيرًا، تلك فاطمة إن شاء الله تلد غلامًا فيكون في حجرك، فولدت فاطمة الحسين»، فكان في حجري كما قال رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان الدموع، قالت: قلت يا نبي الله بأبي أنت وأمي، مالك؟، قال: «أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا»، فقلت: هذا؟، قال: «نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء».

وقد روى الإمام أحمد عن أم الفضل قالت: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إني رأيت في منامي أن في بيتي أو حجري عضوًا من أعضائك، قال: «تلد فاطمة إن شاء الله غلامًا فتكفلينه»، فولدت له فاطمة حسينًا، فدفعته إليها فأرضعته بلبن قثم، فأتيت به رسول الله ﷺ يومًا أزوره، فأخذه فوضعه على صدره فبال فأصاب البول إزاره، فزخخت بيدي على كتفيه، فقال: «أوجعت ابني أصلحك الله»، أو قال: «رحمك الله»، فقلت: أعطني إزارك أغسله، فقال: «إنما يغسل بول الجارية ويصب على بول الغلام».

قال الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار وهو قائل، أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دم، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا؟. قال: «دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم»، قال: فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم رضي الله عنه، قال قتادة: قتل الحسين يوم

الجمعة، يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله أربع وخمسون سنة وستة أشهر ونصف شهر. وهكذ قال الليث وأبو بكر بن عياش الواقدي والخليفة بن خياط وأبو معشر وغير واحد: إنه قتل يوم عاشوراء عام إحدى وستين، وزعم بعضهم أنه قتل يوم السبت، والأول أصح، وقد ذكروا في مقتله أشياء كثيرة أنها وقعت من كسوف الشمس يومئذ، وهو ضعيف، وتغيير آفاق السماء، ولم ينقلب حجر إلا وجد تحته دم، ومنهم من خصص ذلك بحجارة بيت المقدس، وأن الورس استحال رمادًا، وأن اللحم صار مثل العلقم وكان فيه النار، إلى غير ذلك مما في بعضها نكارة، وفي بعضها احتمال، والله أعلم.

وقد مات رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ولم يقع شيء من هذه الأشياء، وكذلك الصديق بعده، مات ولم يكن شيء من هذا، وكذا عمر بن الخطاب قتل شهيدًا وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر، وحصر عثمان في داره وقتل بعد ذلك شهيدًا، وقتل علي بن أبي طالب شهيدًا بعد صلاة الفجر، ولم يكن شيء من هذه الأشياء، والله أعلم.

وقد روى حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمارة عن أم سلمة أنها سمعت الجن تنوح على الحسين بن علي، وهذا صحيح، وقال شهر بن حوشب: كنا عند أم سلمة فجاءها الخبر بقتل الحسين فخرت مغشيًا عليها، وكان سبب قتل الحسين أنه كتب إليه أهل العراق يطلبون منه أن يقدم إليهم ليبايعوه بالخلافة، وكثر تواتر الكتب عليه من العامة ومن ابن عمه مسلم بن عقيل، فلما ظهر على ذلك عبيد الله بن زياد نائب العراق ليزيد بن معاوية، فبعث إلى مسلم بن عقيل يضرب عنقه ورماه من القصر إلى العامة، فتفرق ملؤهم وتبددت كلمتهم، هذا وقد تجهز الحسين من الحجاز إلى العراق، ولم يشعر بما وقع، فتحمل بأهله ومن أطاعه وكانوا قريبًا من ثلثمائة، وقد نهاه عن ذلك جماعة من الصحابة، منهم أبو سعيد، وجابر، وابن عباس، وابن عمر، فلم يطعهم، وما أحسن ما نهاه ابن عمر عن ذلك، واستدل له على أنه لا يقع

ما يريده فلم يقبل، فروى الحافظ البيـهقي من حديث يحيى بن سالم الأسدي، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه، قال: سمعت الشـعبي يقول: كان ابن عـمر قدم المدينة فأخبر أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق، فلحقه علـى مسيرة ليلتين أو ثلاث من المدينة، قـال: أين تريد؟ قال: العـراق ومعـه طواميـر وكتب، فـقال: لا تأتهم، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: إن الله خير نبيه ﷺ بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله ﷺ ، والله لا يليها أحد منكم أبدًا، وما صرفـها عنكم إلى الذي هو خير منكم، فارجعـوا، فأبى وقال: هذه كتبهم وبيعـتهم، قال: فاعتنقه ابن عمر وقال: أستـودعك الله من قتيل، وقد وقع ما فهمه عبد الله بن عمر من ذلك سواء، من أنه لم يل أحد من أهل البيت الخلافة على سبيل الاستقلال ويتم له الأمر، وقـد قال ذلك عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب إنه لا يلي أحد من أهل البيت أبدًا.

ورواه عنهـما أبو صالح الخلـيل بن أحمد بـن عيسى بن الـشيخ في كتـابه الفتن والملاحم. قلت: وأما الخلفاء الفاطميون الذين كـانوا بالديار المصرية، فإن أكثر العلماء على أنهم أدعياء وعلي بن أبي طالب ليـس من أهل البيت، ومع هذا لم يتم له الأمر كمـا كان لـلخلفاء الثـلاثة قبله، ولا اتسـعت يده في البـلاد كلها، ثم تنكدت علـيه الأمور، وأما ابنه الحسن رضي الله عنه فإنه لما جاء في جيوشه وتصافى هو وأهل الشام، ورأى أن المصلحة في ترك الخلافـة، تركها لله عزَّ وجلَّ، وصيـانة لدماء المسلمين، أثابه الله ورضي عنه، وأما الحـسين رضي الله عنه فإن ابن عمـر لما أشار عليه بتـرك الذهاب إلى العراق وخالفه، اعتنقه مودعًا وقال: أستـودعك الله من قتيل، وقد وقع ما تفرسه ابن عمر، فإن لما استقل ذاهبًا بعث إليـه عبيد الله بن زياد بكتيبة فيها أربعـة آلاف يتقدمهم عمرو ابن سعد بن أبي وقاص، وذلك بعدما استعفاه فلم يعفه، فالتقوا بمكان يقال له كربلاء بالطف، فالتجأ الحسين بن علي وأصحابه إلى مـقصبة هنالك، وجعلوها منهم بظهر، وواجهـوا أولئك، وطلب منهم الحسين إحـدى ثلاث: إما أن يدعوه يـرجع من حيث

جاء، وإما أن يذهب إلى ثغر من الثغور فيقاتل فيه، أو يتركوه حتى يذهب إلى يزيد ابن معاوية فيضع يده في يده، فيحكم فيه بما شاء، فأبوا عليه واحدة منهن، وقالوا: لابد من قدومك على عبيد الله بن زياد فيرى فيك رأيه، فأبى أن يقدم عليه أبدًا، وقاتلهم دون ذلك، فقتلوه ـ رحمه الله ـ وذهبوا برأسه إلى عبيد الله بن زياد فوضعوه بين يديه، فجعل ينكت بقضيب في يده على ثناياه، وعنده أنس بن مالك جالس، فقال له: يا هذا، ارفع قضيبك، قد طال ما رأيت رسول الله ﷺ يقبل هذه الثنايا، ثم أمر عبيد الله بن زياد أن يسار بأهله ومن كان معه إلى الشام، إلى يزيد بن معاوية.

وقد رثاه الناس بمراث كثيرة ومن أحسن ذلك ما أورده الحاكم أبو عبد الله النيسابوري وكان فيه تشيع:

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمدٍ ... متزملاً بدمائه تزميلا
فكأنما بك يا ابن بنت محمدٍ ... قتلوا جهارًا عامدين رسولا
قتلوك عطشانًا ولم يترقبوا ... في قتلك التنزيل والتأويلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

وقعة الحرة في زمن يزيد

عن أيوب بن بشير المعافري أن رسول الله ﷺ خرج في سفر من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف فاسترجع، فساء ذلك من معه، وظنوا أن ذلك من أمر سفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ما الذي رأيت؟، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إن ذلك ليس من سفركم هذا**»، قالوا: فما هو يا رسول الله؟، قال: «**يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي**». هذا مرسل.

عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ (سورة الأحزاب: ١٤)، قال: لأعطوها، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على أهل المدينة، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وتفسير الصحابي في حكم المرفوع عند كثير من العلماء.

عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أرأيت إن الناس قتلوا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف أنت صانع؟»، قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: «تدخل بيتك»، قال: قلت: فإن أتى عليَّ؟ قال: «يأتي من أنت منه»، قال قلت: وأحمل السلاح؟ قال: «إذًا تشرك معهم»، قال: قلت: فكيف أصنع يا رسول الله؟ قال: «إن خفت أن يبهرك شعاع السيف فألق طائفة من ردائك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه» (ورواه الإمام أحمد في مسنده).

قلت: وكان سبب وقعة الحرة أن وفدًا من أهل المدينة قدموا على يزيد بن معاوية بدمشق فأكرمهم وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم ـ وهو عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ـ قريبًا من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهليهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي من أكبرها ترك الصلاة عن وقتها، بسبب السكر، فاجتمعوا على خلعه، فخلعوه عند المنبر النبوي، فلما بلغه ذلك بعث إليهم سرية، يقدمها رجل يقال له مسلم بن عقبة، وإنما يسميه السلف: مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غضون هذه الأيام بشرًا كثيرًا حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها، وزعم بعض علماء السلف أنه قتل في غضون ذلك ألف بكر فالله أعلم.

وقال عبد الله بن وهب عن الإمام مالك: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، حسبت أنه قال: وكان فيهم ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك في خلافة يزيد، وقال يعقوب بن سفيان: سمعت سعيد بن كثير بن عفير الأنصاري يقول: قتل يوم الحرة عبد الله بن يزيد المازني ومعقل بن سليمان الأشجعي، ومعاذ

بن الحارث القاري، وقتل عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر. قال يعقوب: وحدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث قال: كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لثلاث بقين من الحجة سنة ثلاث وستين، ثم انبعث مسرف بن عقبة إلى مكة قاصدًا عبد الله بن الزبير ليقتله بها، لأنه فر من بيعة يزيد، فمات يزيد بن معاوية في غضون ذلك، واستفحل أمر عبد الله بن الزبير في الخلافة بالحجاز، ثم أخذ العراق ومصر، وبويع بعد يزيد لابنه معاوية بن يزيد، وكان رجلاً صالحًا.

بين عمر بن عبد العزيز
وعمر بن الوليد وغيره

جعل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ لا يدع شيئًا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها: مظلمة، مظلمة. فلما بلغ الخوارج سير عمر وما رد من المظالم اجتمعوا فقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل. فبلغ ذلك عمر بن الوليد ابن عبد الملك فكتب إليه إنك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم: بغضًا لهم، وشنئًا لمن بعدهم من أولادهم، قطعت ما أمر الله به أن يُوصل؛ إذ عمدت إلى أموال قريش، ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال: جورًا وعدوانًا، ولن تترك على هذا، فلما قرأ كتابه كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد، السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. أما بعد، فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه: أما أول شأنك ابن الوليد كما زعم فأمك «بنانة» أمة السكون كانت تطوف في سوق حمص، وتدخل، وتدور في حوانيتها، ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان من فيء المسلمين، فأهداها لأبيك فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأنت فكنت جبارًا عنيدًا تزعم أني من الظالمين، لما حرمتك وأهل بيتك فيء الله

عزَّ وجلَّ الذي فيه حقُ القرابة، والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين، تحكم فيهم برأيك، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك، ما أكثر خصماءكم كما يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟ وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدماء الحرام، ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني، وأترك لعهد الله من استعمل قُرة بن شريك أعرابيًا جافيًا على مصر، أذن له في المعازف واللهو والشُرب. وإن أظلم مني، وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العرب، فرويدًا يا ابن بنانة، فلو التقى حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، ومن وراء هذا ما أرجو أن أكون رأيته بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين اليتامى، والمساكين، والأرامل، فإن لكل فيك حقًا، والسلام علينا، ولا ينال سلام الله الظالمين.

وعن عمرو بن مهاجر قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي، ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟.

وخطب عمر بن عبد العزيز يومًا فقال: أما بعد؛ فإن الله عزَّ وجلَّ لم يخلقكم عبثًا ولم يدع شيئًا من أمركم سدى، وإن لكم معادًا فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واشترى قليلاً بكثير، وفانيًا بباق، وخوفًا بأمن، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون؟ كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، في كل يومٍ وليلة تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله عزَّ وجلَّ، قد مضى نحبه، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع، ثم تدعونه غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، وفقيرًا إلى ما قدم، وغنيًا عما ترك؛ فاتقوا الله قبل نزول الموت، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم

من الذنوب ما أعلم عندي، ومـا يبلغني عن أحد منكم ما يسـعه ما عندي إلا وددت أنه يمكنني تغـييـره، حتى يستـوي عيـشنا وعيـشه، وايم الله لو أردت غيـر ذلك من الغضارة والعيش، لكان اللسان مني به ذلولاً عالمًا بأسبابه، ولكن سبق من الله أحب إليَّ من أن أخون فلسًا أو أتعدى، قالوا: قـد عذرناك في ذات يدك، فولنا أعمالاً من أعمالـك نؤدي ما يؤدي الناس إليك، ونصيب من المنفعـة ما يصيبـون، وأنت تعرف حالنا، وإنا ليس نعدو مـا جعلت لنا قال: والله إني لأعرفكم بالفـضل والخير ولكن يبلغ عمر أني وليت نفرًا من قومي فيلومني، قالوا: فقد ولاك أبو عبيدة وأنت منه في القرابة بحـيث أنت، فأنفذ ذلك عمـر، فلو وليتنا لأنفذه، قال: إني لست عـند عمر كأبي عبيدة فمضوا لائمين له.

وعن سهل بن يحيى محـمد المروزي قال: أخبرني أبي عن عبـد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز، قال: لما دفن عمر بن عبـد العزيز سليمان بن عبد الملك، وخرج من قبره سـمع للأرض هدَّه أو رجَّـة فقال: ما هذه؟ فـقيل: هذه مراكب الخلافـة يا أمير المؤمنين، قُربت إليك لتـركبها، فـقال: ما لي ولها؟ نحـوها عني، قربوا إليَّ بغلتي. فقربت إليه بغلته، فـركبها، فجاءه صاحب الشرط يسيـر بين يديه بالحربة فقال: تنحَّ عني مـا لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين. فـسار وسـار مـعه الناس حـتى دخل المسجد فصعد المنبر واجتمـع الناس إليه فقال: يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كـان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشـورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعـتي، فاختاروا لأنفسكم. فـصاح المسلمون صيحـة واحدة، قد اخـترناك يا أمـير المؤمنين، ورضـينا بك، فتـولى أمـرنا باليُمن والبـركة، فلمـا رأى الأصوات قـد هدأت، ورضي به الناس جمـيعًـا، حمد الله وأثنى عليـه وصلى على النبي ﷺ، وقال: أوصيكم بتقـوى الله، فإن تقوى الله خلفٌ من كل شيء، ليس من تقوى الله عـزَّ وجلَّ خلفٌ، فاعملوا لآخـرتكم؛ فإنه من عمل لآخرته كـفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر

الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم؛ فإنه هاذم اللذات، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم - عليه السلام - أبًا حيًا لمعرق في الموت، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربهم عزَّ وجلَّ، ولا في نبيها، ولا في كتابها، إنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله، لا أعطي أحدًا باطلاً ولا أمنع أحدًا حقًا، ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله فقد وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله، فلا طاعة لي عليكم، ثم نزل، فدخل، فأمر بالستور، فهتكت والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت، وأمر ببيعها، وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوأ مقيلاً، فأتاه ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أي بني أقيل. قال: تقيل ولا ترد المظالم؟ قال: أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، قال: يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش إلى الظهر؟ قال: ادن مني أي بني، فدنا منه فالتزمه، وقبل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني، فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضًا والعباس جالس، فقال له: يا عباس، ما تقول؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عزَّ وجلَّ. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يُتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، قم فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد الله عزَّ وجلَّ كتاب ناطقٌ، وسنة عادلة دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته.

وكانت آخر خطبة خطبها.

وعن هشام قال: لما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عيلة لا

شيء لهم، فلو وصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من أهل بيتك. قال: فقال: أسندوني، ثم قال: أما قولك، إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله إني ما منعتهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم؛ فإن وصيي ووليي فيهم الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين، بني أحد الرجلين: إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن أقويه على معاصي الله. ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال: بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلة لا شيء لهم، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير أي بنيَّ إن أباكم مثل بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله.

قصة سعيد بن جبير
مع الحجاج بن يوسف الثقفي ومقتل سعيد

عن أبي حصين قال: أتيت سعيد بن جبير بمكة فقلت: إن هذا الرجل قادم يعني خالد بن عبد الله، ولا آمنه عليك، فأطعني واخرج. فقال: والله، لقد فررت حتى استحييت من الله. قلت: والله، إني لأراك كما سمتك أمك سعيدًا. قال: فقدم مكة، فأرسل إليه، فأخذه، فأخبرني يزيد بن عبد الله قال: أتينا سعيد بن جبير حين جيء به، فإذا هو طيب النفس، وبنية له في حجره، فنظرت إلى القيد، فبكت، فشيعناه إلى باب الجسر، فقال له الحرس: أعطنا كفلاء، فإنا نخاف أن تُغرق نفسك. قال يزيد: فكنت فيمن كُفل به. وعن داود بن أبي هند قال لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير: ما أراني إلا مقتولاً، وسأخبركم أني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الشهادة فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها، فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء.

وعن عمر بن سعيد قال: دعا سعيد بن جبير ابنه حين دُعي ليقتل؛ فجعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة.

وعن الحسن قال: لما أُتي الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنت الشقي بن كُسير؟ قال: بل أنا سعيد بن جبير، قال: بل أنت الشقي بن كسير، قال: كانت أمي أعرف باسمي منك. قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني النبي ﷺ. قال: نعم، قال: سيد ولد آدم، المصطفى، خير من بقي، وخير من مضى، قال: فما تقول في أبي بكر الصديق؟ قال: الصديق خليفة رسول الله ﷺ، مضى حميدًا، وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج نبيه محمد ﷺ لم يغير، ولم يبدل، قال: فما تقول في عمر؟ قال: عمر الفاروق خيرة الله، وخيرة رسوله مضى حميدًا على منهاج صاحبيه، لم يغير ولم يبدل. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: المقتول ظلمًا، المجهز جيش العسرة، الحافر بئر رومة، المشتري بيته في الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه زوجه النبي ﷺ بوحي من السماء، قال: فما تقول في علي؟ قال: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم[1]، وزوج فاطمة، وأبو الحسن والحسين، قال فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أعلم بنفسك، قال: بثَّ بعملك «أي قل ما تعلم». قال: إذًا نسوءك ولا نسرك، قال: بثُّ بعلمك، قال: اعفني. قال: لا عفا الله عني إن أعفيتك، قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله، ترى من نفسك أمورًا تريد بها الهيبة، وهي التي تقحمك الهلاك، وسترد غدًا فتعلم، قال: أما والله، لأقتلنك قتلةً لم أقتلها أحدًا قبلك، ولا أقتلها أحدًا بعدك، قال: إذًا تُفسد عليَّ دنياي، وأفسد عليك آخرتك، قال: يا غلام، السيف والنطع[2]، فلما ولَّى ضحك. قال: قد بلغني أنك تضحك. قال: قد كان ذلك. قال: فما أضحكك عند القتل؟ قال: من جرأتك على الله عزَّ

(١) أي من الصبيان وإلا فأول من أسلم من الرجال فهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
(٢) جلد سميك يوضع عليه من يراد ذبحه حتى لا يتسخ القصر من الدم!!.

وجلَّ ومن حلم الله عنك. قال: يا غلام اقتله، فاستقبل القبلة فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام:٧٩)، فصرف وجهه عن القبلة فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة:١١٥)، قال: اضرب به الأرض، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (سورة طه:٥٥)، قال: اذبح عدو الله فما أنزعه لآيات القرآن منذ اليوم.

قال ابن ذكوان: إن الحجاج بن يوسف بعث إلى سعيد بن جبير فأصابه الرسول بمكة، فلما سار به ثلاثة أيام رآه يصوم نهاره، ويقوم ليله، فقال الرسول: «والله، إني لأعلم أني أذهب بك إلى من يقتلك فاذهب إلى أي طريق شئت». فقال له سعيد: إنه سيبلغ الحجاج أنك قد أخذتني فإن خليت عني خفت أن يقتلك، ولكن اذهب بي إليه، قال: فذهب به، فلما دخل عليه قال له الحجاج: ما اسمك؟ قال سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، فقال: أمي سمتني. قال: شقيت. قال: الغيب يعلمه غيرك، قال له الحجاج: أما والله، لأبدلنك من دنياك نارًا تلظى. قال سعيد: لو علمت أن ذلك إليك ما اتخذت إلهًا غيرك. ثم قال له الحجاج: ما تقول في رسول الله ﷺ؟ قال: نبي مصطفى، خير الباقين وخير الماضين، قال: فما تقول في أبي بكر الصديق؟ قال: ثاني اثنين إذ هما في الغار، أعزَّ الله به الدين وجمع به بعد الفرقة، قال: فما هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ قال: فاروق وخيرة الله من خلقه، أحب الله أن يُعز الدين بأحد الرجلين، فكان أحقهما بالخيرة والفضيلة. قال: فما تقول في عثمان بن عفان؟ قال: مجهز جيش العسرة، والمشتري بيتًا في الجنة، والمقتول ظلمًا. قال: فما تقول في علي؟ قال: أولهم إسلامًا، وأكثرهم هجرة، تزوج بنت رسول الله ﷺ التي هي أحب بناته إليه، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: كاتب رسول الله ﷺ. قال: فما تقول في الخلفاء منذ كان رسول الله ﷺ إلى الآن؟ قال: سيجزون بأعمالهم، فمسرور ومثبور «هالك» ولست عليهم بوكيل، قال: فما تقول في عبد الملك بن مروان؟ قال: إن يكن محسنًا فعند الله ثواب إحسانه، وإن

يكن مسيئًا فلن يعجز الله. قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت بنفسك أعلم، قال: بُث فيَّ علمك، قال: إذًا أسوءك ولا أسرك، قال: بُث. قال: نعم، ظهر منك جورٌ في حد الله، وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله. قال: والله، لأقطعنك قطعًا، وأفرقن أعضاءك، عضوًا، عضوًا، قال: إذًا تفسد عليَّ دنياي، وأفسد عليك آخرتك والقصاص أمامك. قال: الويل لك من الله. قال: لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، قال: اذهبوا به فاضربوا عنقه، قال سعيد: إني أشهدك أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة، فذُبح من قفاه، قال: فبلغ ذلك الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: اللهم، يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج، فما بقي إلا ثلاثًا حتى وقع في جوفه الدود فمات.

وعن يحيى بن سعيد، عن كاتب الحجاج يقال له: يعلى، قال: كانت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام حديث السن، فدخلت عليه يومًا بعد ما قتل سعيد بن جبير، وهو في قبة لها أربعة أبواب، فدخلت مما يلي ظهره، فسمعته يقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ فخرجت رويدًا، وعلمت أنه إن علم بي قتلني، فلم ينشب «لم يلبث» الحجاج بعد ذلك إلا يسيرًا، وفي رواية أخرى: عاش بعده خمسة عشر يومًا، وفي رواية: ثلاثة أيام، وكان يقول: ما لي ولسعيد بن جبير؟ كلما أردت النوم أخذ برجلي.

وعن عمرو بن ميمون، عن أبيه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو يحتاج إلى علمه.

بين الفضيل بن عياض وهارون الرشيد

وعن الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعًا فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال: ويحك قد حكَّ في نفسي شيء[1] فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله.

فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، فقال: أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله، فقلت له: ها هنا عبد الرزاق بن همام، قال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك، قال: خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى صاحبك شيئًا انظر لي رجلاً أسأله، قلت: هاهنا الفضيل ابن عياض، قال امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها. فقال: اقرع الباب. فقرعت الباب فقال: من هذا؟، فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس للمؤمن أن يُذل نفسه»، فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت. فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفَّ هارون قبلي إليه. فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله عزَّ وجلَّ فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال

---

(١) يقال: حك في صدري شيء، أي عمل وأثر. وفي ق: «حصل في نفسي شيء» والمعنى واحد.

له: خذ لما جئناك له رحمك الله فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ. فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت، وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا وأوسطهم عندك أخًا وأصغرهم عندك ولدًا فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله عزَّ وجلَّ فأحب للمسلمين ما تُحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مُت إذا شئت وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف[1] يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديدًا حتى غُشي عليه فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا بن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله عزَّ وجلَّ.

قال: فبكى هارون بكاء شديدًا ثم قال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله

(١) كذا في النسخ. والصواب «يومًا» مفعول أخاف. ق: «يوم تزول».

أمرني على إمارة، فقال له النبي ﷺ: «إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»[١].

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عزَّ وجلَّ عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتُمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يُرح رائحة الجنة»[٢].

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي قال: إنما أعني دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦-٥٨).

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين، فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قومٍ كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

---

(١) لم أجده، وفي الباب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئس الفاطمة» أخرجه البخاري والنسائي، وقال أبو ذر: يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» أخرجه مسلم وأبو داود.

(٢) أخرجه البخاري في الباب الثامن من كتاب الأحكام، ومسلم في الإمارة (٦/ ٩).

فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله. فانصرفنا.

بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك

عن عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم قال: حدثني أبي قال: بعث سليمان ابن عبد الملك إلى أبي حازم فجاءه فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمَّرتم دنياكم فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت. فكيف القدوم على الله عزَّ وجلَّ؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ قال: اعرض نفسك على كتاب الله عزَّ وجلَّ فإنك تعلم ما لك عند الله قال: يا أبا حازم وأنى أصيب ذلك؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (سورة الانفطار: ١٣-١٤)، فقال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٦)، قال: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أعفني عن[١] هذا. قال سليمان: نصيحةٌ تلقيها. قال أبو حازم: إن أناسًا أخذوا هذا الأمر عنوةً من غير مشاورة من المسلمين ولا اجتماعٍ من رأيهم فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ. قال أبو حازم: كذبتَ، إن الله تعالى أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: اصحبنا يا أبا حازم تصب منا ونصب منك، قال: أعوذ بالله من ذلك، قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلاً فيذيقني

(١) كذا في النسخ، والصواب تعدية الفعل بمن.

ضعف الحياة وضعف الممات، قــال: فأشر علي، قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك. وأن يفقدك حيث أمرك، قال: يا أبا حازم ادع لنا بـخير. قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسـره للخير، وإن كان عدوك فخـذ إلى الخير بناصيته، فـقال: يا غلام هات مائة دينار، ثم قال: خذها من أبا حازم، فقال: لا حاجة لي فيها إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكأن سليمان أعـجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجـاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط، قـال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيـتني ولو أحببت الله لأحـبتني، قال الزهري أتشتـمني؟ قال سليمان: بل أنت شـتمت نفسك. أمـا علمت أن للجار على جاره حقًا؟ قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم وأتوا بـه إلى الأمراء فاستـغنت به عن العلماء واجتـمع القوم على المعصية فـسقطوا وانتكسوا ولو كان علماؤنا يصونون علمـهم لم تزل الأمراء تهابهم، قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرض. قال: هو ما تسمع.

وعن الذيال بن عباد قال: كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري: عافانا الله وإياك أبا بكر[١] من الفتن فقد أصبحت بحال ينبـغي لمن عرفك بها أن يرحمك: أصبحت شيـخًا كبـيرًا وقـد أثقلتك نعم الله عليك فيـما أصح من بدنك وأطال من عـمرك وعلمت حجج الله تعالى مما علمـك من كتابه، وفقهك فيـه من دينه، وفهمك من سنة نبيه ﷺ فـرمى بك في كل نعمة أنعمـها عليك وكل حجة يحـتج بها عليك الغرض الأقـصى ابتلى في ذلك شكرك وأبدا فيـه فضله عليك وقد قـال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (سورة إبراهيم:٧)، فانظر أي رجل تكون إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ فسألك عن نعمـه عليك كيف رعيتها، وعن

(١) هي كنية ابن شهاب الزهري.

حججه عليك كيف قضيتها فلا تحسبن الله عزَّ وجلَّ راضيًا منك بالتعذير، ولا قابلاً منك التقصير هيهات ليس ذاك أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (سورة آل عمران:١٨٧)، إنك تقول إنك جدل ماهر عـالم قد جادلت الناس فجـدلتهم وخاصمـتهم فخـصمتهم إدلالاً منك بفـهمك واقتـدارًا منك برأيك فأين تذهب عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (سورة النساء:١٠٩)، اعلم أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احتقبت أن آنست الظالم وسهلت له طريق الغي بدنوك حين أدنيت وإجابتك حين دُعيت فما أخلقك أن ينوه غدًا باسـمك مع الجرمة(١) وأن تسأل عمـا أردت باغضائك عن ظلم الظلمـة، إنك أخذت مـا ليس لمن أعطاك، جعلـوك قطبا تدور عليـه رحى باطلهم وجسرًا يعبرون بك إلى بلائهم وسلمًا إلى ضلالتهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إلـيهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم لهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسـادهم واختلاف الخاصة والعامة إليهم فـما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك. ومـا أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك. فانظر لنفسك فـإنه لا ينظر لها غيرك. وحاسـبها حساب رجل مسـئول وانظر كيف شكرك لمن غذاك بنعمـه صغيرًا وكبيرًا، وانظر كـيف إعظامك أمر من جعلك بدينه في الناس مبجلاً، وكيف صيانتك لكسوة من جـعلك بكسوته مستترًا، وكيف قربك وبعدك ممن أمرك أن تكون منه قريبًا، مالك لا تتنبه من نعستك وتستقيل من عثرتك فتقول: والله ما قـمت لله عزَّ وجلَّ مقامًا واحدًا أحيي له فيـه دينًا ولا أميت له فيه باطلاً؟ أين شكرك لمن استحـملك كتابه واستودعك علـمه؟ ما يؤمنك أن تكون من الذين قـال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى ﴾ (سورة الأعراف:١٦٩)، الآية. إنك لست في دار مقام قـد أوذنت بالرحيل فما

(١) الجرمة: جمعها (جارم)، مثل كاتب وكتبة، أي المذنبون.

بقاء المرء بعد أقرانه؟ طوبى لمن كان في الدنيا على وجلٍ ما يؤمن من أن يموت وتبقى ذنوبه من بعده، إنك لم تؤمر بالنظر لوارثك على نفسك، ليس أحد أهلاً أن ترد له على ظهرك. ذهبت اللذة وبقيت التبعة، ما أشقى من سعد بكسبه غيره. احذر فقد أتيت وتخلص فقد وهلت[1]، إنك تعامل من لا يجهل والذي يحفظ عليك لا يغفل، تجهز فقد دنا منك سفر بعيد وداو دينك فقد دخله سقم شديد، ولا تحسبن أني أردت توبيخك وتعييرك وتعنيفك، ولكني أردت أن تنعش[2] ما فات من رأيك، وترد عليك ما عزب عنك من حلمك، وذكرت قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الذاريات: ٥٥). أغفلت ذكر من مضى من أسنانك وأقرانك وبقيت بعدهم كقرن أعضب فانظر هل ابتلوا بمثل ما ابتليت به أو دخلوا في مثل ما دخلت فيه؟ وهل تراه داخر لك خيراً منعوه أو علمك شيئًا جهلوه؟ فإذا كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا في كبر سنك ورسوخ علمك وحضور أجلك فمن يلوم الحدث في سنه، الجاهل في علمه، المأفون في رأيه، المدخول في عقله؟ ونحمد الذي عافانا مما ابتلاك به، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

بين الأوزاعي والمنصور[3]

وهذا الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قال محدثًا عن نفسه، بعث إليَّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فأتيته، فلما وصلت إليه سلمت عليه بالخلافة، فردَّ عليَّ واستجلسني، ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟.

قُلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين.

قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

---

(١) وهل: ضعف.

(٢) نعشه: تداركه.

(٣) «الفرج بعد الشدة» لإبراهيم بن عبد الله الحازمي.

قلت: انظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئًا مما أقول.

قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له.

قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به.

قال الأوزاعي: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور. وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة.

فطابت نفسي وانبسطت في الكلام.

فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيُّما عبدٍ جاءته موعظةٌ من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجةً من الله عليه ليزداد إثمًا ويزداد الله بها سخطًا عليه»**.

يا أمير المؤمنين: من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ وقد كان بهم رؤوفًا رحيمًا مواسيًا لهم بنفسه من ذات يده محمودًا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، ولا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة وتبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين: قد كنت في شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم، وكلٌّ له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه. وظلمةً سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين: إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطيء الفرات ضيعة لخشيت أن أُسأل عنها، فكيف بمن حُرِمَ عدلك وهو على بساطك يا أمير المؤمنين؟ قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال النبي ﷺ: «يا عباس يا عمَّ النبي نفسٌ تحييها خير من إمارة لا تحصيها» نصيحة منه لعمه وشفقةً عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئًا ولما أنزل الله إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤)، فقال: «يا عباس يا صفية عمة النبي ويا فاطمة بنت محمد، إني لست أغنى عنكم من الله شيئًا لي عملي ولكم عملكم»

وقد قال عمر بن الخطاب: الأمراء أربعة:

فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأميرٌ فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلاَّ أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحُطمة الذي قال فيه الرسول ﷺ: «بشر الرعاة الحطمة»[1] فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا. ثم قال: يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك، ثم نهضت فقال لي: إلى أين؟

فقلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

فقال: أذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها.

قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله.

وقال: أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا.

وعرف المنصور مذهبه فلم يجد[2] عليه في ذلك.

---

(١) والحطمة: اسم من أسماء النار لأنها تحطم ما يلقى فيها.

(٢) لم يجد عليه: لم يغضب عليه.

بين سفيان الثوري والخليفة المهدي

قال الإمام سفيان الثوري: لما حج المهدي قال: لابد لي من سفيان، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل فلما مثلت بين يديه قال لي: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا إليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه.

فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟

قال: لا أدري، لي أمناء ووكلاء.

قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك. لكنَّ عمر ابن الخطاب ﷺ لما حج قال لغلامه: كم أنفقت في سفرنا هذا؟، قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً.

فقال: ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين.

وقد علمت ما حدثنا به منصور عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«رب متخوض في مال الله ومال رسوله فيما شاءت نفسه له النار غداً»**، فيقول أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا؟

فيجيبه سفيان بقوة المؤمن وعزة المسلم: اسكت إنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون[1].

■ ***وهذا موقف ثان له:***

في يوم قال الخليفة المهدي للخيزران: أريد أن أتزوج، فقالت له: لا يحل لك أن تتزوج عليَّ، قال: بلى، قالت له: بيني وبينك من شئت.

---

(١) المسند للأستاذ: أحمد شاكر الجزء الأول، وفيات الأعيان (٢/ ٣٨٧).

قال: أترضين سفيان الثوري.

قالت: نعم.

فوجه إلى سفيان فقال: إنَّ أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها وقد قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (سورة النساء:٣)، ثم سكت فقال له سفيان أتم الآية يريد قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (سورة النساء:٣)، وأنت لا تعدلُ، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها[١].

■ ***وهذا موقف ثالث له:***

قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وأتى سفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره فلما دخل عليه سلَّم ولم يسلم بالخلافة والربيع قائم على رأسه متكئًا على سيفه يرقب أمره فأقبل عليه المهدي بوجه طلق.

وقال له: يا سفيان انظر ها هنا وها هنا وتظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟.

قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملكٌ قادرٌ يفرق بين الحق والباطل.

فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟

أتأذن لي أن أضرب عنقه؟.

فقال له المهدي: اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلاَّ أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فكتب عهده ورفعه إليه فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فتولى القضاء مكانه شريك النخعي[٢].

---

(١) وفيات الأعيان.

(٢) تذكرة الحفاظ.

■ **وهذا موقف رابع له:**

دخل على أبي جعفر المنصور، العالم الجليل سفيان الثوري وسأله أن يرفع إليه حاجته فأجابه: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فطأطأ المنصور رأسه ثم أعاد عليه السؤال، فأجابه: إنما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأطأ المنصور شاكرًا ثم كرر السؤال ولكن سفيان تركه وانصرف.

بين الأوزاعي وعبد الله بن علي

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلى بني أمية عنها، طلب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه قال الأوزاعي: دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسوَّدة عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلته، والغمد والحديد، فسلمت عليه فلم يرد، نكت بتلك الخيزرانة التي في يده.

ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهادًا ورباطًا هو؟

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري التيمي يقول: سمعت محمد بن إبراهيم يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: قال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(١).

فنكت بالخيزرانة أشد ما ينكت وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية.

فقلت: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[1].

فنكت أشد من ذلك.

ثم قال: ما تقول في أموالهم.

قلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا وإن كانت حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك.

ثم قال: ألا نوليك القضاءَ.

قلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك إني أحب ما ابتدأوني به من الإحسان.

فقال: كأنك تحب الانصراف؟

فقال: إن ورائي حرمًا وهُنَّ يحتجن القيام عليهن وسترهن وقلوبهن مشغولة بسببي.

انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي فأمرني بالانصراف.

فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا فدعاه وحده.

فقال: يا شيخ. القول ما قلت انصرف إلى بلادك ولا تُفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

بين أبي حنيفة والمنصور

أراد أبو جعفر المنصور أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف عليه ليفعلنَّ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف.

فقال أبو حنيفة: أميرُ المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني، وأبى أن يلبي الأمر.

قال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول: اتق الله ولا تُرعي أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ لو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح فقال له: قد حكمت لي على نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك وهو كذَّاب؟[1].

إني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك ما استرعاك الله، وألا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك إن تتوعر[2] عليك سهولة الهدى وتعمى في عينيك وتتخفى رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة بإذن الله.

---

(١) «وفيات الأعيان» (٥/ ٤٠٧).

(٢) تتوعر: تكون شاقة عليك.

وأورده أماكن الحياة والنجاة فإن ترك ذلك أضاعه وإن تشبث بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخذ، وإذا أصلح كان أسعد هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفى له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك ما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره فلست تنسى ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ولا يضيع حقك من هذه الدنيا في هذه الليالي والأيام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتمجيدًا والصلاة على رسول الله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى.

بين أبي حنيفة والمنصور

انتقض أهل الموصل على أبي جعفر المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتقضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الإمام أبو حنيفة.

فقال: أليس صحيحًا أنه ﷺ قال: «المؤمنون عند شروطهم»، وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليَّ وقد خرجوا على عاملي وقد حلت دماؤهم.

فقال رجل منهم: يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم فإن عفوت فأنت أهل العفو وإن عاقبت فبما يستحقون.

فقال لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟

فأجاب أنهم شرطوا لك ما لا يملكون (وهو استحلال دمائهم) وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث[1].

---

(١) يشير الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ إلى قوله ﷺ: **«لا يحل دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».**

بين الكيلاني والمقتفي

وهذا الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ رحمه الله تعالى ـ يقف على منبره محاسبًا المقتفي لأمر الله ومنكرًا عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء فقال له مخاطبًا: وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين؟.

فارتعد الخليفة وعزل المذكور لوقته[1].

بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب

كان لمماليك الأتراك نفوذ في الدولة الإسلامية في أواخر حكم العباسيين وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء في الدولة أيام حكم نجم الدين أيوب في مصر وكان الشيخ العز قاضيًا للقضاة فيها، وقام ـ رحمة الله عليه ـ مصلحًا لأمر القضاء منفذًا بحزم أحكام الشرع لا تأخذه في ذلك لومة لائم، فنظر في حقيقة قضية أولئك الأمراء التي أثارها هو ثم أصدر قضاءه الآتي:

قال السبكي[1]: ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين. فبلغهم ذلك، فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاشتاط غضبًا واجتمعوا وأرسلوا إليه.

---

(١) «قلائد الجواهر» (ص: ٨).

(٢) «الطبقات» الجزء الخامس (ص: ٨٤).

فقــال: نعقــد لكم مجلسًا ويــنادى عليكم لبيت مــال المسلمين ويحصل عــتقكم بطريق شرعي، فرفـعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليـه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فـيهـا غلظة، حاصلها الإنـكار على الشيخ في دخولـه في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فـغضب الشيخ وحمل حـوائجه على حمـار، وأركب عائلته على حمـير أخرى، ومشى خلفهم من القاهرة قـاصدًا الشام فلم يصل إلى نحو نصف بريد حتى لحقـه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صــبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولاسيـما العلماء والصلحاء والتـجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبـر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك قــبله، فرجع واتفقـوا معـه على أن ينادي على الأمراء فـأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب.

فقال: كـيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيـعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعة، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ. . . فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير.

وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقـتل في سبيل الله ثم خرج كأنه قـضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب يـبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مـفاصله، فبكى وسأل الشـيخ أن يدعو له، وقال: يا سيـدي خيرٌ أي شيء تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

قال: ففيم تصرف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين.

قال: من يقبضه.

قال: أنا، فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير - وهذا لم يسمع قبله أحد رحمه الله ورضي عنه(١).

بين العز بن عبد السلام والملك الصالح إسماعيل

إن خلافًا نشأ واشتد، وخصامًا طفق منذرًا بالكيد والحرب بين الأخوين، سلطان الشام الملك الصالح إسماعيل، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب وقد أوجس إسماعيل خيفة من نجم الدين أيوب فاستعان بالصليبيين أعداء الإسلام، وتحالف معهم على قتال أخيه، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا على رواية السبكي وكذلك قلعة صفد وغيرها على رواية المقريزي وغيره، وأمعن إسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم. فهب الشيخ العز واقفًا في وجه الخيانة والخائنين، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم، وصعد على منبر جامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة، حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن الفتوى وشدد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية. وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك» والمصلون يضجون بالتأمين على دعائه، ولم يكن السلطان حاضرًا تلك الخطبة، إذ كان خارج دمشق، ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ عن خطبة الجمعة واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار.

---

(١) راجع «الإسلام بين العلماء والحكام» (١٩٧).

وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد السلطان وأعدوا له وسائل الهرب، ولكنه ـ رحمه الله تعالى ـ أبى ذلك وألحوا عليه، فأصر على الإباء فعرضوا عليه بأن يختبىء في مكان أمين لا يهتدي إليه السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض أيضًا وقال: «والله لا أهرب ولا أختبىء وإنما نحن في بداية الجهاد ولم نعمل شيئًا بعد، وقد وطنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل والله لا يضيع عمل الصابرين».

ثم لما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما بعد الاعتقال، ولكن العز بن عبد السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة فاستأذنه في صلاة الجمعة مؤتمًا بإمامها وأن يعيد إليه طبيب أو مزين (حلاق) إذا احتاج إليهما وأن يدخل الحمام فأذن له في ذلك ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية وقد منع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه وتعطلت هوايته المفضلة وواجبه المقدس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فطلب الهجرة من دمشق قاصدًا مصر. وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات فأقام بدمشق ثم انتزع منها إلى بيت المقدس. فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق وأخذه وأقام بنابلس مدة وجدت له معه خطوب ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف له غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع الرسول بالشيخ، شرع في مسايسته وملاينته.

ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه زيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير.

فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي أن توافق على ما يطلب وإلا اعتقلتك.

فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن في معتقله والسلطان يسمعه.

فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ فقالوا: نعم.

قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، قد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!!.

فقالت له ملوك الفرنج: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها»[1].

بين النووي والظاهر بيبرس

لما خرج الظاهر بيبرس إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه.

فقال: هل بقي من أحد؟

فقيل له: نعم بقي الشيخ محيي الدين النووي.

فطلبه فحضر.

فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع.

فقال: ما سبب امتناعك.

(١) «وا إسلاماه» لأحمد باكثير (١٠٠)، وانظر «الطبقات» للسبكي.

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلاً من الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه.

وقال: أخرج من بلدي ـ يعني دمشق.

فقال: السمع والطاعة وخرج إلى (نوى).

فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق.

فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ.

وقال: لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر[(١)].

القاضي شريك والنصراني

جاء في أخبار القضاة لوكيع (٣/ ١٦٩)، وفي تاريخ بغداد (٩/ ٢٨٨) للخطيب البغدادي، في ترجمة القاضي أبي عبد الله شريك بن عبد الله النخعي الكوفي. . . أحد الأئمة الأعلام ما يلي:

قال عمر بن هياج بن سعيد الهمداني: كنت من صحابة شريك. . . فأتيته يومًا ـ وهو في منزله ـ باكرًا. . . فخرج إليَّ في فرو ليس تحته قميص عليه كساء.

فقلت له: قد أضحيت عن مجلس الحكم.

فقال لي: غسلت ثيابي أمس فلم تجف. . . فأنا أنتظر جفوفها. . . اجلس. . . فجلست.

---

(١) «من أخلاق العلماء» الجزء التاسع.

فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن مواليه.

فقال: ما عندك فيه؟ ما تقول فيه؟

وكانت الخيزران ـ زوجة الخليفة هارون الرشيد ـ قد وجهت رجلاً نصرانيًا على الطراز بالكوفة، وكتبت إلى موسى بن عيسى ـ أمير الكوفة ـ أن لا يعصي له أمرًا فكان مطاعًا.

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يخرج إلى النخع، معه جماعة من أصحابه عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره.

وإذا رجل بين يديه مكتوف يقول: واغوثا بالله... أنا بالله ثم بالقاضي، وإذا آثار سياط في ظهره.

فسلم على القاضي شريك، وجلس إلى جانبه.

فقال له الرجل المضروب: أنا بالله ثم بك أصلحك الله... أنا رجل أعمل الوشي، وكراءُ مثلي مئة ـ درهم ـ في الشهر، أخذني هذا منذ أربعة أشهر فاحتبسني في طراز يجري عليَّ القوت، ولي عيال قد ضاعوا... فأفلت اليوم منه، فلحقني ففعل بظهري ما ترى.

فقال شريك: قم يا نصراني فاجلس مع خصمك.

فقال: أصلحك الله يا أبا عبد الله، هذا من خدم السيدة فمر به إلى الحبس.

قال: قم ويلك فاجلس معه كما يقال لك.

فقام فجلس معه.

فقال شريك: ما هذه الآثار التي بظهر هذا الرجل؟ من أثرها به؟

قال: أصلح الله القاضي... إنما ضربته أسواطًا بيدي، وهو يستحق أكثر من هذا... مر به إلى الحبس.

فألقى شريك كساءه ودخل داره فأخرج سوطًا ربذيًا، ثم ضرب بيده مجامع ثوب النصراني، وقال للرجل: انطلق إلى أهلك، ثم رفع السوط فجعل يضرب به النصراني وهو يقول: يا طبجي[1] قَدَّمنً قفا جمل لا تضرب والله المسلم بعدها أبدًا.

فهم أعوانه أن يخلصوه من يديه، فقال: من ها هنا من فتيان الحي؟ خذوا هؤلاء فاذهبوا بهم إلى الحبس.

فهرب القوم جميعًا، وأفردوا النصراني فضربه أسواطًا، فجعل النصراني يعصر عينيه ويبكي ويقول له: ستعلم!.

فألقى السوط من يده في الدهليز، وقال: يا أبا حفص. ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه؟ وأخذ فيما كنا فيه كأنه لم يصنع شيئًا.

وقام النصراني إلى البرذون ليركبه... فاستعصى عليه، ولم يكن له من يأخذ بركابه، فجعل يضرب البرذون.

فقال له شريك: ارفق به ويلك، فإنه أطوع لله منك، فمضى.

فقال لي شريك: خذ بنا فيما كنا فيه.

قلت: ما لنا ولذا؟ وقد والله فعلت اليوم فعلةً ستكون لها عاقبة مكروهة.

قال: اسكت... أعز أمر الله يُعزك الله... خذ بنا فيما نحن كنا فيه.

قال: وذهب النصراني إلى موسى بن عيسى ـ أمير الكوفة ـ فدخل عليه.

فقال: من فعل هذا بك؟ وغضب الأعوان وصاحب الشرط.

فقال: شريك فعل بي كيت وكيت!

قال: لا والله ما أتعرض لشريك.

فمضى النصراني إلى بغداد فما رجع.

---

(١) أي: يا أحمق.

بين الإمام الأوزاعي والسفاح

عبد الله بن علي الملقب بالسفاح - قضى على دولة الأمويين واستلم الخلافة - عاصره الإمام الأوزاعي[1]، وكان جريئًا لا يخاف في الله لومة لائم.

ما إن تولى السفاح الخلافة حتى طلب الأوزاعي إلى مجلسه.

يقول الإمام: حضرت فإذا عن يمينه رجال يصلون السيوف وعن يساره كذلك.

فقال السفاح: يا أوزاعي... ما ترى فيما صنعناه من إزالة الظلمة أجهاد هو أم رباط؟

قلت: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

قال: ما تقول في دماء بني أمية؟

قلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

قال: ما تقول في أموالهم؟

قلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك، وإن كانت حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

قال: وقد غضب أشد الغضب... ألا نوليكَ القضاء؟

قلت: أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك، وأحبُّ أن تتم ذلك.

قال: كأنك تريد أن تنصرف؟

قلت: بلى. وكان الجالسون ينتظرون سقوط رأسي على الأرض!!

وأمرني السفاح بالانصراف.

---

(١) انظر في ترجمته وأخباره: سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي.

بين الحجاج وابن الأشعث

عن السجستاني قال: حدثنا أبو عبيدة قال: لما هزم يزيد بين المهلب[(١)] عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بمنعرج هراة[(٢)]، وكان عبد الرحمن مع ابن الأشعث[(٣)] لحق بكابل[(٤)] فاستجار شاه كابل فأجاره، ثم إن عبد الرحمن لم يثق بشاه كابل، ففارقه، ودخل أرض القشمير[(٥)] من أرض الهند فبعث/ الحجاج إليه من يأتي به، ومات عبد الرحمن، وكان معه ابناه الفضل والقاسم وخلق كثير من فلول ابن الأشعث، فلقيت رسل الحجاج ابنيه فقدموا بهما، وبلغ خبرهما ابني عمهما الفضل وعبيد الله ابني الفضل بن العباس، فخشيا إن قدم بهما على الحجاج أن يضرب أعناقهما، فدخلا على عمر بن عبد العزيز ـ وهو أمير المدينة ـ فكلماه فيهما، فكتب فيهما إلى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ـ وأمه ليلى بنت عبد العزيز ـ يسأله أن يكلم أباه في الصفح عنهما، وجعل كتابه: «لعبد العزيز/ بن الوليد من عمر بن عبد العزيز.

---

(١) هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، ولي خراسان بعد وفاة أبيه، وعزله عبد الملك برأي الحجاج ثم حبسه الحجاج، فهرب إلى الشام، ثم ولاه سليمان العراق وخراسان، وفتح جرجان وطبرستان، ثم عزله عمر بن عبد العزيز وسجنه فأخرجه غلمانه من السجن، وغلب على البصرة، ثم حارب مسلمة بن عبد الملك وقتله سنة ١٠٢هـ.

(٢) هراة: من أمهات مدن خراسان.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن قيس الكندي، سيره الحجاج لغزو بلاد الترك فيما وراء سجستان، ثم اختلف معه فنبذ طاعته، وخرج على عبد الملك بن مروان واستولى على فارس ما عدا خراسان، ثم استولى على الكوفة، وحاربه الحجاج في موقعة دير الجماجم التي دامت مئة وثلاثة أيام، ولما تتابعت هزائمه لجأ إلى رتبيل ملك الترك، فتهدده الحجاج فأمسكه وقتله وبعث برأسه إليه سنة ٨٥هـ.

(٤) كابل: عاصمة أفغانستان.

(٥) وهي التي تعرف اليوم بولاية كشمير التي تتنازعها الهند وباكستان، ومعظم سكانها من المسلمين.

أما بعد: فإن عبد الرحمن بن العباس كان ممن غلب عليه درك الشقاء بخروجه مع ابن الأشعث، فهرب حتى لحق بالسند فهلك، وإن رسل الحجاج أخذوا ابنيه غلامين حدثي السن، فإن يقدم بهما على الحجاج يضرب أعناقهما، فكتبت إليك أحضك بكتابي لتعمل في أمرهما، فيكون لك بهما عند العرب وعند بني عبد مناف خاصة يد، فشمر ولا ألونك[1]، ولو كتبت لأخيك لشمر».

فانطلق الهاشميان حتى لقيا عبد العزيز، فدفعا/ الكتاب إليه، فلما قرأ العنوان مبدأ باسمه قبل اسم عمر قال: مرحبًا بكما وبمن بعث بكما. ثم أتى أباه، فقرأ عليه الكتاب فقال له الوليد: أبدأ بك خالك؟ قال: نعم، قال: والله ما أعلم رجلاً في العرب له خال إلا وخالك أفضل من خاله!... ثم كتب له إلى الحجاج في ابني عبد الرحمن، ويشدد عليه، ويأمره أن لا يؤذيهما، وأن يخلي سبيلهما، وأعطاهما عشرة آلاف دينار. فسارا حتى قدما على الحجاج، فدفعا إليه الكتاب، وقُدِمَ عليه بالفتيين بعد ذلك فخلى سبيلهما.

وبقيت تلك الفلول الهراب بالسند مدة أيام الوليد، فلما جلس سليمان، وأخرج من كان في سجن الحجاج وآمن الناس الهاربين من الحجاج في جميع آفاق الأرض قال الفرزدق يذكر تلك الفلول، ويخبرهم أن الحجاج قد هلك وأمنت البلاد.

لئن نفر الحجاج آل معتب ◘■◘ لقوا دولة كان العدو يدالها
لقد أمستِ الأحياء منكم أذلةً ◘■◘ وفي النار موتاهم كلوحًا سبالها
وكان إذا قيل اتق الله حلقت ◘■◘ به عزة ما يستطاع جدالها
ألكني إلى من كان بالهند منهم ◘■◘ وبالصين ألواحًا عليها جلالها
هلم إلى الإسلام والعدل عندنا ◘■◘ فقد مات عن أرض العراق خبالها

فتراجع أولئك الهراب كلهم إلى أوطانهم[2].

---

(١) لا ألونك: لا أجد منك تقصيرًا.

(٢) «العفو والاعتذار» (ص: ٣٧٠-٣٧١) لمحمد العبدي.

بين الحجاج والعُديل بن الفرخ

عن هشام بن محمد عن عوانة قال: وجد الحجاج على العديل بن الفرخ في شيء بلغه عنه فتخوفه، فهرب منه وقال في هربه.

أخوف بالحجاج حتى كأنما ۝ تحرك عظم في الفؤاد مهيض
ودون يد الحجاج من أن تنالني ۝ بساط لأيدي الناعجات عريض
مهامة[1] أشباه كأن سرابها ۝ ملأ بأيدي الغاسلات رحيض

فطلبه الحجاج فيقال: إنه لحق ببلاد الروم، فكتب الحجاج إلى قيصر: «والله لئن لم تبعث به لأغزينك جيشًا أوله عندك وآخره عندي»، فطلب حتى أخذ وأتي به الحجاج. فلما دخل عليه قال: هاك يدي ضاقت بي الأرض كلها وإن كنت قد طوفت كل مكان فقال: يا عدو الله! ألست القائل:

ودون يد الحجاج من أن تنالني ۝ بساط لأيدي الناعجات عريض

فقال: بل أنا الذي أقول:

فلو كنت في سلمى وحر شعابها ۝ لكان لحجاج عليَّ سبيل
صفي أمير المؤمنين وخدنه ۝ لكل إمام صاحب وخليل
بنى قبة الإسلام حتى كأنما ۝ هدى الناس من بعد الضلال رسول

فخلى سبيله[2].

---

(١) المهامة جمع مهمة ومهمهة: المفازة البعيدة والأرض القفر. ملاء ـ بالضم ـ جمع ملاءة، كل نسيج رقيق غير ذي لفقين. الرحيض: المرحوض، المغسول.

(٢) انظر «البيان والتبيين» (١/ ٣٩١)، و «الأغاني للأصفهاني» (٢٢/ ٣٢٩)، و «العفو والاعتذار» (١/ ٣٥٣).

بين الحجاج ويحيى بن يعمر

عن الشعبي قال: أرسل الحجاج بن يوسف إلى يحيى بن يعمر فأتي به من خراسان في الحديد، فلما دخل عليه قال له: أنت تزعم أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ؟، قال: لتأتيني بآية من كتاب الله أو لأضربن عنقك، ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ٦١)، قال: أنا آتيك بهذه الآية، وقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ (سورة الأنعام: ٨٤-٨٥). فذكر الله عيسى من ذرية إبراهيم بأمه، فكذلك الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ بأمهما. فسكت الحجاج... وتعجب من قوة حجته... وعفا عنه[(١)].

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله
(قصة أحمد بن طولون)

حكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر: أن طولون لم يكن أباه وإنما كان قد تبناه لديانته وحسن صوته بالقرآن وظهور نجابته وصيانته من صغره، وأن طولون اتفق له معه أن بعثه مرة في حاجة ليأتيه بها من دار الإمارة، فذهب فإذا حظية من حظايا طولون مع بعض الخدم وهما على فاحشة، فأخذ حاجته التي أمر بها وكر راجعًا إليه سريعًا، ولم يذكر له شيئًا مما رأى من الحظية والخادم، فتوهمت الحظية أن يكون أحمد قد أخبر طولون بما رأى، فجاءت إلى طولون فقالت: إن أحمد جاءني الآن

---

(١) يحيى بن يعمر الوشقي العدواني، من علماء التابعين، أول من نقط المصاحف، كان عارفًا بالحديث والفقه ولغات العرب توفي سنة ١٢٩هـ.
«وفيات الأعيان» ابن خلكان (٢/ ٢٢٦)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٠٥).
وانظر كتاب «المحن للتميمي» (ص: ٣٣٢).

إلى المكان الفلاني وراودني عن نفسي وانصرفت إلى قصرها، فوقع في نفسه صدقها فاستدعى أحمد وكتب معه كتابًا وختمه إلى بعض الأمراء، ولم يواجه أحمد بشيء مما قالت الجارية، وكان في الكتاب أن ساعة وصول حامل هذا الكتاب إليك تضرب عنقه وابعث برأسه سريعًا إليَّ، فذهب بالكتاب من عند طولون وهو لا يدري ما فيه، فاجتاز بطريقه بتلك الحظية فاستدعته إليها، فقال: إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلى بعض الأمراء، قالت: هلم فلي إليك حاجة ـ وأرادت أن تحقق في ذهن الملك طولون ما قالت له فحبسته عندها ليكتب لها كتابًا، ثم استوهبت من أحمد الكتاب الذي أمره طولون أن يوصله إلى ذلك الأمير، فدفعه إليها، فأرسلت به ذلك الخادم الذي وجده معها على الفاحشة، وظنت أن به جائزة تريد أن تخص بها الخادم المذكور، فذهب بالكتاب إلى ذلك الأمير، فلما قرأه أمر بضرب عنق ذلك الخادم، وأرسل برأسه إلى الملك طولون فتعجب الملك من ذلك وقال: أين أحمد؟ فطلب له، فقال: ويحك أخبرني كيف صنعت منذ خرجت من عندي؟ فأخبره بما جرى من الأمر، ولما سمعت تلك الحظية بأن رأس الخادم قد أتي به إلى طولون أسقط في يديها وتوهمت أن الملك قد تحقق الحال، فقامت إليه تعتذر مما وقع منها مع الخادم، واعترفت بالحق وبرأت أحمد ما نسبته إليه، فحظي عند الملك طولون وأوصى له بالملك من بعده.

بين عطاء بن أبي رباح ورجل

قال أبو العرب التميمي: حدثني عبد الله بن الوليد عن بعض رجاله قال: أتى رجل من الحجاج إلى مسجد مكة فنام فكشفت الريح الثوب عن بطنه فظهرت منطقته[1] فمر به أصحابه فخافوا عليه فنزعوها عنه، فانتبه الرجل فنظر فإذا منطقته قد

(١) المنطقة: جراب النقود يشد بالنطاق على البطن تحت الثوب.

حلت، فنظر يمينًا وشمالاً فلم ير إلا عطاء بن أبي رباح(١) قائمًا يصلي، فسار إليه فأخذ/ بتلابيبه وضيق عليه وقال له: يا عدو الله فعلت الذي فعلت بي فلما رهقتك قمت تصلي، فقال له: ما بالك يا هذا؟، قال: منطقتي حللتها، قال له: وكم فيها، قال: مائتا دينار، قال له: فسمع بهذا غيرك، قال: لا، قال: فاذهب معي حتى أعطيك ما ذهب لك. قال: فذهب فعد له مائتي دينار، فذهب إلى أصحابه فأخبرهم الخبر فقالوا له: ظلمت والله الرجل، كان من قصتنا كيت وكيت، ثم حللناها عنك خوفًا عليها، وها هي هذه. فقاموا بأجمعهم يقفوا أثر الرجل وحتى وقفوا عليه، فسألوا عنه فقيل لهم هو عطاء بن أبي رباح فقيه أهل مكة وسيدهم، فاعتذروا إليه وسألوه أن يجعله في حل ويقبل الدنانير، فقال لهم: هيهات ما كانت بالتي ترجع إلي، اذهب فأنت في حل وهي لك.

بين محمد علي الكاتب وشيخ الكتاب

عن محمد بن علي الكاتب قال: كتبت لخمارويه بن أحمد وأنا حدث فركبتني الأشغال، وقطعني ترادف الأعمال عن تصفح أحوال المتعطلين وتفقدهم، وكان ببابي شيخ من مشيخة الكتاب قد طالت عطلته فأغفلت أمره فرأيت أبي في منامي وكأنه يقول لي: يا بني أما تستحي من الله أن تتشاغل بلذاتك وعمالك والناس يلتفون ببابك جدًا وهزلاً! هذا فلان من شيوخ الكتاب قد أفضى أمره إلى أن تقطع سراويله فما يمكنه أن يشتري بدله، وهو كالميت جوعًا وأنت لا تنظر في أمره! أحب أن لا يغفل أمره أكثر من هذا، قال: فانتبهت مذعورًا واعتقدت الإحسان إلى الشيخ ونمت وأصبحت وقد نسيت أمر الشيخ.

---

(١) عطاء بن أسلم تابعي من أجلاء الفقهاء نشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم، توفي بمكة سنة ١١٤هـ «الحلية» (٣/ ٣١٠)، و «تهذيب التهذيب» (٧/ ١١٩).

فركبت إلى خمارويه، وأنا والله أسير. إذ تراءى لي الرجل على دويبة ضعيفة ثم أومأ إليَّ الرجل فانكشف فخذه فإذا هو لابس خفًا بلا سراويل. فحين وقعت عيني على ذلك، ذكرت المنام وقامت قيامتي. فوقفت في موضعي واستدعيته وقلت: يا هذا. ما حل لك أن تركت إذكاري بأمرك، أما كان في الدنيا من يوصل لك رقعة أو يخاطبني فيك؟ الآن قلدتك الناحية الفلانية وأجريت عليك رزقاتي في كل شهر وهو مائتا دينار، وأطلقت لك من خزانتي ألف دينار صلة ومعونة على الخروج إليها وأمرت لك من الثياب بكذا وكذا، فاقبض ذلك واخرج، وإن حسن أثرك في تصرفك زدتك وفعلت بك وصنعَت، قال: وضممت إليه غلامًا ينجز له ذلك كله ثم سرت، فما انقضى اليوم حتى حسن حاله، وخرج إلى عمله.

بين الحجاج ومحمد بن الحنفية

عن عبد الله بن الضحاك عن هشام بن محمد عن أبيه قال: أخذ الحجاج بن يوسف/ محمد بن الحنفية[1] بعد ما قتل عبد الله بن الزبير، فقال: بايع أمير المؤمنين عبد الملك، قال: إذا اجتمع عليه الناس كنت كأحدهم، فقال: والله لأقتلنك، قال: أولا تدري؟ قال: وما لا أدري؟!... قال: حدثني أبي إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، في كل لحظة ثلاثمائة وستون قضية... فلعله أن يكفينيك يا حجاج في قضية من قضاياه. قال: فانتفض الحجاج، وقال: قد لحظك الله، فانطلق حيث شئت!.

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، أحد الأبطال الأشداء وهو أخو الحسن والحسين، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب إليها تمييزًا عنها ـ كان واسع العلم ـ شجاعًا... توفي بالمدينة سنة ٨١هـ. انظر في ترجمته: «الحلية» (٣/ ٧٤)، و «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٦٦).

بين ربعي بن عامر ورستم قائد الفرس(١)

روي أن ربعي بن عامر توجه إلى رستم قائد الفرس وذلك من قبل سعد بن أبي وقاص ﷺ قبل معركة القادسية، وكانوا قد زينوا مجلس رستم بالنمارق المذهبة، والزرابي الحرير، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وجلس رستم على سرير من ذهب، وعليه التاج، فدخل عليه ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها فلما سأله من بعثكم؟ قال ربعي: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

بين العز بن عبد السلام والسلطان أيوب

ومن ذلك أيضًا ما حدث مع العز بن عبد السلام - رحمه الله - فقد طلع إلى السلطان أيوب في يوم عيد القلعة فشاهد العسكر مصطفين بين يديه، فخرج السلطان على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه، يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟ فقال له السلطان: هل جرى هذا؟ فقال العز: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، وقال السلطان: يا

---

(١) «الله أكبر» لسعيد عبد العظيم.

سيـدي، هذا أنا ما عملته هذا من زمـان أبي، فقال له العـز: أنت من الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف:٢٣). فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة وشاع الخير.

وسأل البـاجي الشيخ لما جـاء كيف الحال؟ فـقال: يا بني رأيته في تـلك العظمة فأردت أن أهينه، لئـلا تكبر عليه نفســه فتؤذيه، فقال البـاجي: يا سيدي أما خـفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيـبة الله، فصار السلطان قدامي كالقط... ولما طلب السلطان محمـد بن تغلق الشيخ قطب الدين المنور إلى دهلى، يعاتبه أو يعـاقبه على عدم حـضوره لتحيـة الملك، وقد مر بجـواره، فحضر الشـيخ ورأى الأمراء والوزراء ورجال البلاط متـخشعين مسلحين في هيئة تنخلع منهـا القلوب، وكان معه ولده نور الدين وكان حديث السن لم يزر البلاط الملكي، ففزع لهـذا المنظر الغريب وامتلأ رعبًا فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً: يا ولدي، العظمة لله، يقول نور الدين: فاستشـعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء وزالت الهـيبة من نفسي وذابت وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز...

وانظر لما راوغت الذبابة أحـد الحكام فتوجـه إلى جعـفر الصادق بـسؤاله: يا أبا جعفر لـم خلق الله الذباب؟ فيجيبه جـعفر: ليذل به الجبابرة. فـإلى الله المنتهى وإليه سبحانه المرجع والمآب والناس يحشرون إلى الكبير المتعال حفاة عراة غرلاً. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء:١٠٤). فاتـقوا الله حق التـقوى واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى واحـذروا المعاصي فإن أجسامكم على النار لا تقوى واعلمـوا أنكم غدًا بين يدي الله موقوفـون وعلى تفريطكم نادمون وبأعـمالكم مجزيون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

محنة أبي حنيفة النعمان(١)

«خذ العفو، وأمر بالمعروف، وتغافل عما لا يعنيك، وبادر في إقامة الحقوق»

أبو حنيفة

كان الإمام أبو حنيفة ﷺ، غير راض على سياسة أبي جعفر المنصور بشكل عام، وخصوصًا قسوته وشدته مع خصومه، وخصوم آبائه العباسيين، ومن يظهر التودد إليهم أو الترحم عليهم.

ثم إن الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ جريء في فتاواه، صريح في أجوبته، شديد في محاسبته لأبي جعفر، كثير النقد لأحكام قضاته، وتصرفات ولاته، تمثلت به رجولة العالم وشجاعة المؤمن، وصلابة الفقيه المتمسك بأحكام الشرع، لا يعرف نفاقًا ولا يسلك طريقًا منحرفًا في دعوته، ولا يهاب سطوة سلطان ولا يخشى قوة حاكم في قولة الحق.

لأن ألسنة العلماء وهي غضاب تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب، ثم في أي درب يسير عليه المنصور مع إمام أحبه الناس وملك قلوبهم، فمنه تؤخذ الفتوى وبه يقتدى، لسلامة قلبه وحسن سيرته وسعة علمه، ومزيد تقواه، وكلما تقرب منه شبرًا ابتعد عنه الإمام ذراعًا ملتمسًا بذلك إسكاته أو جره إلى صفوفه فكان قربًا لم يرد به وجه الله تعالى والدار الآخرة.

لذلك فليس من السهولة والحالة هذه أن ينزل بإمامنا محنة أو يوقع به أذى، دون أن يلتمس المبررات التافهة، والذرائع الباطلة لتكون سببًا ظاهريًا لها.

(١) «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العزيز البدري باختصار وتصرف.

ومن الأسباب الظاهرة التي اتخذها المنصور ذريعة لمحنته الجائرة، أن أبا حنيفة كان جريئًا في بيان خطأ حكم القضاة في المسائل التي تعرض عليهم خصوصًا إذا خالفت رأيه الذي يعتقده صوابًا، فيشكوه القضاة ليمتنع عن ذلك.

(فقد روي أن ابن أبي ليلى القاضي، نظر في أمر امرأة مجنونة قالت لرجل: يا ابن الزانيين، فأقام عليها الحد في المسجد قائمة وحدها حدين حدًا لقذف أبيه، وحدًا لقذف أمه، فبلغ ذلك أبا حنيفة، فقال أخطأ فيها في ستة مواضع. أقام عليها الحد في المسجد، ولا تقام الحدود في المساجد، وضربها قائمة والنساء يضربن قعودًا، وضرب لأبيه حدًا ولأمه حدًا ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد، وجميع بين حدين ولا يجمع بين حدين، حتى يخف أحدهما، والمجنونة ليس عليها حد، وحد لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا، فبلغ ذلك ابن أبي ليلى فدخل على الأمير فشكاه إليه، وحجر على أبي حنيفة، وقال: لا يفتي، فلم يفتِ أيامًا)[١].

وهكذا بدأت المحنة تدنو منه شيئًا فشيئًا وهو صابر مصابر محتسب، المحنة أخذت بالتتابع سريعة تنذر بوقوعها حيث سلك المنصور سبلاً أخرى، فأرسل إليه هدية ثمينة وهو يعلم أنها مردودة عليه لا محالة، ولكنه فعل ذلك ليضيف سببًا آخر وحجة أخرى.

ولعل من المناسب إعادة ذكرها هنا لتسلسل الموضوع (أرسل إليه أبو جعفر بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية، وكان عبد الملك بن حميد وزيره... فقال لأبي حنيفة عندما رفضها: أنشدك الله إن أمير المؤمنين يطلب عليك علة فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك فأبى...»[٢].

(١) (ص: ١٦٦جـ١) «المناقب» لأبي البراري، (ص: ٣٥١جـ١٣) «تاريخ بغداد».
(٢) راجع: «فصل العلماء ومنح الأحكام».

وحين أراد المنصور أن يحرج أبا حنيفة ويتخذ من رفضه لمنحه وعطاياه ممسكًا أرسل إليه وقال له: «فلم لا تقبل صلتي فقلت: أي قال أبو حنيفة: ما وصلني أمير المؤمنين في ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبلته إنما أوصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق له في بيت مالهم، إني لست ممن يقاتل من ورائهم، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذه الفقراء...»[1].

ثم هاك سببًا آخر.

لقد مر بنا أن إمامنا الممتحن، أبان وجهة نظره في قتال أهل الموصل، وكان جوابه ذاك الذي أغاظ المنصور، فأسرها في نفسه واحتفظها عنده، وهنا برر للمنصور سببًا آخر وطلبًا قد يكون وجيهًا، وذريعة ظنها محكمة ليجعل منها في إنزال المحنة بإمامنا الجليل، والمنصور يعلم مسبقًا أن طلبه مردود عليه أيضًا.

ذلك هو تولية رئاسة القضاة في الدولة الإسلامية، فإن امتنع أخذه بهذا المنع، جهرة وأمام الناس، ملتمسًا بذلك عذرًا عند العوام - وهم سواد الناس - الذين لا يدركون بواطن الأمور ولا دوافع المطالب، مطالب الحكام، ثم إن أبا حنيفة وهو شيخ الفقهاء في العراق، وهو بحر في العلم لا تكدره الدلاء، فمن الصواب أن يكره على تولي القضاء لرفع منار العدل والحق في أرجاء الدولة، وليس في الإكراه ظلم ظاهر عند العوام... وإن رضي بهذه التولية تم الصلح بينهما وحسم النزاع، وآمن الإنكار، وانتهت المناوأة، وأنى له عند ذاك أن ينكر ويناوئ ويعترض وقد أصبح من رجالات الدولة، ومن المسؤولين في الحكم والمشتركين فيه.

بهذا سولت للمنصور نفسه، فأقدم عليه بحزم.

---

(١) (ص: ٢١٥جـ١) «المناقب» لأبي طالب المكي.

استدعى المنصور أبا حنيفة وعرض عليه تولي هذا المنصب الخطير، فامتنع وأعرض ولنسمع الحادثة من إمامنا نفسه:

«. . . إن هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، وإني لأعلم أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك، وعلى والدك وقوادك، وليست تلك النفس لي، إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى أفارقك»(١).

وجاء في هذا الرفض في مجلس آخر عن الربيع بن يونس: رأيت أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو يقول له: اتق الله ولا تدع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو إلى الحكم لاخترت أن أغرق، لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك، فقال: كذبت إنك تصلح، فقال: قد حكمت على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضيًا على أمانتك كذابًا؟(٢).

وهنا حصل المنصور على ما يريد، ونال ما بيت في نفسه، فأنزل به المحنة. . . أذكرها برواياتها كما رُويت في كتب المناقب.

روي عن داود بن راشد الواسطي، أنه قال: كنت شاهدًا حين عذب الإمام ليتولى القضاء، كان يخرج كل مرة فيضرب عشرة أسواط حتى ضرب عشرة ومائة سوط، وكان يقال له: أقبل القضاء، فيقول: لا أصلح فلما تتابع عليه الضرب؟ قال خفيًا: اللهم ابعد عني شرهم بقدرتك» فلما أبى دسوا عليه السم فقتلوه(٣).

وروي أن أبا جعفر المنصور حبس أبا حنيفة على أن يتولى القضاء ويصير قاضي القضاة فأبى حتى ضرب مائة وعشرة أسواط وأخرج من السجن على أن يلزم الباب(٤).

---

(١) (ص: ٢١٥جـ١) «المناقب» للمكي.

(٢)، (٣) (ص: ٣٢٨جـ١٣) «تاريخ بغداد».

(٤) (ص: ١٨جـ٢) «المناقب» لأبي البزازي.

وروي أن المنصور حبسه وضيق عليه مدة، وكلم المنصور بعض خواصه فأخرج من السجن، ومنع من الفتوى والجلوس للناس والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن توفي[١].

تلك محنة الإمام أبي حنيفة، منعًا عن التدريس والإفتاء، وإقامة جبرية في الدار، وضربًا بالسياط، وحبسًا في السجن ثم قتلاً بالسم إن صدقت الرواية، كل ذلك لأنه أبى أن يساير الحكام في أهوائهم وأن يوافق على أعمالهم وأن يستجيب لطلباتهم... وهكذا ينبغي أن يكون العلماء في كل حين إن كانوا علماء حقًا...

مات أبو حنيفة كما يموت الصديقون والشهداء وكان ذلك سنة ١٥٠هـ وكان في الموت راحة لذلك الضمير المضيء ولذلك الوجدان الديني المرهف، ولذلك القلب القوي، ولذلك العقل الجبار، ولتلك النفس الصبور، التي لاقت الأذى فاحتملته، لاقته من المخالفين له في الآراء ورميت في كل رمية، فتحملتها مطمئنة راضية مرضية، ولقيت الأذى من السفهاء ثم لقيته من الأمراء والخلفاء.

وما ضعفت وما وهنت، وإذا كان للنفوس جهاد، ولجهادها ميادين، فأبو حنيفة ﷺ كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد، وممن انتصر في كل ميادينه.

وكان جلدًا في جهاده قويًا في جلاده، حتى وهو يلفظ النفس الأخير فهو يوصي بأن يدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غضب، وألا يدفن في أرض اتهم أمير بأنه غصبها حتى يروى أن أبا جعفر عندما علم ذلك قال: «من يعذرني من أبي حنيفة حيًا أو ميتًا»[٢]. وبموته ﷺ انتهت محنته ثم تتابعت المحن تنزل بأقرانه من أئمة المسلمين.

---

(١) (ص: ١٥ جـ٢) «المناقب» لأبي البزازي. مات ﷺ سنة ١٥٠هـ، وله من العمر ٧٠ سنة.

(٢) (ص: ٥١) أبو حنيفة لأبي زهرة.

ليس من العدل الذي أوجبه الإسلام على الحاكم أن يؤاخذ العالم لطلب يرفضه أو لرأي يبديه، ولو كان يتعلق بوجوده حاكمًا على البلاد، لأن إبداء الرأي من حق الأمة وفي مقدمتهم العلماء، والمنصور يعلم هذا، لذلك لم يجرؤ أن يؤاخذ إمامنا النعمان على كل ما يبديه ولكنه التمس أسبابًا للنيل منه، =

محنة مالك بن أنس

سئل عن الخارجين على النظام أيجوز قتالهم؟ قال: «نعم إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز»، قالوا: فإن لم يكونوا مثله؟ قال: «دعهم ينتقم من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما»

مالك

كان الإمام مالك بن أنس يأخذ كامل زينته من طيب ولباس، ووافر حظ من حسن الأدب جالسًا على منصة متواصفة يبين للناس ويعلم هدي رسول الله ﷺ.

قائلاً: حدثني فلان بن فلان أن صاحب هذا القبر قد قال: والناس يسمعون، وكأنما على رؤوسهم الطير، وهم بين ناصت بكل جوارحه ليصن قلبه ويحفظ عقله، وبين كاتب يسجل على قرطاس، وكان مما حدَّث به هذا الإمام الجليل قوله ﷺ: «ليس على مستكره طلاق».

... وما إن نطق بهذا الحديث الصحيح، وإذا بالألسن تتداوله ذائعة أمره، حتى شاع وانتشر بين الخلق في مدينة سيد الخلق ﷺ. ثم اخذت التأويلات لهذا الحديث تجري على قدم وساق، كل طائفة وجدت فيه بغيتها وعضت عليه بالنواجذ لأن فيه مستندًا شرعيًا لما عزمت عليه من أمر مما بيتت من فعل.

فالمناوئون لحكم أبي جعفر المنصور وجدوا فيه مستندًا قويًا على التحلل من بيعة المنصور لأنها جاءت ـ كما اعتقدوا ـ عن طريق الإكراه. إذ قاسوا البيعة على الطلاق فقالوا: وليس على مستكره بيعة.

وأنصار محمد بن عبد الله بن الحسن ﷺ وجدوا فيه متكئًا حين خروج هذا الإمام الجليل.

= وتلك إساءة بليغة وجرم عظيم يبوء المنصور بإثمها وعليه وزرها، ولو أنه حقق الإسلام في جوانب عدة ما حقق من نشر له في الأرض ورفع لواء الإسلام.

أما الحكام من أبي جعفر وولاته فقد وجدوا في نشر هذا الحديث خطرًا عليهم وعلى كيانهم، لذلك حاولوا أن يمنعوا الإمام مالكًا من التحدث به.

ولكنه لم يفعل، وهددوه فلم يسمع، لأنه يؤمن بأن الله أوجب على العلماء أن يبينوا للناس ما نزل على رسوله محمد ﷺ، ولا يكتمونه ولم يكن الإمام مالك من الجبناء الذين يكتمون أحكام الإسلام، إرضاء لهوى الحكام، أو خوفًا من بطشهم وجبروتهم أو أسواطهم وأغلالهم، عند ذاك نزلت المحنة ووقع الأذى، والسؤال الذي يرد؟ من أنزل بإمامنا هذه المحنة فباء بإثمها وتولى كبرها، وحصد شرها؟.

الروايات التاريخية تشير إلى ما يلي:

أن أبا جعفر (نهاه أن يحدث بهذا الحديث ثم دس إليه من يسأله عنه فحدث به على رؤوس الناس فضربه)[(١)].

ومثل هذا روى ابن عبد البر في الانتقاء.

(لما دعى مالك بن أنس وشور وسمع منه وقبل قوله شنف له الناس)[(٢)]. وحسدوه ونعتوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة سعوا به إليه وكثروا عليه عنده، وقالوا لا يرى إيمانًا ببيعتكم هذه شيء.

وهو يأخذ بحديث رواه ثابت بن الأحنف في طلاق المكره لا يجوز[(٣)].

بعد أن ذكر هياج أهل المدينة على المنصور في أول أمره، أنه أرسل إليهم ابن عمه جعفر بن سليمان، فاشتد في أهل المدينة الخلاف وأخذت البيعة الخليفة، فسعى حسدة الإمام مالك إلى الأمير أنه يفتي بألا يمين على مكره فيحل بهذا ما أبرمتموه مما

(١) (ص: ٨٤ ـ جـ١٠) تاريخ ابن كثير.
(٢) شنفوا له أي تنكروا له.
(٣) (٤٤) «الالتقاء» لأبي عبد البر.

قام على الاستكراه، فـأراد أن يبدر فيه فـقيل: لا تبدر فإنه أكرم الناس عـلى الخليفة فدس إلى مالك بعض ثقاته فأفتاه على طمأنينة منـه، فلم يشعر إلا ورسول جعفر فيه فأتوا به فتنهك الحرمة وضربه سبعين سوطًا أضجعته بعد انتهاء الفتنة[١].

يقول مالك: لما وصلت على أبي جـعفر وقد عهـد إليَّ أن آتيه في الموسم قال لي: والله الذي لا إله إلا هو مـا أمـرت بالذي كان ولا علمـتـه، إنه لا يزال أهل الحرمين بخيـر ما كنت بين ظهرهم وإني أخالك أمـانًا لهم من عذاب ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيـمة، فـإنهم أسرع الناس إلى الـفتن، وقد أمرت بـعدو الله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ في اتهامه ولابد أن أنزل به من العقوبة أضـعاف ما نالك منه، فقلت: عـافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه قـد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ وقرابته منك، قـال: فعفا الله عنك وأوصلك[٢].

ومثل هذا روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة.

تلك عظمـة مالك من تسـامحـه واحتـسـابه السبـعين سوطًا لله، له بهـا ثواب الصابرين ومثوبة المؤمنين. . .

وبهذا انتهت مـحنته وعاد إلى دروسه وصنف كتـابه الموطأ بعد ذلك ولكن المحن لم تزل قائمة بأقرانها[٣].

(١) «الإمامة والسياسة» لأبي قتيبة.
(٢) (ص: ٢٩٣) «المدارك».
(٣) مات سنة ١٧٩هـ وله من العمر ٨٦ سنة.

محنة أحمد بن حنبل

«إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟»

ابن حنبل

تبنت الدولة الإسلامية في أواخر حكم المأمون سنة ٢١٨هـ الفكرة القائلة بخلق القرآن الكريم، واستعملت قوة سلطانها وصرامة جندها في تنفيذها.

وأنزلت المحن الشداد بالمعارضين والمخالفين لها، بل والساكتين من الذين توقفوا فيها.

واستمر هذا التبني حتى حكم المعتصم والواثق إلى أن جاءت سنة ٢٣٤هـ، فآن للدولة في بداية حكم المتوكل أن ترفع هذا التبني وتبطله وبذاك خلصت الأمة من شروره ومحنه.

كيف وأن تلك الفكرة ـ خلق القرآن الكريم ـ خاطئة وحمل الناس على اعتناقها بالقوة ـ قطعًا للرؤوس وضربًا بالسياط وإغلالاً بالآسار وحبسًا بالسجون ـ جريمة يتولى إثمها أصحابها والمنفذون لها.

ولكن هكذا رغب المأمون فسلك هذا الطريق غير المأمون!!

أصحاب هذه الفكرة هم المعتزلة، والمعتزلة قالوا: إن القرآن الكريم مخلوق؛ لأن الله تعالى خلقه وأنزله على رسوله سيدنا محمد ﷺ.

وقال جمهرة الفقهاء والمحدثين، ومنهم الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ بأن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله وكلامه غير مخلوق.

وتوقف آخرون عن بيان رأيهم في ذلك لأسباب اعتقدوا بها.

ولكن المعتزلة استطاعوا لقربهم من المأمون واستوزارهم له أن يحملوا المأمون على اعتناق فكرتهم هذه وتنفيذها بقوة سلطانه، وذلك عن طريق تبنيها من قبل الدولة.

واستمر هذا التبني إلى حكم المعتصم والواثق وبداية حكم المتوكل بوصية يوصي بها الحاضر اللاحق.

ونفذ المأمون هذه الفكرة بأربع مراحل.

المرحلة الأولى ـ استعمل المأمون أسلوب حرمان العلماء والفقهاء والمحدثين من وظائف الدولة وعدم قبول شهادتهم في القضاء، وذلك في حالة معارضتهم لهذه الفكرة وعدم قبولهم إياها.

يوضح هذا ما جاء في كتابه الأول إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم، وهذا نصه: «. . . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظ من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث، ولم يره، والامتناع عن توقيعها عنده»[1].

المرحلة الثانية ـ حرمان المخالفين من أعطيات الدولة من الذين يتولون التعليم والإرشاد ويتصدون للفتوى، أمثال عفان بن مسلم، إذ يقول: «فقال لي إسحق: إن أمير المؤمنين أمر إن لم تجبه يقطع عنك ما يجري عليك وإن قطع عنك أمير المؤمنين قطعنا نحن أيضًا، فقلت له: قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢٢). فسكت عني إسحق»[2].

(١) (ص: ١١١٢ ـ جـ٢) الطبري طبعة ليدن.
(٢) (ص: ١٣) المقضي للمقريزي.

المرحلة الثالثة ـ وفيها اشتدت المحنة ضراوة، إذ جعل عقاب المخالفين والمعارضين الضرب بالسياط، والإسار بالأغلال، والطرح بزنزانات السجون ثم إرسالهم إليه مخفورين، وأمر بتنفيذ ذلك حاكم بغداد كما جاء في كتابه الثالث إليه:

«. . . فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في الطريق حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم، لينطقهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعًا على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله»[1].

المرحلة الرابعة ـ وقد بلغ العقاب أوجه وهو الإعدام بقطع الرؤوس عن الهامات وأمر بتنفيذ هذا العقاب واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم، فجاء بكتابه الرابع إليه:

«. . . فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره وأمسك عنه وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقًا بكفره، وإلحاده فاضرب عنقه بالسيف وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه»[2].

وبهذا انتهى تعيين أساليب التنفيذ، فدخلت المحنة مرحلتها الأخيرة، وسارع إسحاق حاكم بغداد إلى طاعة أميره، فاجتمع بكبار علماء بغداد وكان من جملتهم إمامنا أحمد لمناقشتهم وجرى الامتحان، وكانت الأجوبة متفاوتة في الصراحة والجرأة، فمنهم الموفق بين رأيه الخاص ورأي الدولة، ومنهم المتأول، ومنهم الآخذ بقاعدة التقية؟؟ ولكن أربعة منهم في هذا المجلس ربط الله تعالى على قلوبهم فثبتهم ورضوا بحكم الله تعالى فيهم، فأعلنوا رأي الإسلام كما يعتقدونه في هذه الفكرة بوضوح متحملين كل مشقة في هذا السبيل، وهم إمامنا أحمد ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري، وسجادة.

---

(١) الطبري (جـ٢).

(٢) (ص: ١١٢٥ وما بعدها جـ٢) الطبري.

عند ذاك أخذ هؤلاء الأربعة الكرام مصفدين في الأغلال وأدخلوا زنزانات السجن. . . ينتظرون. . . وفي اليوم التالي جيء بهم إلى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليم. وأعطوا فرصة الإجابة، فأجاب سجادة بما تريد الدولة، فأطلق سراحه. . . ثم أتيحت لهم الفرصة ثانية، فلحق القواريري بصاحبه وبقي اثنان الله ثالثهما ابن حنبل وابن نوح رضي الله عنهما.

وسجادة والقواريري قد أخذا بالرخصة، وإمامنا وصاحبه قد أخذا بالعزيمة فكانا أفضل من أخويهما. وكان سلوكهما هو السلوك الأصح وهو الطريق الأحق وهو المفروض على أمثالهما من الأئمة الذين يهتدى بهداهم ويقتدى بهم. لأنهما رضي الله عنهما لو سلكا سبيل أخويهما. لضل الناس واعوج الطريق بهم وكان الفساد ولظن الناس ـ وليس لهم علم بما في الصدور ـ أن ذلك هو الحق وهو الذي ارتضاه أئمتهم وعلماؤهم دنيا وعقيدة.

ولذلك يقول إمامنا أحمد: **«إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق»**.

فحق على العلماء الرجال أن يثبتوا في المحن ويجهروا بالحق ليحفظوا على الناس دينهم. ويأمن الإسلام شر الطعن به وتكون محنهم طريقًا إلى نشره وسبيل العض عليه بالنواجذ.

وهذا ما نطق به أحمد وأقرانه. وهذا ما أراده واعتقده، وهذا ما تحقق ووقع. . .

وسيجد القارىء الكريم ذلك واضحًا من خلال تفصيل هذه المحنة.

نفذ حاكم بغداد أمر الخليفة، فحمل الفقيهين على الإبل موثقين في الأغلال، ليواجهوا المأمون في طرسوس.

وفي الطريق، وقع ما حدث به المؤرخون الثقات بما هو آت، جاء في طبقات الشافعية وذكر ابن الجوزي بسنده إلى ابن جعفر الأنباري أنه قال: لما حمل أحمد إلى المأمون، أخبرت، فعبرت الفرات فإذا هو جالس فسلمت عليه، فقال: أي أحمد بن حنبل - يا أبا جعفر تعنيت، فقلت: ليس في هذا عناء، وقلت له: أنت اليوم رأس والناس يعتقدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا كان الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك تموت ولابد من الموت، فثق بالله ولا تجبهم إلى شيء، قال: فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله ما شاء الله[1].

وفي الطريق أيضًا ذكر أبو نعيم وغيره أن أحمد بن غسان المكلف بإشخاص ابن حنبل إلى المأمون قال: فلما صرنا إلى اذنه ورحلنا منها وذلك في جوف الليل فتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقال: البشرى؟ قد مات الرجل - يعني المأمون -.

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل: فصار أبي ومحمد بن نوح إلى طرسوس وجاء نعي المأمون من (البذندون) فردا في إقيادهما إلى الرقة وأخرجا من الرقة في سفينة مع قوم محبسين فلما صارا بعانات (وتسمى اليوم عانه) توفي محمد بن نوح - رحمه الله تعالى - وتقدم أبي فصلى عليه، ثم صار أبي إلى بغداد وهو مقيد، فمكث بالياسرية أيامًا ثم صير إلى الحبس في دار أكتريت عند دار عمارة، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة في درب الموصلية، نعم مات محمد بن نوح في الطريق، فكان شهيدًا مصداقًا لقوله ﷺ: «... ومن مات في سبيل الله فهو شهيد...» فاستراح وذهب إلى ربه راضيًا مرضيًا وقد أدى الذي عليه وبقي الذي على إخوانه العلماء...

---

(١) (ص: ١٤٦) «طبقات الشافعية» للسبكي.

وانتـهت بذلك محنتـه ولكن صاحـبه ابن حـنبل، لازال في المحنة منتظراً ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب:٢٣).

وفي سجن أحمـد الذي طرح فيه ثمانية وعـشرين شهراً، بقي صامـدًا فلم يغير رأيه ولم يبدل موقفه.

وكلما ازدادت المحنة وبلات ازداد إيمانًا وثقة بربه وبكتابه الذي يكافح من أجله.

ورغم محـاولات إقناعه بالعـدول عن رأيه، واسـتجابة أمر الدولـة اتسعت المحنة واشتدت وبلغت أقصاها، رغم شفاعات الشافعين الذين قاموا بها متبرعين من أنفسهم...

قال إسـحاق بن حنبل - عم إمامنا أحـمد -: كنت اتكلم مع أصـحاب السلطان والقواد في خـلاص أبي عبـد الله، فلم يتم لي الأمر، فاسـتأذنت على إسـحاق بن إبراهيم فدخلت عليه وكلمته، فقال لحاجبه: اذهب معه إلى ابن أخيه. ولا يكلم ابن أخيه بشيء إلا أخبرتني به.

قال إسحاق بن حـنبل: فدخلت على أبي عبد الله ومعي حاجـبه، فقلت: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق. فقال أبو عبد الله: يا عم، إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، متى يتبين الحق؟ قـال: فأمـسكت عنه. ثم قال: فـذكـر أبو عبـد الله ما روي في التـقيـة من الأحاديث، فقال: كيف تصنعون بحديث خباب؟ إن كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه، قال: فيئسنا منه.

ثم قال: لست أبالي بالحـبس، ما هو إلا ومنزلي واحد، ولا قتـلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف أن لا أصبر، فـسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك.

فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، مـا هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي، فلما سمع ذلك سري عنه[١].

وذكر أبو نعيم ومثله المقريزي: «حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن أحمد والحسين ابن محمد قالوا: حدثنا محمد بن إسـماعيل، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد ابن حنبل، قال: قال أبي ـ رحـمه الله ـ لما كان في شهر رمضان لليلـة سبع عشرة خلت منه، حولت من السـجن إلى دار إسحـاق بن إبراهيم (حاكم بغداد) وأنا مـقيد بقـيد واحد يوجه إلي في كل يوم رجلان سماهم أبي قال أبو الفضل صالح: هما أحمد بن رباح وشعيب الحجام يكلماني ويناظراني فـإذا أرادوا الإنصراف دُعي بقيد فقيدت به، فمكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام، وصار في أرجلي أربعة أقياد»[٢].

ثم ماذا حـدث لإمامنا بعد ذلك، هذا ما يـحدثنا به الإمام نفسـه، فقال حاكـيًا حاله: «. . . فلما كـانت الليلة الرابعة بعد العشـاء الآخرة وجه المعتـصم ببغا ـ وهو رسوله ـ إلى إسـحاق بن إبراهيم يأمـره بحملي، فأدخلـت على إسحاق، فـقال: يا أحمد، إنهـا والله نفسك، إنه قد حلف ألا يقتلك بالسيف، وأن يضـربك ضربًا بعد ضرب، وأن يلقيك في مـوضع لا ترى فيه الشمس، أليس قـد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة الزخرف:٣)، أفيكون مجعـولاً إلا وهو مخلوق؟ فقلت له: قد قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل:٥)، أفخلقهم؟ فقال: اذهبوا به، فأنزلت إلى شـاطئ دجلة واحدرت إلى الموضع المعـروف بباب البـستان، ومـعي بغا الكبير ورسول من قبل إسحاق فقال بغا لمحمد المحاربي بالفارسية: ما تريدون من هذا

---

(١) (ص:٥) «المقضي» للمقريزي.

(٢) (ص:١٤٣) «الحلية» لأبي نعيم.

هذا هو إيمان عـوام المسلمين وهذه المقـالة من الرسول التـركي إن دلت على شيء فـإنما تدل على التهكم اللاذع في تبني الدولة لهذه المفاهيم التي استدق فهـمها على عموم المسلمين وهم لا يحتاجون إليها في دينهم وإسلامهم.

الرجل؟ قال: يريدون أن يقول القرآن مخلوق، فقال: ما أعرف شيئًا من هذا إلا قول لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله.

ولما صرنا إلى الشط أخرجت من الزورق، فجعلت على دابة والأقياد عليَّ. وما معي أحد يمسكني، فجعلت أكاد أخر على وجهي، حتى انْتُهِيَ بي إلى الدار، فدخلت ثم عرج بي إلى حجرة فصيرت في بيت منها، وغلق عليَّ الباب، وأقعد عليه رجل وذلك في جوف الليل وليس في البيت سراج»[1].

ثم ماذا فعل في تلك الزنزانة الضيقة المظلمة؟؟ وكيف كان ينهي ليله البهيم؟؟ أسمعه يقول: «فاحتجت إلى الضوء فمددت يدي أطلب شيئًا فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست فتهيأت للصلاة فقمت أصلي»[2].

بالصلاة قضى أمامنا أحمد ليله، وهل هناك أحب إليه من الصلاة ومن مناجاة ربه الذي يمتحن من أجل قرآنه وذكره المجيد، وكم للصلاة خشوع ولها قبول إن كانت في وقت السحر، وفي ساعات الشدة والمحن؟

وفي الصباح جرت المحاكمة الأولى للإمام على الوجه الذي يرويه هو ﷺ: «فلما أصبحت جاءني الرسول فأخذ بيدي فأدخلني الدار وإذا هو جالس (المعتصم) وابن أبي داود حاضر وقد جمع أصحابه، والدار غاصة بأهلها، فلما دنوت منه، سلمت فقال: ادنه ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال لي: اجلس، فجلست وقد أثقلتني الأقياد، فلما مكثت هنيهة، قلت: تأذن في الكلام؟ فقال: تكلم. قلت: إلام دعا إليه رسول الله ﷺ؟ أي إلى أي شيء دعا إليه ﷺ

(١) المصدر السابق بصحائفه.

(٢) (ص:١٤٨ وما بعدها) «الحلية» لأبي نعيم، (ص:٥٧٩ ـ جـ٢) «تاريخ اليعقوبي»، (ص:١٦٨ـ جـ٢) أبو الفداء في تاريخه، و(ص:٦) المقريزي، و (٤٨) «تاريخ الإسلام» للذهبي.

فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. فقلت: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قلت: إن جدك العباس يحكي أن وفد عبد القيس، لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله، فقال: «أتدرون ما الإيمان بالله؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم».

قال المعتصم: ما تقولون في القرآن؟ قلت له: ما تقول في علم الله؟ فسكت فجعل يكلمني هذا وهذا فأردَّ على هذا وأكلم هذا. ثم قلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به ما أراده فقال ابن أبي داود: أنت تقول إلا ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟

فقلت له: تأولت تأويلاً، فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويقيد عليه، فقال ابن أبي داود: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع وهؤلاء قضاتك والفقهاء، فسلهم، فقال لهم (المعتصم): ما تقولون؟ فيقولون: يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع.

تلك مقالة علماء السوء وطلاب الدنيا وعبيد أهوائهم، حينما يخاصمون قرناءهم في المعتقد، ويخالفونهم في الرأي في كل زمان.

ثم قال الإمام أحمد: «ولا يزالون يكلمونني وجعل صوتي يعلو على أصواتهم. فقال لي إنسان منهم: قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (سورة الأنبياء:٢). أفيكون محدث إلا مخلوق؟ فقلت له: قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (سورة ص:١)، والذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا لام، فجعل ابن سماعة (وهو من قضاة المعتصم) لا يفهم ما أقول، فجعل يقول لهم ما يقول؟ فقالوا: إنه يقول كذا وكذا، فقال لي إنسان منهم: حديث خباب يا هذا

تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه، فقلت له: نعم هكذا هو[١].

فجعل ابن أبي داود ينظر إليه ويلحظ متغيظًا عليه. فكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي داود فتكلم. فلما قارب الزوال قال لهم: قوموا.

وهكذا انتصر الإمام عليهم بفكره وقوي حجته وخاب المبطلون.

فالمعتصم يستمع إلى تلك المناقشة أو المحاكمة التي علا فيها صوت الحق المتمثل بحجج أحمد وبراهينه من الصباح حتى قاربت صلاة الظهر.

ثم اتبع المعتصم أسلوبًا آخر لعل به يزحزح أحمد عن إيمانه ومعتقده، يقول الإمام أحمد: «ثم احتبس (أي المعتصم) عبد الرحمن بن إسحاق فخلا بي وبعبد الرحمن، فجعل يقول لي: أما تعرف صالحًا الرشيدي؟ كان مؤدبي وكان في هذا الموضع جالسًا، وأشار إلى ناحية من الدار، فتكلم وذكر القرآن فخالفني فأمرت به فسحب ووطيء، ثم قال: ما أعرفك؟ ألم تكن تأتينا؟ فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، أعرفه منذ ثلاثين سنة، يرى طاعتك والحج والجهاد معك[٢]. وهو ملازم لمنزله، فجعل يقول (المعتصم): والله إنه لفقيه وإنه لعالم، وما يسرني أن يكون مثله معي، يرد على أهل الملل، ولئن أجابني إلى شيء، له فيه أدنى فرج، لأطلقن عنه بيدي ولأطأن عقبه، ولأركبن إليه بجندي، ثم يلتفت إلي ويقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ. فلما طال بنا المجلس ضجر فقام، فرددت إلى الموضع الذي كنت فيه».

---

(١) وحديث خباب قد مر ذكره وهو قوله ﷺ: **«إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار لا يصده ذلك عن دينه»** وتلك مقالة جريئة نطق بها أحد الحاضرين من العلماء فصدقه إمامنا ولعل هذا الإمام الجليل أخذ عقابه فيما بعد.

(٢) يقصد بقوله طاعتك: طاعة بني العباس لأن المعتصم منهم.

رجع الإمام إلى سجنه الضيق المظلم وهو مقيد بالأغلال مرفوع الرأس ثابت الإيمان، قوي الجنان، شاكر ربه على توفيقه إياه ونصره في تلك المناقشة وفي تلك السبيل ذات التهديد المرعب والإغراء العريض.

ثم يقول الإمام أحمد رضوان الله عليه: «ثم وجه إلي برجلين هما صاحب الشافعي (عبد الرحمن بن إسحاق) وغسان من أصحاب ابن أبي داود، فيناظراني فيقيمان معي حتى إذا حضر الإفطار وجه إلينا بمائدة عليها طعام. فجعلا يأكلان وجعلت اتعلل حتى ترفع المائدة، وأقاما إلى غد، وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي داود فيقول لي: يا أحمد يقول أمير المؤمنين ما تقول؟ قلت له: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به. فقال لي ابن أبي داود: والله لقد كتب اسمك في السبعة فمحوته ولقد ساءني أخذهم إياك، وإنه والله ليس السيف إنه ضرب بعد ضرب. ثم يقول لي: ما تقول؟ فأرد عليه نحوًا مما رددت عليه».

هكذا يدعي شيخ المعتزلة وهو صاحب فكرة المحنة؟ محاولة منه لإرجاع الإمام عن معتقده لينتصر مذهبه، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، ورجع ابن أبي داود إلى منزله ليستعد للمناقشة في اليوم الثاني.

ثم يقول الإمام أحمد: «وفي اليوم الثاني دخلت على المعتصم فقال: ناظروه وكلموه، فجعلوا يتكلمون، هذا من هنا وهذا من هنا، فأرد على هذا أو هذا، فإذا جاءوا بشيء من الكلام بما ليس في كتاب الله وسنة رسوله ولا فيه خبر ولا أثر، أقول لهم: ما أدري ما هذا، فيقول: يا أمير المؤمنين إذا توجهت له الحجة علينا وثب، وإذا كلمناه بشيء يقول: ما أدري ما هذا. فيقول: ناظروه، ثم قال: يا أحمد إني عليك شفيق. . .

وكان إذا انقطع الرجل (أي إذا لزمته الحجة فأفحم ولا يستطيع ردًا) اعترض ابن أبي داود».

ثم يقول الإمام أحمـد: ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بي وبـعبد الرحمن ابن إسحاق، فيـدور بيننا كلام كثير، ومن خلال ذلك قـال: تدعو أحمد ابن أبي داود فأقول ذلك إليك، فيوجه فيجيء فيتكلم، فلما طال بنا المجلس قام. ورددت إلى الموضع الذي كنت فيه، وجاءني الرجلان اللذان كانا بالأمس فجعلا يتكلمان فدار بيننا كـلام كثير، فـلما كان وقت الإفطار جيء بالطعـام على نحو مما أُتيَ به في أول ليلة فأفطروا وتعللت وجـعلت رسله تأتي أحمد بن عـمار (وهو الواسطة بين الإمام والمعتصم) فيمضي إليه برسالة على نحو ما كان في أول ليلة؟ حتى إذا كدت أن أصبح اخـرجت تكتي من سراويلي فشـددت بها الأقياد احملـها بها إذا توجـهت إليه، فـقلت لبعض من كـان مـعي المتوكل بي: أريد خـيطًا، فجـاءني بخيط، فشددت به الأقياد وأعدت التكة في سـراويلي، ولبستها كراهية أن يحدث شيء من أمري فأتعرى.

بقي الإمام يومين بلا طعـام، لأنه صائم فاسـتعد بذلك روحـيًا على استـعداده فكريًا. إذ قد رفض أن يأكل من طعام القوم... لأنه في ضيافة الله.

نعم استعد لذلك روحيـا وفكريًا للجلسة الثالثة من محاكمتـه، التي سيكون فيها إعطاء القرار الـنهائي... ولم ينس احتـياطه لعـورته أن تكشف، لأنه قرر الصـمود والثبات لكل ضرب أو سيف حتى يلقى العليم الخبير، أما خصومه فقد استعدوا أيضًا ولكن غير استعداده.

وجاء اليوم الثالث وتأيدت ظنون الإمام، قـال الإمام: فلما كان في اليوم الثالث أدخلت عليه (المعتصم) والقوم حضـور. فجعلت ادخل من دار إلى دار. وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزي والسلاح، وقد حشيت الدار بالجند ولم يكن في اليومين الماضـيين كبيـر أحد من هؤلاء حتى صرت إليـه، قال: ناظروه وكلموه، فعادوا بمثل مناظرتهم. فدار بيننا وبينهم كلام كثير، حتى إذا كان في الوقت

الذي كان يخلو بي فيه نحاني ثم اجتمعوا وشاورهم ثم نحاهم ودعاني. فخلا بي وبعبد الرحمن بن إسحاق، فقال لي: ويحك يا أحمد، إنا والله عليك شفيق وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني فأجبني؟.

فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله، وهنا ضاقت نفس المعتصم كما ضاق لسانه عن النطق الجميل كما سيضيق عليه قبره، يوم قيامته، فأصدر أوامره الجهنمية بإنزال العقاب الذي ما بعده عقاب.

قال الإمام أحمد: فلما ضجر (المعتصم) وطال المجلس، قال: عليك لعنة الله. لقد كنت طمعت فيك، فخذوه خلعوه ثيابه، اسحبوه، فأخذت فسحبت ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين والسياط، وقد كان صار إليَّ شعرتان من شعر النبي ﷺ فصررتهما في كم قميصي.

فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصرة في كم قميصي، فوجه إليَّ ما هذا مصرور في كم قميصك؟، فقلت: شعر من شعر النبي ﷺ. وسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه في وقت ما أقمت بين العقابين، فقال لهم: لا تخرقوه انزعوه عنه فظننت أنه درى عن القميص الخرق لسبب الشعر الذي كان فيه، ثم صيرت بين العقابين وشدت يدي وجيء بكرسي فوضع لي، وابن أبي داود قائم على رأسه (المعتصم) والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي ممن شدني خذ نابي الخشبتين بيدك وشد عليهما، فلم أفهم ما قال: فتخلعت يدي بما شددت ولم أمسك الخشبتين.

ويقول ولده صالح: ولم يزل أبي رحمه الله يتوجع منها من الرسغ إلى أن توفي، ثم قال: للجلادين تقدموا، فنظر إلى السياط فقال: ائتوا بغيرها، ثم قال: تقدموا فقال لأحدهم: ادنه أوجع قطع الله يدك. فتقدم فضربني سوطين ثم تنحى - وكان الإمام يذكر كلامًا عند كل ضربة سوط، قال المقريزي في (المقضي): فلما ضرب أحمد سوطًا قال: بسم الله فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله،

فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع قال: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (سورة التوبة: ٥١)، فضربه تسعين وعشرين سوطًا وكانت تكة سراويله قد انقطعت فنزلت السراويل إلى عانته فتلت الساعة ينتهك، فرمى أبو عبد الله إمامنا طرفه إلى السماء وحرك شفتيه فما كان أسرع من أن بقي السراويل لم ينزل، قال ميمون: فدخلت على أبي عبد الله بعد سبعة أيام فقلت: يا أبا عبد الله رأيتك يوم ضربوك قد انحل سراويلك فرفعت طرفك إلى السماء ورأيتك تحرك شفتيك فأي شيء قلت؟ قال: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به الورش إن كنت تعلم أني على صواب فلا تهتك لي سرًا.

وبعد تلك السياط الشداد وإمامنا صابر محتسب يذكر الآخرة ويرجو رحمة ربه، والناس قيام ينظرون.

قال الإمام: ثم قام المعتصم حتى جاءني وهم محدقون به، فقال: ويحك يا أحمد تقتل نفسك، ويحك أجبني أطلق عنك بيدي. فجعل بعضهم يقول لي: ويحك إمامك على رأسك قائم، وجعل عجيف وهو من رجاله ينخس بقائم سيفه ويقول: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟

وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول: ويلك الخليفة على رأسك قائم، ثم يقول بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي، ثم رجع فجلس على الكرسي، ثم قال للجلاد: ادنه شد قطع الله يدك ثم لم يزل يدعو جلادًا بعد جلاد فيضربني سوطين ويتنحى وهو يقول: شد قطع الله يدك.

ثم قال إليَّ الثانية فجعل يقول: يا أحمد أجبني فجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لي: من صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر ما صنعت؟ هذا يحيى بن معين وهذا أبو خيثمة وابن أبي إسرائيل وجعل يعدد من أجاب، وجعل هو (المعتصم) يقول: ويحك أجبني، فجعلت أقول نحوًا مما كنت أقوله لهم.

في هذا البحران من الضغط والإرهاب يغفر فاه بالموت الزؤام وسيدنا الإمام صامد كالجبل الأشم، والجلادون الذين يتناوبون على ضربه بالسياط الضرب المبرح وقد بلغوا مائة وخمسين جلاداً لا يستطيعون أن يحركوه عن اعتقاده قيد أنملة.

وهنا تشتد النفوس حماقة والقلوب غيضًا وأيدي الجلادين قوة فيعلن المعتصم من يقتله؟ فجاء الجلاد أبو الدن فقال: أنا، قال المعتصم: بكم تقتله؟ قال: بخمسة عشر أو عشرين، فقال: شد قطع الله يدك.

يقول الإمام: ثم جعل يقول للجلاد: شد قطع الله يدك. فذهب عقلي وما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق القيد، فقال إنسان ممن حضر: إنا كبيناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية[1] ودسناك، قلت: ما شعرت بذلك.

نعم كيف يشعر، وقد تعهد أبو الدن الجلاد الأحمق، أن يزهق روح إمامنا بضربات معدودات، وإن ذهب شعور عقله فإن قلبه الكبير بقي حيًا ذا حراك وشعور تامين يلهج بذكر الله.

قال الإمام: فجاؤوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ. فقلت: لا أفطر.

ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فنودي بصلاة الظهر، فصلينا الظهر فقال ابن سماعة (قاضي المعتصم) صليت والدم يسيل من ضربك فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثغب دمًا، فسكت ثم خلى عنه فصار إلى المنزل، ووجه إليَّ برجل من السجن ممن يبصر الضرب ويعالج منها، فنظر إليه فقال: إنما والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضربًا أشد من هذا لقد جر عليه من خلفه ومن قدامه، ثم أدخل ميلاً في بعض تلك الجراحات فقال: لم يثقب فجعل يأتيه ويعالجه.

---

(١) البارية: الحصير.

كل ذلك الضرب وكل هذه الجراحات وكل تلك السجون المظلمة والزنزانات الضيقة، وكل تلك القيود والأغلال ثم الركل بالأقدام وهو فاقد الشعور، وكل هذه المحنة التي ما بعدها محنة، إمامنا صابر مصابر بين صلاة وصيام، من أجل الحفاظ على عقيدة الإسلام، وحماية القرآن من القول المريب فيه. نعم، كل هذا تحمله الإمام بثبات وشجاعة ثم نسمعه يقول: والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافًا لا عليَّ ولا لي.

وبعد هذا الضرب وبعد تلك المعالجة الطبية لجروحه، ماذا حدث لإمامنا؟ وهل انتهت محنته؟

هاج الناس وماجوا لأنهم رأوا صدق إمامهم، وازدادوا وثوقًا بصحة معتقدهم، وإن ما عليه أحمد هو الحق، وكادت أن تحدث ثورة تعصف بالمعتصم، فأدرك المعتصم ذلك، وسارع إلى قطع دابرها بهذه الحيلة الماكرة.

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: دعا المعتصم إسحاق عم أحمد ابن حنبل، ثم قال للناس؟: تعرفونه؟ قالوا: نعم، فانظروا إليه ثم قال لإسحاق: أليس صحيح البدن ـ ويشير بذلك إلى الإمام أحمد ـ؟ فقال برأسه: نعم، ولو أنه فعل ذلك لوقع شر لا يقدر على دفعه. فلما قال: قد سلمته إليكم صحيح البدن هدأ الناس وسكتوا[١].

ولولا هذا الهياج وهذه البوادر للثورة لكان المعتصم قد أخذ باقتراح ابن أبي داود وطرح إمامنا في السجن...

يقول الإمام: وكان ابن أبي داود يحث الخليفة على حبسي ويقول له: يا أمير المؤمنين احبسه فإنه فتنة. فلا يجد بدًا أن يخلي عني ولولا ذلك لكان قد حبسني وقال المعتصم لهم: ليس هذا كما وصفتم...

---

(١) (ص:٨) «المقضي» للمقريزي.

وعاد الإمام إلى بيته لا يقوى على السير مكللاً بالنصر المبين، مرتديًا تاج العز والفخار، وقد أثبت للملأ أجمع أن لله تعالى رجالاً يغضبون له.

وأن للقرآن حماة يذودون عنه. وأن للدين أنصارًا يجودون بأنفسهم حين يعز الناصر ويكثر الواتر بتسلط الظلمة على رقاب الأمة.

. . . ثم عاد الإمام إلى درسه ووعظه بعد أن التأمت جروحه وشفيت أوجاعه. وذهبت عنه وعثاء المحنة.

ولكن هل ذهبت عنه المحنة وعن قرنائه إلى غير رجعة؟ لا، لا.

فقد عادت إليه المحنة عندما تولى الواثق الحكم بعد المعتصم، فاستمرت المحن تصب على أقرانه من السادة العلماء.

قلنا إن الإمام أحمد عاد إلى درسه ووعظه فالتف الناس حوله، ووجدوا فيه العالم التقي والفقيه المحنك الذي ترتاح إليه النفوس وتستمع إلى وعظه القلوب وإنه إمام العصر الذي تتمثل فيه الرجولة بأسمى معانيها.

ولما علم الواثق بذلك كله ضاق صدره فأنزل به محنة ولكنها ليست ضربًا بالسياط وحبسًا بالسجون وتضييقًا وملاحقة كما فعل أبوه المعتصم، إذ رأى أن هذا النوع من المحنة زادت إمامنا محبة عند سواء الناس وجمهرة الأمة.

ورفعت منزلته وعظم احترامه، وانتشر معتقده، وفشى فكره وكان نصيب ما تبنته الدولة وما يعتقده رئيسها التراجع والضمور، فأصدر أمره الجائر الآتي: لا تجمعن إليك أحدًا ولا تساكني في بلد أنا فيه.

فأقام الإمام أحمد في داره لا يخرج إلى صلاة ولا يشهد جنازة ولا يلقي درسًا، حتى مات الواثق، أليس في ذلك محنة له؟؟ . .

أما قرناء الإمام أحمد فقد أنزل بهم الواثق أشكال المحن، فهذا أحمد بن نصر الخزاعي، قد تأثر بسلوك الإمام أحمد فحقد أشد الحقد على الدولة وأخذ يلمزها في دروسه ويعلن بصراحة اعتقاده الذي هو اعتقاد الإمام ابن حنبل.

قال المقريزي وغيره: فأما أحمد بن نصر فكان من أهل الدين والصلاح والأمارين بالمعروف... دعاه الواثق إلى القول بخلق القرآن فأبى، فأمر بضرب عنقه فضرب. وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أيامًا، ومثلها في الجانب الغربي. أما جسده فصلب بسر من رأى (مدينة سامراء) وفي رواية أخرى: وامتحنه الواثق بالقرآن فأبى أن يقول أنه مخلوق وشتمه الواثق فرد عليه. فضرب عنقه وصلب بسر من رأى ووجه برأسه فنصب ببغداد[(١)].

فهل هناك فظاعة في القتل وتمثيل في الجسم أشد من ذلك وأعظم؟

وحين سمع ذلك الإمام أحمد قال: رحم الله أحمد بن نصر ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه!

وهذا نعيم بن حماد وكان ـ رحمه الله ـ من كبار علماء مصر، مشهورًا بالصدق وغزارة المعرفة، ناطقًا بالحق، جريئًا في دحض الباطل، لذا فقد أعلن صحة المعتقد في مسألة خلق القرآن، مخطئًا الدولة فيما ذهبت إليه.

قال المقريزي في المقضي: وأما نعيم بن حماد فكان من أهل مرو طلب الحديث بالحجاز والعراق، ثم نزل مصر، ثم أشخص منها في خلافة الواثق، وسئل عن القرآن فلم يوافقهم على ما أرادوا منه، يعني القول بخلقه فحبس حتى مات[(٢)].

---

(١)، (٢) (ص: ١٠) المقضي للمقريزي، و(ص: ٣٤٦) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، و(ص: ٥٨٩جـ٢) تاريخ اليعقوبي.

وهذا أبو يعقوب البويطي، تلميذ الإمام الشافعي الذي تولى خلفه درسه بعد موته. وكان الربيع بن سليمان من أقران البويطي، فقد حكي عنه: لقد رأيت البويطي مصفدًا في أغلاله وسمعته يقول: والله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن دخلت عليه (يعني الواثق) لأصدقنه، فمات في السجن[1].

وهكذا أنزلت المحنة بأقران أحمد من فضلاء الأمة وعلماء دينها، وجيء بهم مصفدين في الأغلال من أرجاء الدولة إلى الواثق، ليأخذوا نصيبهم من هذه المحنة حتى أن عوام الأمة من الذين اتبعوا أئمتهم واعتقدوا رأيهم، ولم ينجوا من هذه المحنة.

وذلك أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في أيدي البيزنطيين، رأت الدولة بأمر الواثق أن تفاديهم وتفك أسرهم، ولكن مَنْ من هؤلاء الأسارى تخلص من هذا الأسر ونجا من عذاب الروم وهو بين أيدي العلوج أسير؟؟.

هذا ما يحدثنا به المسعودي: وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبا رملة، من قبل أحمد بن أبي داود قاضي القضاة يمتحن الأسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة فودي به وأحسن إليه - بدفع دينارين له - ومن أبى ترك بأرض الروم.

فاختار جماعة من الأسارى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك وأبى أن يسلم الانقياد إلى ذلك فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص[2].

وبهذا تعاظمت البلوى، واشتدت المحن، وبلغ الاضطهاد منها، وسمت هذه الأحوال، حتى صارت مسألة خلق القرآن حديث كل الناس من أفراد الرعية في

---

(١) (ص: ١١) «المقضي للمقريزي»، (ص: ٣٥٠) «تاريخ الخلفاء»، و (ص: ١٣٢ـ جـ٢) «تاريخ أبي الفداء».

(٢) (ص: ١٦١, ١٦٢) «التنبية والإشراف» للمسعودي، و (ص: ١٣٥١جـ٣) «تاريخ الطبري»، (١٤٠٦) «الطبقات» للسبكي.

الدولة، وهم بين مادح ومثني على من وقعت عليهم المحن وأصيب بشرورها ومترحم على شهدائها، وبين منكر تصرف الدولة في ذلك. للقسوة التي استعملتها والاضطهاد الذي قامت به بل صارت هزلاً يتندر بها البعض. ومن ذلك ما يروى أن عبادة المضحك دخل يومًا على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن؟ فقال: ويلك القرآن يموت، قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين بم يصلي الناس التراويح؟ فضحك الواثق وقال: قاتلك الله أمسك.

ولما وصل الحال إلى هذا الحد، خفف الواثق من غلوائه... ورفع كل اضطهاد جديد بشأن ذلك. ولكن أمر تبني المسألة هذه، لازال باقيًا في الدولة، وكان ذلك في أواخر حياته، وقد روي أن سبب هذا التخفيف يعود إلى سماعه تلك المناقشة التي يحدثنا عنها صاحب النجوم الزاهرة وغيره[(١)].

أشخص شيخ من اذنه إلى الواثق فأمره أن يناظر أحمد بن داود في هذا الموضوع. قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه، أهي واجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت؟ فقال أحمد: نعم، قال الشيخ، أخبرني عن رسول الله حين بعثه الله هل ستر شيئًا مما أمر به؟، لم يرد أحمد عليه، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذه واحدة، فقال الواثق واحدة، ثم قال الشيخ: أخبرني عن الله حين قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (سورة المائدة:٣). ، أكان الله وهو الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه؟ حتى تقال مقالتك؟ فسكت ابن أبي داود فقال الشيخ: اثنتان، فقال الواثق: نعم، ثم قال الشيخ: عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟ فقال ابن أبي داود: علمها، فقال الشيخ: فدعا الناس إليها؟ فسكت. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث فقال الواثق: نعم.

---

(١) (ص: ٦٩١ ـ جـ١) «النجوم الزاهرة»، و (٣٤٧) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، و (٢٦٦) «الطبقات» للسبكي.

ثم قال الشيخ: فاتسع لرسول الله ﷺ أن علمها أن يمسك عنها ولم يطالب أمته بها، فقال ابن أبي داود: نعم، فقال الشيخ: واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ذلك، فقال: نعم، فقال الشيخ: أفلا وسعك ما وسعه ووسع الخلفاء بعده؟

وفي رواية للدميري في كتاب حياة الحيوان، شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس إليه، ليس يخلو أن تقول علموه أوجهلوه فإن قلت علموه وسكتوا وسعني وإياك من السكوت وأوسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئًا وأنت تعلمه. . .

بهذا انتهت المناقشة فأمر الواثق بإطلاق سراح الشيخ الأدنى في الحال، ذلك من أسباب التخفيف ولكن التبني في الدولة كما ذكرناه لم يرفع وإن رفع الاضطهاد وإنزال المحن بالمخالفين.

وما أن تولى المتوكل الحكم في الدولة بعد الواثق ومضت على حكمه سنتان(١) وهو يرى ما جر هذا التبني من سوء على الأمة والدولة معًا، فأمر بإلغاء هذا التبني وهدد بإنزال العقاب بمن يتحدث في هذه المسألة، وفك المسجونين، وأكرم المتضررين وبذلك انتهت المحنة إلى غير رجعة.

قال السبكي: وقد طال أمر الفتنة وطال شرها واستمر من سنة ثمان عشرة ومائتين ٢١٨هـ إلى سنة أربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤هـ فرفعها المتوكل في مجلسه ونهى عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق(٢).

---

(١) تولى المتوكل الحكم سنة ٢٣٢هـ.

(٢) (ص: ١٤٣) «الطبقات» للسبكي.

ـ توفي الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ سنة ٢٤١هـ وله من العمر ٧٧ سنة هـ.

وهكذا أثبت الأئمة من علماء المسلمين أنهم دائمًا المنار الوضاء والسراج المنير في مدلهم الأحداث، والخريتون الماهرون في مجاهل الوقائع، والصابرون المصابرون في المحن والنوائب من أجل دينهم وإسلامهم، دين الحق الذي أكرمهم الله بحمل لوائه وتحمل تبعاته.

محنة الشافعي

«إن كان رفضًا حب أهل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي»

الشافعي

. . . إن تسعة من العلوية تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا وأن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي، يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه[(١)].

تلك هي قولة والي اليمن، من كتابه إلى الرشيد يستعديه فيه على أولئك النفر التسعة وعلى رأسهم الشافعي. وتلك بداية المحنة التي أنزلت بإمامنا الشافعي العظيم رضوان الله عليه.

إن حقيقة هذا الأمر: هي أن الإمام الشافعي، عندما كان بمكة زادها الله شرفًا، مع والدته لم يكن له عمل يعتاش به، فأشار بعض القرشيين على والي اليمن الذي مر بمكة أن يشغل الشافعي في ولايته ويستعين به في أمره هناك.

يقول الشافعي: ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما اتحمل به فرهنت دارًا فتحملت معه (أي مع الوالي) فلما قدمنا عملت له على عمل.

---

(١) (ص: ٢٢) «الشافعي» للأستاذ أبي زهرة، وقد ذكر في الهامش أن صاحب «توالي التأسيس» والرازي في «مناقب الشافعي» ابن عبد البر في «الانتقاء»، و«صاحب معجم الأدباء» قد اتفقوا على أن هذا هو سبب المحنة.

وفي عمله باليـمن بمدينة نجران، أقام الحق ونشر العدل فـكان شخصية إسـلامية بعقليتـها الرائعة ونفسـيتها المستـقيمة حتى شـاع ذكره الطيب في بطاح مكة وأطراف نجران، ورأوا فيه مثلاً صالحًا لمن يتولى أمرًا من أمور الناس.

يقول الشافـعي: وليت بنجران وبها بنو الحارث بن عبـد الله المدان وموالي ثقيف وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه فأرادوني على ذلك فلم يجدوا عندي[(١)].

ولما لم يقبل مصـانعة، ولم يداهن واليه ورئيسه، بل وقـف له بالمرصاد يمنعه من أية مظلمة يريد إيقاعها بمن يتولى أمرهم، ولم يكتف إمامنا بذلك بل يحاسبه في كل أمر وينكر عليـه كل سوء، وهو الذي يملك لسانًا كـما يقول الوالي الغـشوم الظلوم: «يعمل بلسانـه ما لا يقدر عليه المقاتل بسـيفه»، وبهذا وحـده ضاق صدر هذا الوالي وأبت نفسه إلا أن يسيء إلى الشافعي.

وبهذه المكيدة يتخلص الوالي من هذا الذي وقف في طريـق تنفيذ أهوائه وإشباع نزواته... وحال دون تسلطه على رقاب الأمة... أوثق التسعة وعاشرهم الشافعي، وصفدوا بالآسار وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم، وساروا من اليمن متوجهين إلى بغداد لملاقاة الرشيد، بصحبة ثلة من الجند للتحقيق معهم في هذه التهمة الخطيرة؟؟

أما الشـافعي: فقـد أنجاه الله ونصره. وهو الضعـيف الذي طلب المدد من الحي القيوم فأمـده وأنقذه في ساعة عسرته واستـجاب له فكان من الناجين وحيث أتاه الله من براعة اللسان وذربه وقوى الحجة ومنطقها السليم المقنع، وبما قذفه في قلب قاضي القضاة محمد بن الحسن من شفقة وطلب شفاعة وتقديم شهادة...

قال الشافعي وهو بين النطع والسيف والموت يفغر فـاه، وقد وجهت إليه التهمة: يا أمير المؤمنين ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب

---

(١) (ص: ٢١) الشافعي لأبي زهرة.

إليّ، قال الرشيد: الذي يراك أخاه، فقال: ذلك أنت يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم وهم يروننا عبيدهم[(١)].

أما شهادة قاضي القضاة وشفاعته، فقد حضر محمد بن الحسن محاكمته وكان بين الشافعي وابن الحسن التقاء سابق في بغداد والتقاء العلماء يكون دائمًا للعلم ومدارسة الفقه وبحث في المسائل الشرعية وإدلاء كل منهم بدلوه.

فبعد أن قال الشافعي مقالته تلك أخذ يبين أن له حظًا من العلم والفقه أنه عند ذلك قال: إن محمد بن الحسن يشهد على ذلك. فسأله الرشيد فأجاب (له من العلم حظ كبير).

ثم اتبع قائلاً: «وليس الذي رفع عليه من شأنه».

وتلك شفاعته. فقال الرشيد: «فخذه إليك حتى أنظر في أمره»[(٢)].

وبهذا تخلص الشافعي من ذلك الاتهام الخطير، ونجا من عقوبته...

وتلك محنة الشافعي، الأيدي مغلولة إلى الأعناق بمعية جند الرشيد من اليمن إلى بغداد، ثم الموت يقترب منه وقد لاح بين عينيه لولا عناية الله وحسن توفيقه. السبب الحقيقي هو قيامه بالواجب الملقى عليه باعتباره عالمًا أخذ الله منه الميثاق لبيان

---

(١) لاشك أن إمامنا ذكر هذا من باب شرح واقع موجود اقتضت الحاجة إلى بيانه وليس هو من قبيل مدح النفس.

(٢) (ص:٢٣) الشافعي لأبي زهرة.

- توفي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ وله من العمر ٥٤ سنة.

- كثير من التهم الباطلة والأراجيف الظالمة تكون سببًا لإنزال المحن ورفع الرقاب على مقاص الجلادين، وحوادث التاريخ قديمًا وحديثًا شهادة ناطقة، ولكن الحاكم المسلم الذي ولي أمر المسلمين ليقيم عليهم العدل ويحكمهم بالقسطاس المستقيم، عليه أن يحقق في تلك التهم ويكشف صدق الأراجيف من كذبها. وإن وجد شبهة أدرأ العقوبة مصداقًا لقول النبي الكريم ﷺ: **«ادرأوا الحدود بالشبهات»**.

أحكام الشرع والوقوف في وجه الظالمين الطغاة ومن ثم قيامه بعمله في نجران الذي أحسن فيه وقطع به الطريق على واليه وحال دون شهواته ونزواته.

لقد كانت هذه المحنة محنة ساقها الله لإمامنا، ليختبره في إيمانه، ولينصرف إلى العلم ومدارسة الفقه واستخراج الأحكام لمعالجة مشاكل الحياة، وليأخذ ما عند محمد ابن الحسن من علم وفقه وهو صاحب الإمام العظيم أبي حنيفة ورفيق الإمام أبي يوسف، بدل تلك الولاية في اليمن.

وقد كان ذلك والحمد لله. ولئن ولت محنة الشافعي ونجا منها فإن المحن الأخرى بأشكالها لازالت بانتظار رجالها من السادة العلماء.

محنة البخاري

ليس في دنيا الإسلام مثل الإمام محمد بن إسماعيل البخاري في زمانه، فهو أمير المؤمنين في حديث سيد المرسلين ﷺ كما لقب به.

ذاك ما شهد به شهود عدول من أقرانه الذين يعرفون فضله وعلمه، ولنسمع إلى شهادة أحدهم فيه: «قال أحمد بن حمدون الصفار: رأيت مسلم بن الحجاج ـ وهو الحافظ المحدث صاحب صحيح مسلم ـ جاء إلى البخاري فقبل عينيه وقال: دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله... ثم سأله عن حديث كفارة المجلس... فذكر له علته فلما فرغ قال مسلم: لا يغضبك إلا حاسد وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك»[(١)].

نعم ليس في الدنيا مثله، فقد وهبه الله تعالى قوة من الحفظ، وضبطًا في النقل وقدرة في فهم العلل، والتمييز بين الصحيح والسقيم، وكتابه الجامع الصحيح الذي

---

(١) (٣٥٤ وما بعدها) من كتاب «الحديث والمحدثون» لأبي زهرة.

اتفق عليه جمهور علماء المسلمين، بأنه أصح كتاب بعد كتاب رب العالمين سبحانه وتعالى، دلالة صدق على ذلك.

وكيف لا يكون كذلك. وهو الحجة الثبت والحافظ الأعظم لسنة سيدنا رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً والذي لا يستطيع أحد أن يجاريه في الضبط والاتقان، سندًا ومتنًا.

دخل مرة إلى سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها. فجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها وخلطوا في الأسانيد فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، ثم قرؤوها على البخاري يقصدون امتحانه فرد كل حديث إلى إسناده، وقوم تلك الأحاديث والأسانيد كلها، ولم يقدروا أن يأخذوا عليه سقطة في إسناد ولا متن وكذلك وضعوا له في بغداد فأذعنوا له بالفضل والسبق[١].

لقد عرف إمامنا البخاري في طيلة حياته، بأنه كان رضي الله عنه كثير الورع على درجة عظيمة من الزهد، الأمر الذي كان يرى في ابتعاده عن الحكام وفي زهد الاتصال بهم، سلامة لدينه وأمانًا من تجريح تقواه. ولأنه أراد التفرغ اللازم للاشتغال في جمع أحاديث الرسول الأعظم ﷺ، والاعتناء بها عناية تليق بمكانها، وهي بلاريب المصدر الثاني للإسلام، لذلك انصرف إليها بكليته، يجوب أقطار الإسلام على راحلته وفي بعض الأسفار مشيًا على الأقدام، ليأخذ الحديث من ثقاة رواته، قال رضي الله عنه: دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة العربية - مرتين وإلى البصرة أربع مرات. وأقمت في الحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين. وانصرافه هذا جعله لا يفكر إلا بالحديث حتى في ساعات الجهاد حين كان حارسًا مع صاحب له لحماية ثغر من ثغور المسلمين، كما سيأتي في فصل قادم[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فصل العلماء والجهاد.

ومن كان هذا حاله فأنى له أن ينشئ علاقـة من الحكام أيًا كانت العلاقة سلبًا أو إيجابًا؟، لذا فقد أصبح هو في وادٍ والحكام في وادٍ آخر.

ولكن الظلمة من الحكـام لا يرضون سلوك مثل هذا السـبيل، لأنهم يريدون من عالم المسلمين أن يكون معهم في كل حين في سرائهم وضرائهم، يجلس مجالسهم، ويستمع إلى قولهم، يسبح بحمدهم ويقدس أمرهم... أما إن أبى، منكرًا لأحوالهم الشاذة، محاسبًا لأعمالهم الخاطئة واقفًا بالمرصاد، ينصح ويرشد، لا يقبل ظلمهم ولا يرضى سوء صنيـعهم فإنهم يغضبـون ويحمقون، شـافين غليلهم بإنزال عذاب المحن بهم، ليسـتريحـوا منهم، ولن تسـتريح ضمائرهم إن كـانت عندهم ضمـائر، أما أن يرفض قـربًا طلبوه، واتـصالاً أرادوه، جـالسًا على التـل لا يريم، مكبًا على درسـه وتدريسه، وعلمـه وتعليمـه، يستقـبل الدارسين ويجيب سؤال الـسائلين، لا يرفض متـعلمًا يأتيه، ولكنه لا يأتي هو إليـه، لأن العلم يؤتى ولا يأتي إكرامًـا للعلم وعزة لحامليه، إن فعل ذلك العالم، ثارت ثائرة الظلمة من الحكام، وغضبوا عليه، منتقمين لأنفسهم كيف يرد طلبهم...؟

ولكن الحقيقة أنها محنة وأنها نكبة بالنسبة لرجل تجاوز الستين عامًا، إذ هو شيخ عاش لا لذاته، وإنما مـن أجل حديث رسول الله ﷺ، حـيث قضى عـمره وأفنى زهرة حياته يلتمس الحديث الشريف ويجمعه، ناذرًا نفسه لخدمة الحديث الشريف منذ كان عـمره عشـر سنين: «أفهـمت حفظ الحديث وأنا في الكـتاب. قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل»[1] في أسفار بعدت فيها الشقة، فلا طائرات ولا سـيارات إنما دواب وأقـدام ليسـهل فهم الشـريعـة الإسلامـية لمن يجيء بعـده، وليأخذوا من مـعين ما جمع، وهو معين لا ينضب، ويروون من بحره العـذب النمير ويرتعون مـن ربيع رسول الله ﷺ في روضة وغـدير، فرجل يعـيش في أفق السنة

(١) (ص: ٣٥٣) «الحديث والمحدثون».

المحمدية، ويسعى لتنقيب الأحاديث النبوية، بمشقة وعناء، لا يعرفها إلا من ذاق طعمها، ثم يقدم إنتاجه هدية مسداة لطلاب الحديث في حلقة درسه أو غيرها. . .

وبعد هذا أو ذاك يجازى مثل ما جوزي.

حقًا إنها محنة ذات إهانة بالغة، ولنسمع قصة المحنة: فقد حدث الرواة أن أمير خراسان خالد بن أحمد الذهلي طلب من الإمام البخاري وهو في بلده بخارى أن يحضر إليه ليسمع أولاده منه، فأبى أن يذهب قائلاً: في بيتي يؤتى العلم، فأراد الأمير أن يعزف الناس عن السماع منه فلم يقبلوا من الأمير، فأمر بنفي البخاري من بلده إلى بلدة (خرتنك) على فرسخين من سمرقند، وهناك مرض وعلى أثره مات في ليلة عيد الفطر على اثنين وستين سنة.

ولكن الله وهو العليم الخبير سبحانه وتعالى ينتقم من الظالمين ويثأر للمظلومين، ولو بعد حين فهو يمهل ولا يهمل.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»(١).

وصلت أنباء المحنة إلى بغداد، فقامت بغداد وقعدت وعم الاستياء لمحنة التقي الورع العدل الثبت، فأسرها الموفق بن المتوكل ـ وهو أخو الخليفة المعتمد ـ في نفسه، متحينًا الفرصة لينتقم لرسول الله ﷺ ويثأر لإمام المحدثين وأمير الحفاظ أجمعين.

وها هي الفرصة قد دنت فاستعد لها الموفق، وماذا عمل. . .

فقد حدثنا به ثقات المؤرخين:

حان موسم الحج، فوصل أمير خراسان خالد بن أحمد الذهلي إلى بغداد، وما أن سمع الموفق بقدومه، حتى أصدر أمره باعتقاله مخفوراً. . . ثم طرح في السجن.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

محنة ابن تيمية

قال ابن الحريري: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟؟[١].

تلك شهادة عدل هو قاضي القضاة ابن الحريري رحمه الله.

حقًا إنه شيخ الإسلام، لأنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان جبلاً في العلم، إمامًا في الفقه، فقه الكتاب والسنة، مجاهدًا بقلمه ولسانه، سهمًا سلطه الله تعالى على المبتدعين وأصحاب الأهواء، فضلاً عن جهاده بنفسه وسنانه في حروب التتار والكسرويين.

وله القدح المعلى في تثبيت الأمة أيام البأساء والضراء وحين البأس، وهو في مقدمتها للذود عن كرامتها وعزها، كلما ادلهم الخطب ونزلت نازلة بالمسلمين.

يقول ابن سيد الناس[٢]: «... إلى أن دب إليه أهل بلاده الحسد، وأكب أهل النظر منهم بما ينتقد عليه لتبديعه سهامًا، وزعموا أنه خالف طريقتهم وفرق فريقهم، فنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه».

وانتهت به هذه المنازعات وتلك المقاطعات إلى المحن الشداد، تحملها صابرًا مصابرًا محتسبًا.

ولكن المخالفين له، لم يأخذوا بأقوال الأئمة المأثورة عنهم، ومن ذلك مثلاً: «قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، وقولهم: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط». وقولهم: «كل رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة». ولم يسلكوا نهج هؤلاء الأئمة من أصحاب

---

(١) (ص: ٢١) «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ محمد البيطار.

(٢) (ص: ٧١ ـ جـ١) «فوات الوفيات».

المذاهب الإسلامية ـ رحمهم الله تعالى ـ في خلافاتهم في المسائل الفقهية والأمور الكلامية مع بعضهم بل ومع أصحاب المذهب الواحد وإنما سلكوا، عفا الله عنهم، مجتهدين، غير هذا السبيل، فوقعت المحن، وذلك ما قرره شيخ الإسلام في مخالفيه، فقال: ولا يخلو الرجل ـ أي من هؤلاء المخالفين ـ إما أن يكون مجتهدًا أو مخطئًا أو مذنبًا، فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد معفو عنه، والثالث الله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

ومن محنه ـ رحمه الله تعالى ـ ما نقله صاحب الكواكب الدرية: «. . . إنه في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية وكان الشروع فيها من أول الشهر وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين».

هذا هو السبب للمحنة الأولى، أما مواطنها هي ورفيقاتها من المحن فقد ذكر المؤرخون لها[1]:

إنه ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن أجاب على سؤال ورد من حماه في مسائل العقيدة، وذاع أمرها بين الناس وقف بعض علماء الشام من ذلك: موقفًا غير حميد، إذ اتصلوا بنائب السلطان في دمشق، وحدثوه بسببها مستعظمين أمرها، حاكمين عليها بالزوغان، ومخالفة ما عليه إجماع المسلمين، فدعاهم شيخ الإسلام لعقد جلسة للمناقشة بحضور نائب السلطنة الأقدم، وظهوره ـ رحمه الله ـ عليهم بالحجة والبرهان ورجوعهم إلى قوله طائعين ومكرهين.

وقد تبع هذا المجلس، واستدعاؤه من قبل السلطان في مصر، لوصول أنباء الخلاف إليه وسار ـ رحمه الله ـ في صحبة قاضي الشافعية عقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة.

---

(١) يراجع (ص:٤٣ وما بعدها جـ١٤) تاريخ ابن كثير، و (ص٧١ وما بعدها جـ١) «فوات الوفيات».

وفي هذا المجلس امتنع الشيخ من التحاكم إلى زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية، والسبب في ذلك، أن ابن مخلوف جمع بين الادعاء والقضاء في هذه القضية. فقال الشيخ: من الحاكم في؟ فقيل له: القاضي المالكي، فقال الشيخ: كيف تحكم في وأنت خصمي؟، فغضب غضبًا شديدًا وانزعج، وحبس الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ وآل أمره إلى الحبس المعروف بالجب وشاركه في حبسه أخواه شرف الدين وزين الدين.

نزل الشيخ في الحبس في شهر رمضان سنة ٧٠٥ ومكث فيه سنة ونصف السنة، وفي خلال هذه المدة، حاول نائب السلطان في القاهرة، أن يوفق بينه وبين المخالفين له، لضغط الناس في الشام، الذين يعرفون للشيخ مكانته ومنزلته، ورجاه بحضور المجلس للمناقشة، ولكن الشيخ امتنع، وصحب بدله أخويه، وانعقد المجلس للمناقشة واشتد فيه النقاش، ولم يحصل الاتفاق ثم جاء الأمير الشامي، عيسى بن مهنا، إلى الشيخ في حبسه، وأقسم عليه ليخرجن وليذهبن معه إلى دار نائب السلطان في القاهرة، فخرج معه، وانعقد المجلس وحصلت المناقشة مع الفقهاء، وامتنع القضاة من الحضور، وانتهى المجلس على خير، فأوضح لهم معتقده، مؤيدًا ذلك من الكتاب والسنة حسب فهمه لهما.

بقي الشيخ في مصر، معلمًا ومرشدًا، وقد صفح عن كل من أذاه قائلاً: «لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ، أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حِلٍّ من جهتي . . وبذلك انتهت هذه المحنة، ولكن القضاء ـ قضاء الله تعالى ـ لازال مخبئًا له محنًا أخرى، وعليه أن يصبر، لينال ثواب الصابرين، وهكذا كان.

استمر الشيخ في دروسه وإرشاده في القاهرة، واستطاع أن يوجد له في هذه الإقامة المؤقتة أنصارًا ومريدين يحاكون رأيه ومعتقده، وأخذ كعادته بين رأيه في

مسائل الكلام، ومدى مخالفة بعضها لعقيدة السلف التي يعتنقها، وانتقد الشيخ محيي الدين ابن عربي (حتى ضج مخالفوه من أتباع ابن عربي)، فذهبوا بجموعهم إلى دار السلطنة يشكون منه، فأمر السلطان ـ لحل هذا النزاع ـ بعقد مجلس للمناظرة (بدار العدل).

فانعقد المجلس وحصلت المناقشة، وخرج المخالفون منه لا يلوون على شيء، بعد نصرة الفقهاء له وسكوت القضاة عنه.

وليت الأمر انتهى بذلك، ولكن استمرت المنازعات والمقاطعات حتى ضاقت الدولة ذرعًا، وضجر السلطان ولم تجد الدولة وسيلة لحسم هذه المنازعات والمقاطعات إلا أن تتجه نحو شيخ الإسلام.

فخير بين ثلاث: إما أن يخرج من القاهرة ذاهبًا إلى الشام مسقط رأسه، وإما إلى الإسكندرية بشرط أن لا يثير مثل هذه المسائل، ولا يتعرض بها بالنقد، وإما العودة إلى السجن، فاختار السجن متمثلاً بقول الله تعالى حكاية عن قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (سورة يوسف: ٣٣).

ولكن إلحاح طلابه ومريديه دفعه إلى الرضا بالذهاب إلى الشام وقبول الشرط، فركب خيل البريد في اليوم الثامن عشر من شوال سنة ٧٠٧هـ، وما أن سار مرحلة، حتى جاءه أمر السلطان بالعودة إلى القاهرة، وهناك بلغه قاضي القضاة، بأمر الحبس (قال بعضهم له: ما ترضى الدولة إلا بالحبس، وقال قاضي القضاة: وفيه مصلحة له).

وطلب من شمس الدين التونسي المالكي أن يحكم، فقال: ما ثبت عليه شيء، ثم طلب من نور الدين الزاواوي المالكي، فتوقف ولم يجر جوابًا، وهنا أنقذ الشيخ موقفهم، وقال: أنا أمضي إلى السجن، واتبع المصلحة... فأرسل إلى حبس القضاة، وأذن بأن يكون عنده من يخدمه.

فأي مصلحـة هذه سواء أكانت للدين أو للمسلمين، أن يحبس عـالم، وهو غير متهم لا في أمر ديني أو دنيوي؟؟. هل العلـماء وجدوا في هذه الدنيا من أجل حمل الإسلام ونشر علومه بين الناس، أم في السجن يرقدون؟

وبسجن القضاة مكث سنة ونصف السنة أيضًا، ولكن هذا الحبس كان بمثابة إقامة جبرية، سمح للفـقهاء والعلماء أن يزوروه فيه، كمـا سمح للطلاب أن يأخذوا عنه. ولأعيان الدولة أن يسـتفتوه، وبقي على هذا الحال حتى خـرج من سجنه هذا، بقرار من مجلس القضـاة والفقهاء، عقـد في المدرسة الصالحيـة، وألزموا به الدولة، وبهذا تظهر قوة العلمـاء أنهم إن اجتمعوا - في كل حين - على شيء وقرروا فـيه رأيًا نفذ، وخضعت له الدولة مجبرة، وإن خالف رأيها.

وعاد الشـيخ إلى دروسه وتعليـمه، وفي ذلك الوقت عزل السلـطان الناصر ابن قلاوون نفـسه، وتولى عنه المـلك المظفر بيـبرس الجاشنـكير، وكان هذا الملـك مريدًا للشيخ نـصر المنجي، وهو من أتباع مـحيي الدين بن عـربي، لذلك فقـد استطاع أن ينفي شيـخ الإسلام إلى الإسكندرية، ولكنه سـمح له بالتدريس والإفـتاء، وبقي في نفيه هذا، حتى عاد الناصر بن قلاوون بعد سبعة أشهر إلى حكم الشام والقاهرة. وما أن وصل إلى القاهرة وجلس على دست الحـكم في يوم مشهود، هو يوم عـيد الفطر المبارك ٧٠٩هـ، حتـى فكر في أمر هذا الشيخ، فاسـتدعاه في اليوم الثانـي من العيد مكرمًا معـززًا، ولم يكتف السلطان الناصر بهذا التكريم، بل طلب مـنه الفتوى، في من آذوه وأوردوه المهالك.

وهم بنفس الوقت قـد مالأوا خـصمـه في السلطان والحكم: مما أدى إلى عزل نفسه.

وطلب منه أن يقـول كلمـته في القـوم، ومنهم ابن مـخلوف المالكي الذي أمـر بحبســه الأول، فأصدر شيخ الإسلام هذه الـفتوى في خصومـه. (بأن دماءهم حرام

عليه وأنه لا يحل إنزال الأذى بـهم، فقال له السلطان: إنهم قـد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا انتصر لنفسي).

ولم يكتف الشيخ بهـذا الحكم الذي أرضى الله ورسوله وجمـاعة المسلمين، بل شفع لهم طالبًا العفو عنهم قائلاً للسلطان: وإذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

وحين سمع ابن مخلوف المالكي ما قاله الشيخ فيـهم قال: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر، وقدر علينا فصفح وحاج عنا.

لله درك رحمك الله وأرضـاك، ولا غرابة في ذلك فقد كنت العـالم التقي الذي يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة.

وبهذا انتهت هذه المحنة، ولكن بقي لها ذيول، ومن ذيولها: أنه في اليوم الرابع من شهـر رجب ٧١١هـ امتدت إليـه أيدي أثيمة بـالضرب، فتـجمع أهالي الحسـينية سكان مـحلة سيدنـا الحسين ﷺ بالقـاهرة ـ وفيهـا محل سكنـاه ـ ليثأروا للـشيخ، فردهم، فألحـوا عليه، فمنعهم قائلاً: أمـا أن يكون الحق لي أو لكم أو لله؟ فإن كان الحق لي فهم في حل مني، وإن كان لكم فإن لم تسمعـوا مني ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم؟ وإن كان لله فالله يأخذ حقه إن شاء.

وعـاد الشيخ إلى دمـشق، ولكن عودته لـها لم تكن للراحـة والاستـجمـام في مصايف بلودان ودمر، بعد ما أصابه من شـدة وبأس في مصر وإنما عاد إليها مجاهدًا يحمل السيف وهو قد تجاوز الخمسين عامًا.

نعم عاد مـجاهدًا، فقد صـحبه السلطان الناصـر وهو على رأس جيش المسلمين لملاقاة التتار، وفي الطريق وصلت أنباء هذا الجيش المظفـر إلى التتار، فرجعوا خائبين لا يلوون على شيء.

قال ابن كثير: ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق، واستقراره بها، لم يزل ملازمًا للاشتغال في سائر العلوم، ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطلوبة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده، من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يخالفهم[1] أو يخالف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة.

وكان من جملة مخالفته للقول المشهور من أصحاب المذاهب الأربعة، مسألة الحلف بالطلاق، فهو رحمه الله يراه لا يقع الطلاق به، ولا تنفصم به عقد الزوجية، وله دليله الشرعي في ذلك، ولما أفتى بها وطار خبرها، استنكر ذلك فقهاء المذاهب، فاجتمع به قاضي القضاة وأشار عليه بترك الإفتاء بهذه المسألة فقبل الإشارة المتضمنة نصحه، وما أن مرت الأيام به، حتى عاد إلى الفتوى بها ووجد أن عموم البلوى يدفعه إلى الجهر بها، ولما علم السلطان الناصر أن ابن تيمية عاد إلى فتواه هذه، كتب إليه كتابًا في ١٩ رمضان ٧١٩هـ يؤكد عليه إشارة قاضي القضاة، ولكنه رحمه الله رفض هذه الإشارة، رغم تأكيدات المنع وإشارات القضاة، عند ذاك قرر نائب السلطنة في دمشق حبسه في القلعة، وبقي محبوسًا فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ولما يئس الجميع من رجوعه وامتناعه، أمر السلطان الناصر بإطلاق سراحه، وكان ذلك في ١٠ محرم الحرام ٧٢١هـ وخرج من السجن، متمسكًا بفتواه تلك.

وانتهت بهذا محنته هذه، ولكن بقيت في انتظاره محن أخرى، كانت هي الأخيرة والتي مات فيها، الفقهاء والقضاة من ذوي الشأن لم يتحملوا نقده، كما لم يطيقوا صبرًا على فتاويه، فهو يفتي بما يراه صوابًا وإن خالف من خالف من الفقهاء والعلماء، لأنه ينظر إلى الدليل الشرعي، وقول الصحابة الكرام، ويسوقه هذا النظر

---

(١) إنه رحمه الله حين يخالفهم، يعتذر عنهم بأعذار مختلفة، وهكذا شأن العالم الثبت، يراجع في معرفة ذلك رسالته المسماة: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

إلى رأي معين يعتقد بصوابه فيعلنه بجرأه، ولا يلزم الناس بما يقول من فتوى إذ ما كان قاضيًا، وإنما كان مفتيًا، يسأل السائل فيجيب، ولا يملك أي فقيه أو مجتهد مهما بلغ في العلم، أن يلزم الناس بآرائه الاجتهادية مادام الرأي معتمدًا عل نص ظني الدلالة والثبوت، وهو يحمل أكثر من رأي واحد، وإنما الإلزام يكون في الرأي الذي يعتمد على نص قطعي الدلالة والثبوت، ولا موضع للاجتهاد فيه، كما يكون الإلزام فيما تتبناه الدولة من آراء وأحكام، وسار الشيخ على هذا النهج (ولم يزل كذلك إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين)[١].

وكان قد أجاب به نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك.

وكبرت القضية[٢] وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ستة وعشرين وسبعمائة بجعله في القلعة محبوسًا فأخليت له قاعة حسنة، وأجري إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب، والرد على المخالفين وكتب على تفسير القرآن. . .

وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا له دواة ولا قلمًا وكتب عقيب ذلك بفحم يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم.

ويحسن بنا أن نختم محنته بل محنه، بذكر بعض ما كتبه بالفحم وهي تصور نفسيته، وتبرز شخصيته، معبرة عما يحول في خاطره في تلك المحنة التي كانت عليه من أعظم النقم.

---

(١) مات رحمه الله تعالى في سنة ٧٢٨هـ، وله من العمر ٦٧ سنة.

(٢) يرى شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عدم جواز ذلك للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم حيث قال رسول الله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»**.

يقول رحمه الله: «كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمرء من قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

مكث شيخ الإسلام بسجنه هذا خمسة أشهر قاضيًا أيامه الأخيرة، في التلاوة والعبادة والتهجد.

فلازمه المرض عشرين يومًا وفي أثنائها زاره وزير دمشق لعيادته فلما جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يحلله مما عساه قد وقع منه في حقه من تقصير، فأجابه: «إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد ما بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ».

وبهذا الصفح الجميل، وبتلك النفس الصابرة، انتقل إلى جوار ربه الكريم، وقد روى عنه ابن القيم وهو رفيقه في الحبس أن آخر ما تلاه من القرآن العظيم وفاضت روحه: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (سورة القمر: ٥٤-٥٥).

بين ابن تيمية وغازان

وردت الأنباء في أواخر سنة ٦٩٨هـ بزحف غازان التتري وجيشه من إيران نحو حلب وفي وادي سليمة يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون وبعد معركة حامية الوطيس انهزم جمع الناصر وولّى الجند وأمراؤهم الأدبار ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية بقى صامدًا مع عامة الناس فاجتمع شيخ الإسلام مع من بقى من أعيان البلاد، واتفق معهم على تولي الأمور إلى أن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان فقابله في بلدة النبك وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة قال البالسي: قال الشيخ ابن تيمية لغازان وترجمانه يترجم كلام الشيخ: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا على ماذا؟

وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت، وجرت مع ابن تيمية وغازان صور قام به ابن تيمية كلها لله، ثم قرَّب غازان إلى الوفد طعامًا فأكلوا إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل؟.

فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟

وغازان مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن غازان من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة سأل: من هذا الشيخ؟

إني لم أر مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه.

فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، ثم طلب منه غازان الدعاء.

فقال الشيخ يدعو فقال: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده، وملكه البلاد والعباد وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فأخذله وزلزله ودمره واقطع دابره - وغازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه - قال البالسي: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن نتلوث بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله، فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره: كدت تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا، فقال: وإني والله لا أصحبكم.

قال البالسي: فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق ووالله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه.

وكنت أنا في جملة من كان معه وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم - أي سلبوهم ثيابهم وما معهم -[1].

(١) «مختصر منهاج السنة» للذهبي (ص: ٣٣٢).

الخاتمة

والمشهد الأخير

أحداث كثيرة تتم على ظهر هذه الأرض، التي نعيش عليها، ولكن المشهد الأخير سيكونْ على أرض أخرى قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة إبراهيم:٤٨).

وعن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى» (متفق عليه)، قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: تبدل الأرض أرضًا كأنها الفضة لم يسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة، وعن عكرمة قال: بلغنا أن هذه الأرض يعني أرض الدنيا تطوى، وإلى جنبها أخرى يحشر الناس منها إليها، وقد ذهب البعض إلى أن الذي يبدل من الأرض إنما هو صفاتها فحسب. وإنه لمشهد عظيم عندما يقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (سورة الصافات:٢٤)، ويقال: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٤٧)، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٤٧). فالذي يحاسب العباد هو ربهم وخالقهم، الحكم العدل، قيوم السموات والأرض، وتجيء الملائكة بكتب لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:٤٩).

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، وعند الله تجتمع الخصوم، ولا يظلم ربك أحدًا، تذكر ذلك إذا رأيت حقوقًا تضيع، وشاهدت البعض يقلب الموازين، بحيث يصبح الظالم مظلومًا والمظلوم ظالمًا، والحق

باطلاً والباطل حقًا، تذكر ذلك إذا عم المكر والبغي والعدوان، وتسلط الكافر على المسلم فنطق ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة: ٢١٤).

تذكر ذلك إذا استحكمت الغربة، وتولى إمرة الناس لكع، سفيه يتكلم في شأن العامة، وخُوِّن الأمين وائتمن الخائن، وكانت انتكاسة المفاهيم وضياع الحقائق.

تذكر ذلك إذا شاهدت الدعايات المغرضة الفاسدة، التي شوشت على عقول البشر، وظهر من يلحن بحجته على مستوى الفرد والدولة والجماعة. فضاعت حقوق أفراد وشعوب.

تذكر ذلك، وطب نفسًا، فغدًا ينكشف الغطاء، وتكون الجولة والمشهد الأخير، والعبرة بمن يضحك آخرًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة المطففين: ٢٩-٣٦). كان شداد ابن أوس رضي الله عنه يقول: اعلموا أنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه، ولن تروا من الشر إلا أسبابه، الخير بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

تذكر دومًا، أنه ما قام عبد الله مقام ذل إلا وأقامه الله مقام عز، فما خاب من تعامل مع الله، وثق أنك ستوفى حقك كاملاً غير منقوص، فما ضاعت عنده سبحانه مثاقيل الذر، وإن ضعفت قوتك عن استيفاء الحق، أو وجدت قدرة على الانتقام - أحيانًا - فلا تتجارى مع هواك، وفوض الأمر إليه، فهو أولى بك منك، وقل عند الله غدًا تجتمع الخصوم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد عبد العظيم

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون	٩
الصيحة تأخذهم وهم يخصمون	١١
قوله تعالى: ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ...﴾	١٢
﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾	١٣
ألد الخصام	١٤
الخصيم المبين	١٦
الناس يختصمون والملائكة كذلك	١٨
﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾	١٩
ولا تكن للخائنين خصيمًا	٢٠
هذان خصمان اختصموا في ربهم	٢٤
تخاصم أهل النار	٢٦
إذا اختصمتم فتذكروا	
أولا ـ الإيمان بالأسماء والصفات	٣٧
ثانيا ـ الإيمان باليوم الآخر	٤٧
كلمة جامعة في القضاء	٦١
روايات ومسائل فقهية تتعلق بالخصومات	٦٤
إذا وقعت الخصومة فتذكر	
أن التخلية قبل التحلية	٧٩
إذا حدثت الخصومة فتذكر	
أدب الخلاف وفقهه	١٣٧
تنبيهات هامة	١٥٦

الموضـوع | صفحة

خصومات تتكرر علينا ١٦٨
بين نوح عليه السلام وقومه ١٧٦
بين إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر ١٨٠
بين إبراهيم عليه السلام وقومه ١٨٢
مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود ١٨٧
هـود عليه السلام مع قومه ١٨٨
صالح عليه السلام مع قومه ١٩١
شعيب عليه السلام مع قومه ١٩٤
لـوط عليه السلام مع قومه ١٩٦
محنة يوسف عليه السلام ٢٠١
بين موسى عليه السلام وفرعون ٢٠٥
بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل ٢٠٦
اتهام مريم ـ عليها السلام ـ ٢٠٩
قتل يحيى عليه السلام ٢١٣
أصحاب الكهف ٢١٥
صاحب يس ٢١٩
عبد الله الغلام ٢٢٣
المؤمن وصاحب الجنتين ٢٢٧
مؤمن آل فرعون ٢٣٠
آسية بنت مزاحم ٢٣٣
الخصومة مع أبرهة وأصحاب الفيل ٢٣٥
قصة قابيل وهابيل ٢٤٢
قصة جريج العابد ٢٤٦
قصة برصيصا ٢٤٩
قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم ٢٥٠

الموضـــوع صفحة

خبر الثلاثة: الأعمى والأبرص والأقرع ٢٥١
حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها ٢٥٢
قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة ٢٥٣
اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب بشأن قاتل المائة نفس ٢٥٤
وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٥٤
خصومة عثمان رضي الله عنه مع قاتليه ٢٥٧
خصومة علي رضي الله عنه مع الخوارج ٢٦٣
مقتل علي رضي الله عنه ٢٦٥
وقعة صفين ٢٦٧
وقعة الجمل ٢٧٠
معاوية بن أبي سفيان وملكه رضي الله عنه ٢٧٤
مقتل حمزة رضي الله عنه ٢٧٦
خصومة بلال رضي الله عنه مع أمية بن خلف ٢٧٩
بين عبد الله بن حذافة رضي الله عنه وملك الروم ٢٨١
عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ٢٨٢
حديث الإفـك ٢٨٤
سرية بئر معونة ٢٩٠
مقتل الحسين بن علي ٢٩٣
وقعة الحـرَّة ٢٩٧
بين عمر بن عبد العزيز وعمر بن الوليد وغيره ٢٩٩
سعيد بن جبير مع الحجاج ٣٠٣
بين الفضيل بن عياض وهارون الرشيد ٣٠٧
بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك ٣١٠
بين الأوزاعي والمنصور ٣١٣
بين سفيان الثوري والمهدي ٣١٦

الموضـــوع	صفحة
بين الأوزاعي وعبد الله بن علي	٣١٨
بين أبي حنيفة والمنصور	٣٢٠
بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب	٣٢٢
بين العز بن عبد السلام والملك الصالح إسماعيل	٣٢٤
بين النووي والظاهر بيبرس	٣٢٦
القاضي شريك والنصراني	٣٢٧
بين الأوزاعي والسفاح	٣٣٠
بين الحجاج وابن الأشعث	٣٣١
بين الحجاج والعُديل بن الفرخ	٣٣٣
بين الحجاج ويحيى بن يعمر	٣٣٤
قصة أحمد بن طولون	٣٣٤
بين عطاء بن أبي رباح ورجل	٣٣٥
بين محمد علي الكاتب وشيخ الكتاب	٣٣٦
بين الحجاج ومحمد بن الحنفية	٣٣٧
بين ربعي بن عامر ﷺ ورستم	٣٣٨
بين العز بن عبد السلام والسلطان أيوب	٣٣٨
محنة أبي حنيفة النعمان	٣٤٠
محنة مالك بن أنس	٣٤٥
محنة أحمد بن حنبل	٣٤٨
محنة الشـافعي	٣٦٩
محنة البخـاري	٣٧٢
محنة ابن تيمية	٣٧٦
بين ابن تيمية وغازان	٣٨٥
الخـاتمة	٣٨٧

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

قصص القرآن

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار الهمة
لتوزيع الكتاب والشريط الشرعي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الصِّدقُ مَنجاة

عاهدتُ اللهَ ألّا أُحدِّثَ إلّا صِدقًا.
الصِّدقُ في الإخلاص، الصَّبر، التَّوبة، معرفةُ النَّفس.
الصِّدقُ في معرفةِ نِعمِ الله، الصِّدقُ في الرِّضا عن الله.
الصِّدقُ في الشَّوقِ إلى لقاءِ الله والأنس بذكرِهِ سُبحانه.
أمثالٌ شعبيّةٌ تحرِّضُ على الكذب، كذبةُ إبريل.
كلماتٌ مِن نورٍ تُعينك على الصِّدق.
هيّا بنا نؤمن ساعة أو قُل نصدقُ ساعة
وحتّى تؤتي الصَّحوةُ ثمارَها بإذنِ الله.. وموضوعاتٌ أخرى

كتبه
سعيد عبد العظيم
عفا الله عنه

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

عظات وعبر في وعاشروهن بالمعروف

بقلم

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٢٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

معجزات النبي ﷺ

إشارات علمية - بشائر ومسائل مهمة - إخبارات بغيوب ماضية ومستقبلية
دلائل ومعجزات حسية - كرامات تُعد من المعجزات

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

هيا بنا نؤمن ساعة

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الأتقياء الأخفياء

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلات
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

الصدق منجاة

عاهدت الله ألا أحدث إلا صدقا.
الصدق في الإخلاص، الصبر، التوبة، معرفة النفس.
الصدق في معرفة نعم الله، الصدق في الرضا عن الله.
الصدق في الشوق إلى لقاء الله والأنس بذكره سبحانه.
أمثال شعبية تحرض على الكذب، كذبة إبريل.
كلمات من نور تعينك على الصدق.
هيا بنا نؤمن ساعة أو قل نصدق ساعة
وحتى تؤتي الصحوة ثمارها بإذن الله.. وموضوعات أخرى

فضيلة الشيخ الدكتور
سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

كيف تنال السعادة الحقيقية

فضيلة الشيخ الدكتور
سعيد عبد العظيم
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩